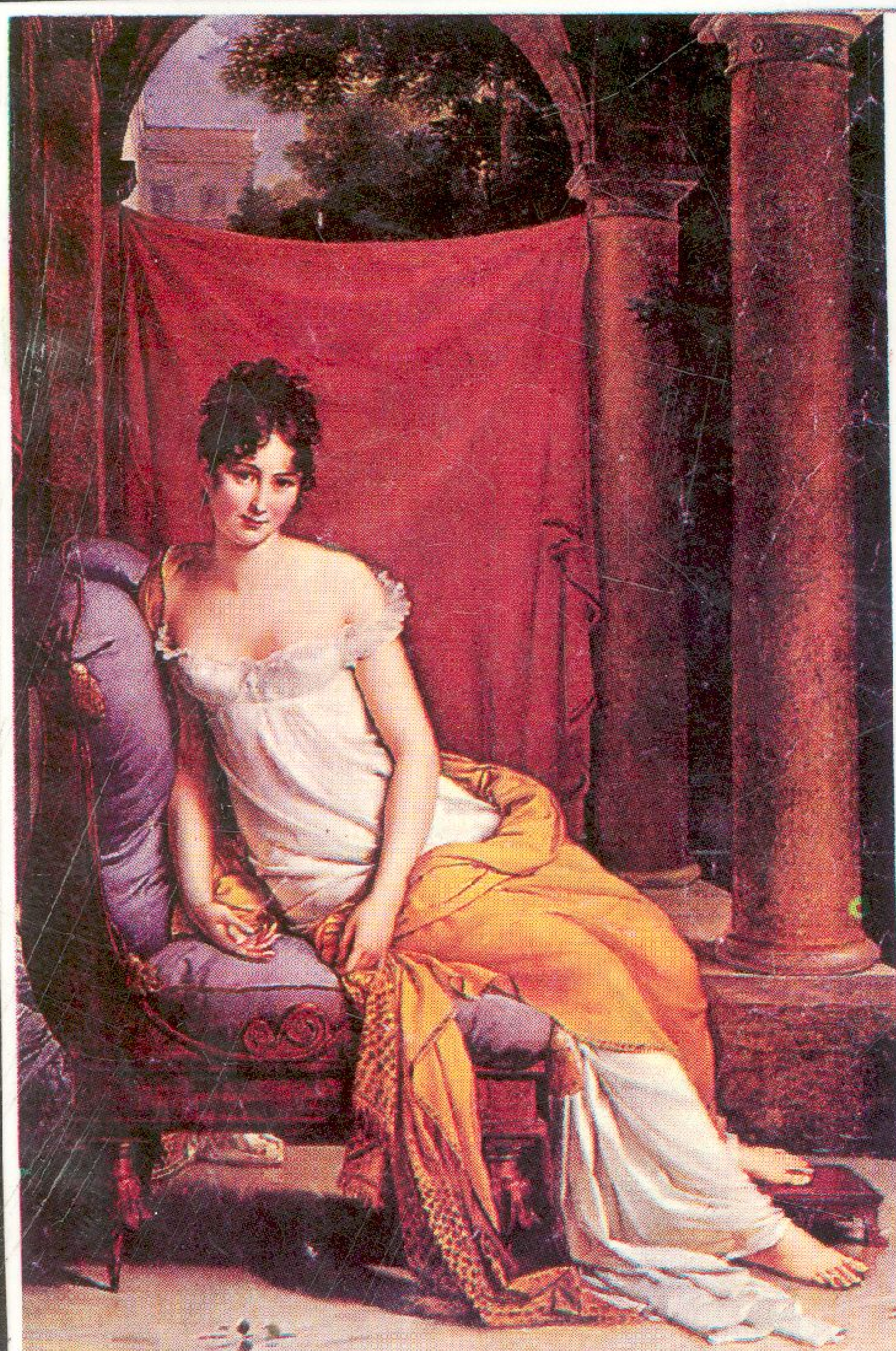
الملهمات في الفن والتاريخ

جمال قطب







المؤلف (الفنان جمال قطب) فى سطور



● عمل رساما بدار الهلال وهو لم يزل طالبا بكلية الفنون الجميلة بالقاهرة ، وبعد تخرجه اتسعت ممارسته الفنية فأصبح الرسام الأول لمجلات دار الهلال ، ثم المدير الفنى لها ، بجانب كتاباته فى النقد والتذوق الفنى ..

● اشتهر بأسلوبه الخاص فى رسم الغلاف لمعظم الكتب لكبار المؤلفين على اتساع الوطن العربى ، وكذلك رسم الحروب واللوحات الحركية والأحداث الساخنة .

● قام بالعديد من الزيارات الدراسية لكثير من العواصم الغربية والشرقية .

● من أشهر لوحاته الإعلامية مُجلد (انتصار بورسعيد) الذى أصدرته مصلحة الاستعلامات فى أواخر الستينيات بعدة لغات عالمية ، وفيه تسجيل حى باللوحات الفنية لأحداث الثورة المصرية ومعارك التحرير العربية . وقد عرضت هذه اللوحات فى معارض خاصة بالقاهرة والأقاليم فى شتى المناسبات الوطنية .

● كلف فى عامى ١٩٧٦ ، ١٩٧٧ بعمل اللوحات التاريخية لمتحف « دارة الملك عبد العزيز » بالرياض .

● عمل خبيرا للفنون بدولة قطر ومحاضراً بجامعتها فى التذوق الفنى ، منذ عام ١٩٧٩ حتى ١٩٨٦ فأسس المرسم الحر بالدوحة حيث تخرج على يديه المئات من الفنانين القطريين من الجنسين .. وفى هذه الفترة الخصبة ، امتدت نشاطاته الثقافية والفنية إلى المجالات العالمية ، فأسهم بكتاباته فى عدة صحف ومجلات عربية وأجنبية منها جريدة الهيرالدتريبيون العالمية ، وكذلك سجل التراث الخليجى فى العشرات من اللوحات البانورامية الضخمة .

● من أبرز كتاباته فى الصحف العربية تلك الأبواب الثابتة فى كل من مجلة « الدوحة » القطرية تحت عنوان « روائع الفن العالمى » ، وجريدة « الرياض » السعودية فى عدد الخميس الثقافى حيث خصصت له صفحة كاملة على مدى خمس السنوات الماضية ، ومجلة « الحرس الوطنى » السعودية تحت عنوان « الفن والحرب » ، ويوميات « الراية » القطرية .. عدا الكتابات المتفرقة فى مجلة العربى ـــ المجلة العربية ـــ الجوهرة ـــ بسيدتى .. وغيرها .

● اشتهر برسم الصور الشخصية « البورتريه » للملوك والرؤساء وكبار الشخصيات ومنها صورة الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا التى تحتفظ بها فى مجموعتها الخاصة .

● حصل على الجائزة الأولى الممتازة من وزارة الثقافة (الهيئة العامة لثقافة الطفل) على لوحات كتب الأطفال عن الثلاثة الأعوام الماضية (١٩٨٨/٨٩/٩٠) .

● يعمل حاليا أستاذا بأكاديمية الفنون للنقد والتذوق الفنى وتاريخ الفن .

● يعد برنامجا أسبوعيا فى التليفزيون عن الفن العالمى تحت اسم (أتيليه) على القناة الثانية .

● رشحته أكاديمية الفنون فى ديسمبر عام ١٩٩١ لنيل جائزة اليونسكو العالمية للإبداع الفنى .

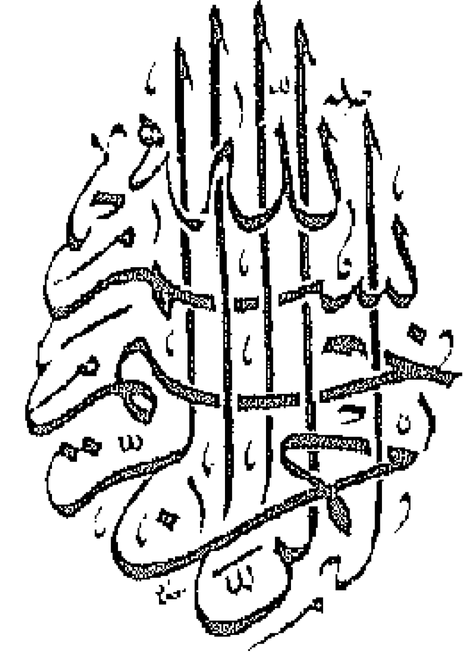
مكتبة مصر

الملهمات

في الفن والتاريخ

جمال قطب

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
القاهرة



تقدمة

الفن والتاريخ ... ولماذا المرأة ؟

هذا هو كتابنا الرابع من سلسلة الموسوعات الأنيقة التى تُعنى بها مؤسستنا الرائدة « **مكتبة مصر ودار مصر للطباعة** » ، وقد صدر منها : **الفن والحرب** ، **روائع الفن العالمى** ، **أشهر الرسامين والموسيقيين** الذى صدر مؤخرا بالاشتراك مع الأستاذ سعيد جوده السحار ، ومؤلفنا هذا : **الملهمات فى الفن والتاريخ** ، نسير فيه على نهجنا المعتاد من أناقة الإخراج والطباعة والتجليد ، حتى تنتسب مطبوعاتنا ــ عن جدارة ــ إلى جمال الفن وروعة الإبداع ، من مؤسسة طالما أسهمت فى إعلاء شأن الفكر الراقى والفن الرفيع !

● وفى مجال النشر العالمى المعاصر .. نرى سباقا مثيرا فى إخراج الكتب التى تنهل من التاريخ والفكر الإنسانى . موثقة بلوحات العباقرة من أساطين الفن العظام ؛ وبذلك ، امتزجت حقائق التاريخ بمواهب المبدعين .. وتمثلت قصص الأعلام فى مخيلتنا ووجداننا أطيافاً متألقة تبعث فى ذاكرتنا وبصيرتنا دفء العواطف الأنثوية التى تحيل الجمود إلى حيوية دافقة ، والسكون إلى مناجاة عذبة رقيقة ، والصمت إلى همس شجى حنون ! وهكذا كانت المرأة الملهمة مع الفنانين ورجالات التاريخ .. من أمامهم أو من خلفهم .. ترقى معهم إلى ذُرى المجد .. أو تهوى بهم إلى قاع الحياة !

● وأرجو أن أوضح بأننى لست مؤرخاً محترفا ، ولكننى متذوق لأحداث التاريخ ، مولع بالجوانب الإنسانية ، أو بالوجه الآخر ــ كما يقال ــ لأعلامه من المشاهير . وكما نقرأ السطور والوقائع والأحداث .. نقرأ اللوحات فنجد أن وراء كل لوحة قصة .. وقد أجهد نفسى فى الغوص وراء المعلومة لاستقصائها من عدة مصادر ، وقد تكون هذه المصادر ذاتها متعارضة متباينة ، أو متوافقة متقاربة ، ولذلك ، أنهج إزاءها نهج الفن ذاته ، فهو يعبر عن روح الحدث ، ولا يعنى بنقل الواقع والحقيقة ... ومن هذا المنطلق أضحى للفن شموليته ورحابته .. لأنه يخاطب البصائر بمضامين ذات أهداف ورؤى معنوية تعبر عن روح الإنسان .. وتتخطى حواجز الزمان والمكان ! وهكذا أنظر إلى التاريخ على أنه ومضات فكرية وأقباس روحية ، أسهمت بمفهوم إنسانى فى تجسيد النزعات أحداثاً وأفعالاً وأقوالاً .. مفعمةً كلها بالعواطف والصراعات والنزوات والأهواء ، زاخرةً بالعطاء والمواقف والآراء ..

تلك هى ديناميكية الحياة عبر قرون التاريخ .

وطبيعى أن يدلى كلّ منا بدلوه فى هذا المنهل السائغ .. يتأمل ويستوعب ويستخلص .. فالفنان يحلق ما شاء له التحليق ، أما المؤرخ فيهبط إلى مفردات الحقائق فى أعماق التراث ، منقبا بين تراكمات الأحداث وركامات السنين عن الوقائع والفروع والجذور ، وصحة الأنساب والأسباب ، تشده المسئولية العلمية بوثاق الالتزام .

ومن هذه التقدمة .. نرى أن الفرق بين الفنان والمؤرخ ، هو ما بين المتأمل المستمتع بروح الجاذبية الوجدانية والعلاقات الإنسانية ، والباحث المحلل الملتزم بمنطق الواقع والحقيقة .

أى أنه الفارق بين حارس الكنز ، والمستمتع بدُرره ولآلئه !

● أما الملهمة فى الفن والتاريخ .. فهى قصة المرأة فى الحياة .. أو هى الحياة ذاتها .. فمنذ بدء الخليقة وجدنا فى النظام البدائى — باعتباره الشكل الاجتماعى الأول فى مراحل التطور البشرى — رئاسة المرأة للعشيرة أو القبيلة فى كثير من مراحل تلك العصور السحيقة ، وعرفت تلك النظم بالمجتمعات الأمومية ، بل ولا تزال بقايا هذه المجتمعات الأمومية فى بعض القبائل الإفريقية حتى اليوم ! ويقول « ماريت R.Marrett » : إن مكانة المرأة قد تمثلت فى مخيلة الرجال روحيا وعقائديا فيما يعرف بعقيدة « المانا Mana » على اعتبار أنها قوة ميتافيزيقية مسيطرة فوق قوى الطبيعة ، وقد وضع الرجل البدائى المرأة فى مصاف هذه القوى السحرية الغامضة ، بما تثيره فى الغرائز من بواعث يصعب فهمها ، بل ويستحيل تفسيرها .

ولما سيطر الرجل فى مراحل تاريخية لاحقة بما عرف « بالأسرة الأبوية » ، كان ذلك بسبب التحولات الاقتصادية والتفوق العضلى والحركى للرجل .. فاقتصر دور المرأة على دورها البيولوجى .. ولكنها استثمرت هذا الدور بل وأخذت فى تطويره حتى استعادت سيطرتها بصورة حانية ناعمة خلبت بها قلوب الرجال ، وأثارت فيهم النوازع النفسية والوجدانية والجسدية .. فأسقطوا عليها شتى المضامين الميثولوجية والقيم الإنسانية والروحية .. ولذلك رأينا فى مهد الحضارات الكبيرة ، أن معظم الآلهة من الإناث ، وأن كثيرا من الشعارات والروابط الوثيقة تجمع بين المرأة والحياة ذاتها .

● أما الصراعات الطبقية .. فيصل المؤرخون بأبحاثهم إلى أن المرأة كانت السبب الأول فى ذلك الصراع ! ويقول « إرنست فيشر ، وروبرت برينولت » فى مؤلفيهما عن « الجنس والحضارة البشرية » : إن قبائل الصيادين كانت تجتمع حول النساء قُبيل رحلة الصيد ، وكانت النساء — بدورهن — يرقصن لخلق جو من الإثارة الجنسية ، وعندما يسرع الصيادون بحثا عن الفريسة ، كانوا يشبعون ثورتهم الجنسية بقتل الحيوان .. وقد ارتبط التطابق فى أذهانهم بين المرأة والفريسة ببدايات الصراع بين الجنسين .. وقد ترك لنا الإنسان البدائى كثيرا من الرسوم على الكهوف والمنحوتات التى تمثل المرأة ، وقد صب كل اهتمامه فى إبراز خصائصها الأنثوية .. وأجمع المؤرخون على أن هذه الخصائص كانت مزيجا عاطفيا جسديا ، ومدلولا عقائديا سحريا فى الوقت ذاته .

● وتطورت مراحل التاريخ صعودا وهبوطا بمكانة المرأة وسيطرتها أو تبعيتها .. ولكنها لم تفقد أبدا إلهاماتها وتأثيراتها على الرجل فى يوم من الأيام ، ويقول « إرنست فيشر » فى كتابه ، « ضرورة الفن » :

— إن الحب وهو أكثر المشاعر ذاتية ، هو فى نفس الوقت أكثر الغرائز شمولا ، ولكن السبل والأشكال التى يتخذها الحب ووسائل التعبير عنه تمثل فى كل عصر من عصور التاريخ تطورا ملحوظا يجعل الدوافع والرغبات الجنسية أكثر غموضا وتعقيدا ، أو أكثر سموًّا وروحانية .. مما يزيد العلاقة العاطفية إثارة ورحابة وشمولا يستعصى فهمها على اجتهاداتنا المحدودة ، مهما كابدت هذه الاجتهادات من عناء البحث ودأب الدراسة والتحليل !

● وقد كان لأجدادنا الفراعنة حس مرهف وقلوب محبة متفتحة .. كما كانت المرأة محور اهتمام الرجال وبسمة الحياة على وجه الحضارة الرائدة .. ولذلك رأينا كثيرا من الفنانين العالميين ذوى الأسماء الكبيرة يستلهمون المرأة الفرعونية فى إبداعاتهم الخالدة .. سواء أكانت ملكة أو أميرة

أو إحدى فتيات الطبقة المتوسطة .. وسواء ألعبت دورا فى التاريخ أم كانت أسطورة يتناقلها الرواة جيلا بعد جيل .. فرأينا فنان العصر الفكتورى الأشهر « سير لورانس ألما تاديما » يقيم معرضاً خاصا فى العاصمة البريطانية فى أوائل هذا القرن ، ينال عليه الجائزة الذهبية العالمية .. وكل لوحات المعرض تتغنى بجمال المرأة الفرعونية ومفاتنها الآسرة !

وتزخر متاحف العالم بالعديد من البرديات الغزلية فنقرأ فى بردية تسمى « بردية تستربيتى » هذه الأبيات الشعرية العاطفية التى تفيض رقة وعذوبة يتغنى فيها الرجل الفرعونى بحبيبته ويعدد مفاتنها فيقول :

انظر .. إنها كنجمة الزهراء
ضياؤها ساطع ووجهها منير
جميلة العينين حلوة الشفتين
طويلة العنق شهية الثديين
شعرها أسود مسترسل رائع
ذراعها تفوق الذهب فى طلاوته
أصابعها مثل براعم اللوتس
نحيفة الخصر رشيقة الساقين
رقيقة القدمين عندما تسير
لقد سلبت لبى عندما قبّلتها
ما أسعد من يلثم فمها الوردى !

● ولكن لماذا تقتحم المرأة ذات الفنان فى أثناء العملية الإبداعية ، حتى قد تصبح فى النهاية عنصره الأساسى فى تكوين بنائه الفنى ! ولماذا نراها معينا لا ينضب رواؤه لكل المبدعين على مر العصور ؟

إن المهتمين بالثقافة الفنية وعلم الجمال ، لابد أن يقفوا طويلا أمام هذا التساؤل المثير ! فمنذ أن ظهرت الفلسفات الجادة والعلوم الجدلية .. والمرأة تحظى بقسط وافر من هذه الاهتمامات الإنسانية من عهد تاليس وأرسطو وسقراط وأفلاطون .. وحتى العصر الحديث وفلاسفته المعاصرين قد ربطوا بين الحب والفن والجمال .. وكأنها قضية لا تقبل المناقشة ، وعللوا آراءهم بأن التفاعل الوجدانى فى ذات الفنان . تحركه الفتنة الأنثوية والغريزة الجنسية وأطياف الحب العذرى ، فضلاً عن القيم المعنوية الغامضة التى تنعش الوجدان بإيحاءات الإلهام العاطفى ظاهرا أو مستترا .

وإذا كان « داروين » ــ كغيره من جموع الفلاسفة ــ يربط بين الحس الجمالى والغريزة .. فإنه واضح كل الوضوح فى نزعته هذه .. ولكن البعض من الباحثين يلف ويدور حول الإحساس بالجمال والعاطفة والدوافع الشعورية واللاشعورية .. ويرون أن هذا الإحساس هو حالة تمتد إلى خصائص الإنسان الفطرية والطبيعية .. أى إلى طفولة الجنس البشرى فى ماضيه السحيق .. وبينما يرى « داروين » أن الجمال والحب والجنس ما هى إلا أوجه ثلاثة لظاهرة واحدة فى الحياة هى ظاهرة التطور ، ويرى « بيرتراند راسل » أن المرأة والجنس محرك أساسى لأفضل ما فى الحياة البشرية : ألا وهو الحب والفن والجمال ، نشهد آخرين من أمثال « إرنست هايكل » لا يرى بالضرورة ــ أن تكون هذه العلاقة

مباشرة ، بل يعتبرها مصدر وحى وإشعاع لإثراء الفكر الإنسانى والفنون الراقية ، وتطور الحضارة ذاتها بوجه عام .

وإذا سلمنا بآراء الفلاسفة وعلماء الجمال فى أن الجنس والفن والحب والجمال الأنثوى .. عوامل ديناميكية يحرك كل منها الأخريات .. فسنحتار أمام ظاهرة أخرى ، وهى أن تاريخ الفن يحفل بالكثيرات من الفنانات اللائى تغنّين بجمال المرأة فى لوحاتهن كأنسب مادة تشكيلية فى إبداعاتهن من أمثال « فيجيه لوبران ومارى كاسات » وغيرهما من مشاهير الفنانات العالميات . فإذا كان الدافع عند الفنان الرجل هو الغريزة .. فهل يعنى هذا أن المرأة يجب أن تستثار غريزتها بجسد الرجل أكثر من جسد المرأة ؟!

لذلك ، فنحن من رأى الفلاسفة الذين يرون أن الجمال كامن فى الذات فليس « للجميل » وجود مادى محدود ، ولكنه ! إحساس وجدانى نسبى يتشكل ويتبدل فى ذواتنا حسب مواهبنا لتقبل واستيعاب وتصوّر هذا الجمال .. سواء ماديا كان أم معنويا .. وهذا يقودنا إلى قضية : الفن فى ذاته ، أو الجمال الفنى الرفيع وما هو هذ الميل الغريزى المجرد . أو الحب العذرى بالروح والخيال ، ولماذا نحب أشخاصا لا وجود لهم فى حياتنا .. وما هو الخط الفاصل بين التمجيد والتبجيل والإعجاب والهيام ، وبين الحلم والتحليق . والواقع والإشباع .. وأين موقع الفنان ومناهل الإلهام .. بين هذا وذاك ؟! إلى آخر هذه التساؤلات اللانهائية .. ولكننا رأينا ــ كواقع نشهده ونعايشه ــ أن المرأة قد جمعت بين كل القيم والعوامل الفاعلة التى تستثير الهمم والأذهان والقرائح ، فتتألق إلهاماتها سافرة أو مستترة وكأنها القوى المحركة لعجلة الحياة !

.. أما من وجهة نظر المرأة ذاتها ، فانها لا تعتز بشىء فى حياتها قدر ما تعتز بأنوثتها وما وهبها الله من جمال وجاذبية .. وتعتبرها أثمن كنوزها على الإطلاق . ولذلك نجد أن هذه الودائع الثمينة هى وسيلتها فى التأثير وجذب الانتباه .. بل وفى التفوق والسيطرة بلا حدود حسب الظروف والأهداف والغايات التى تنشدها فى حياتها .. وعلى قدر مواهبها فى الذكاء والدهاء لاستثمار هذه المقومات الأنثوية .

وفاتنات التاريخ اللائى سنعيش قصصهن فى هذا الكتاب .. لم يتوسلن فى حياتهن بفتنة الجمال وحدها .. بل بفتنة الذكاء وقوة الشخصية والعبقرية والدهاء والألمعية .. ومن الطبيعى أن يكون طرفا المعادلة العاطفية رجلاً وامرأة .. فبقدر ما يتمتع به أحد الطرفين من مواهب وكفاءات .. وجب على الطرف الآخر أن يرقى بمقدراته ومقوماته إلى نفس المستوى .. بل ويتطور بهذه المقومات الغازية لكسب معركته الحانية .. وليوقع بشريكه المحب فى شراكه الناعمة ، وبين شقى الرحى تدور أحداث وأحداث .. ويسطّر التاريخ صفحاته .. ويستلهم الفنان إبداعاته ، ويتسامى الفكر الإنسانى إلى آفاق رحبة جديدة !

وتخلد القصص الإنسانية فى صفحات التاريخ مهما كانت فى جوهرها ذات صفة ذاتية بحتة .. لأن تأثيراتها قد تتعدى حدود الذات والتجارب الخاصة وتتطور إلى أحداث تقفز فوق العواطف والعلاقات الثنائية ، وصولا إلى مصائر الأمم والشعوب .. فقد تبدأ بقصة غرامية كآلاف القصص التى تحدث فى كل حين .. وتنتهى بملاحم وحروب وأهوال تغير وجه العالم والتاريخ ..

وكما نقرأ التاريخ فى الكتب ... نراه حياً نابضاً فى المتاحف من خلال إبداعات العباقرة العظام .. ومن هذا وذاك نعيش سويا قصص الملهمات فى الفن والتاريخ .

جمال قطب

زورق الأحلام وشريط الذكريات

يقول أوسكاروايلد :

« إن روعة الشعور بالجمال وتفتح الوجدان والبصائر للتذوق الفني .. إنما هو سلوك حضارى لأى شعب من الشعوب » ! لقد علمتنا الفلسفة هدوء النفس ، واتزان العقل ، كما استطعنا بالعلم أن نرقى بمستوى حياتنا ومتطلباتنا اليومية ، أما الفن بلمساته الحانية وإشعاعاته العاطفية الملهمة يجعل حياتنا استمتاعا دائما بكل ما أسبغه الله على الدنيا من جمال ، ويهذب من سلوكياتنا ويرقى بمشاعرنا الإنسانية النبيلة »

وإذا كان الفن يحس بالبصائر .. مثل كافة المعنويات الروحية والوجدانية .. فإنه يتفاعل مع القلب والعاطفة ، لذلك نقول : إذا كان العلم مبعثه التجارب اليومية ومتطلبات الحياة ، فإن الفن وليد الانفعال والتفاعل الوجدانى واتقاد القرائح وتألق البصائر وتفتح العواطف والتعلق بأسباب الجمال .. أليس هذا هو الحب بعينه ؟ .

ونأتى إلى دور الإلهام ..

فالإلهام عند المبدعين هو القوة المحركة لمكامن الموهبة والابتكار .. وهو الإثارة المعنوية والحسية والجسدية لأطياف تداعب القلوب وتشعل جذوة الخيال .. يهفو إليها الفنان مدفوعا بالإعجاب والحب ورقة الإحساس .. وليس أقدر على تحريك هذه المشاعر مجتمعة من إيحاءات المرأة الملهمة !

وقد يكون وراءَ كل عظيم امرأة .. وقد تكون المرأة سببا فى أن يصعد الرجل سلم المجد والشهرة والفخار .. وربما تكون فى الوقت ذاته سببا فى فشله ونكبته .. بل ونهايته ! وتاريخ البشرية .. أو تاريخ الفن زاخر بالأمثلة الحية على هذه الأحداث بوجهيها المتناقضين .. إننى أغوص فى أروقة المتاحف وإبداعات الفنانين وأستخلص موضوعاتى من هذه التحف الخالدة ، ثم تأتى بعدها مهمة استيعاب التاريخ : هيلين فاتنة طروادة مع حبيبها باريس ، وكليوباترا مع قيصر وأنطونيو ، والموناليزا مع ليوناردو دافنشى ، وجولييت مع روميو ، وليدى هاملتون مع الفنان البريطانى رومنى الذى خلدها فى لوحاته ثم مع قائد أساطيل بريطانيا العظمى نيلسون ، وجورج صاند مع الشاعر ألفريد دى موسيه ثم مع شوبان ، ومدام دى بمبادور مع لويس الخامس عشر ، وغيرهن .. وغيرهن ..

وفى مجال النشر ، تفرض علينا أحيانا بعض القيود التكنيكية ، وبعض الالتزام الضميرى فى اختيار الكلمة وانتقاء الصورة فليس كل ما يعرف يقال .. كما أن اللوحات التى تلازم السطور تخضع لمواصفات جماهيرية معينة .. وكم أملك فى أرشيفى الخاص من ثروات نادرة من الصور الرائعة لهؤلاء الملهمات .. ولكن معظمها ــ جريا على عادة الفنانين العالميين الذين أبدعوها ــ تخدش الحياء العربى بتقاليدنا المرعية .. وهذه مشكلة نقابلها دائما نحن العاملين فى مجال الإعلام الفنى .

الجذور

الفن الإنجليزى عريق يضرب بجذوره فى أعماق القرون الماضية ، ويرجع إلى فنانى قبائل « الكلت » التى أغارت من موطنها الأصلى فى شمال فرنسا حيث كانت تقطن مقاطعة تعرف باسم « بريتانى » ، ومن اسم هذه المقاطعة الفرنسية ، أطلق اسم « بريطانيا » على الوطن الجديد ، ثم ضم الرومان هذه الجزيرة وتوابعها لإمبراطوريتهم ، وظلت تحت سيطرتهم حتى أغارت عليها قبائل من الإنجليز والسكسون والجوت ، وكانت تسكن ما يعرف الآن بألمانيا وبهذا

أخذت اسمها المعروف إنجلاند ، وفى أواخر القرن السادس الميلادى عام « ٥٩٧ » ظهر راهب يدعى « أوجستين » ، نشر الدين المسيحى بين هذه القبائل وشهدت الجزيرة فى القرون التالية الكثير من الصراع والتناحر والحروب فيما بينها ، حتى تولت أسرة « تيودور » التى أنشأت التاريخ الإنجليزى الحديث فى القرن الخامس عشر . ومضى الفن يركز خلال القرون الوسطى على خدمة الكنيسة الكاثوليكية ، وبرز كثير من الفنانين الذين برعوا فى رسم القصص الدينى من حياة المسيح عليه السلام ، كما أضفى هؤلاء الرسامون على البيت الإنجليزى جوا دينيا من الزخارف والرسوم الكنسية المستوحاة من الكتب المقدسة . وشجع الرهبان الكاثوليك هذا الاتجاه بكل طاقاتهم .. حتى حل المذهب البروتستانتى محل الكاثوليكى .. وهنا وقف المذهب الجديد تجاه الفن موقفا عدائيا .. بدأ بعدم الاهتمام بابداعات الفنانين .. وتحول عام بعد عام إلى كراهية لرسم القصص الدينى وحياة السيد المسيح .

ولم يكن أمام الفنانين إلا أن يبحثوا عن مجالات أخرى يمارسون فيها نشاطاتهم ، فاتجهوا إلى الملوك والنبلاء والأثرياء .. ولكن هذا التحول الوجدانى المفاجئ لم يلق ترحيبا من الشعب الإنجليزى ، فى بادىء الأمر .. حتى أتت الصحوة الفنية الكبرى فى القرن الثامن عشر ، وكان هذا القرن بمثابة تحول وبعث فنى عام فى معظم شعوب العالم .. وتوالى ظهور أساطين الفن الكبار ، وقد اعتبر « هوجارث » رائدا للحركة الفنية الإنجليزية الناهضة ، كما أسس « رينولدز » المجمع الملكى للفنون الجميلة بلندن ، وقد استطاع بذلك أن يهز التقاليد الإنجليزية المتزمتة والتى طالما وقفت حائلا بين الفنان والجمهور وبين الإبداع الفنى وتذوقه واقتنائه .. ونشط الفنانون ، وتفتحت عبقرياتهم .. وأخذوا ينقبون عن الجمال البشرى الملهم بين حسناوات عصرهم .. وكان فناننا « جورج رومنى » من أبرز هؤلاء العباقرة فى القرن



الثامن عشر وقصته مع ملهمته وفاتنته « ليدى هاملتون » خالدة فى بصائر المبدعين والمتذوقين وفى بطون كتب التاريخ !

الفنان وملهمته :

وقد حفلت حياة رومنى « ١٧٣٤ ـــ ١٨٠٢ » بالحركة والنشاط والأسفار والتزود بالثقافة الفنية واستيعاب أعمال فنانى عصر النهضة ولا سيما رافاييل الذى كان مثله الأعلى فى الموهبة المتألقة والفن الرفيع .

ولد فى لانكشير ، وشغف برسم « البورتريه » وهو فى العشرين من عمره ، وذاع صيته فى شمال إنجلترا .. حتى انتقل فى عام ١٧٦٢ إلى العاصمة لندن ، حيث فاز بجائزة رابطة الفنانين هناك ، وتطلع إلى باريس فرحل إليها فى زيارة للبحث والدرس والتأمل .. وعاد إلى لندن ، لتعم شهرته كأبرز رسام للصور الشخصية ، وتسابق إلى مرسمه نجوم المجتمع البريطانى وفاتناته طمعا فى الحصول على رسم صورهم من أنامله الملهمة .

وفى سن الأربعين « عام ١٧٧٣ » رحل رومنى إلى أيطاليا وزار روما وفلورنسا وجنوه وفينيسيا ودرس فن عصر النهضة الإيطالى بتمهل وتأمل على مدى عامين كاملين .

وفى عام ١٧٨١ كان الحدث الفنى التاريخى الكبير .. عندما التقى بالفاتنة « إيماليون » وهى التى عرفت فى التاريخ باسم « الليدى هاملتون » ، فكانت قمة أمجاده فى مشوار البحث عن الجمال والإلهام ولنبدأ الحكاية :

شريط الذكريات :

فى أواخر القرن الثامن عشر قامت ضجة مثيرة فى أوربا ، وأخذت تتسع موجاتها وتتعالى أصداؤها ، حتى إذا ما وصلت إلى بريطانيا « العظمى » تحولت إلى فضيحة : إذ كيف يقع قائد النصر العظيم — كما كان يطلق عليه آنذاك — فى غرام فاتنة لعوب . إنه قائد أساطيل الإمبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس ، وسيد البحار المظفر الذى عقدت عليه بريطانيا آمالها الكبار ! وبينما كانت صيحات الاستنكار تهز البرلمان ، وتشتعل جذوتها على المنابر الرسمية والشعبية والصحافة كانت تجرى على صفحة الماء الناعسة فى الوقت ذاته ، أحداث دافئة أخرى فى قارب حالم .. ورحلة خاصة جدا .. من نابولى إلى مالطة ، وكان بطلاها هما : سير أدميرال نلسون — قائد البحرية البريطانية والليدى هاملتون .. أسطورة الجمال فى اللوحات الفنية .. وفاتنة القلوب فى المجتمعات الأرستقراطية والمنتديات الليلية .. وفى قلوب الملايين ! وشهد القمر المكتمل فى كبد السماء أروع قصة حب ، أو كما تذكرها كتب التاريخ أروع قصة استسلام لقائد النصر الذى لم يهزم أبدا ! وتسللت لآلئ الأفق الفضية كحبات انفرط عقدها فافترشت سطح اليم ، واحتضنت القارب فى لمسات وادعة حانية .

وألقت الفاتنة برأسها على صدر البطل المثقل بالنياشين والأوسمة ، وتركت لذاكرتها استعراض ماضيها المثير .. ورنت فى غفوة ساهمة إلى الأفق عبر البحر الفسيح ، وقفزت إلى مخيلتها صوره « رومنى » فنان العصر ، فافتر ثغرها الجميل عن بسمة حالمة وهمسات وسنانة ، وكأنها تروى حكايتها إلى طيف مجهول : لولا ريشته المبدعة لما كنت الآن بين أحضان هذا القائد العظيم ! إننا سنعبر رحلة الحياة كما يعبر هذا القارب من شاطئ إلى شاطئ آخر ، ولكن « رومنى » خالد على مر الزمان .. خالد فى لوحاته المبدعة ، وفى وجدان البشرية ، وفى ضمير الإنسانية . ! وأغمضت الفاتنة جفنيها وهمست فى رضا واعتزاز : لقد كنت ملهمته حتى أصبحت كوكبا متألقا فى سماء بريطانيا وأوروبا كلها بفضل لوحاته التى رسمها لى .. خمسا وعشرين لوحة .. غير مئات من الرسوم الصغيرة الأخرى .. تفسح لها الآن أورقة المتاحف والقصور والقاعات الفنية الكبرى أجل المكان والمكانة ! وتالقت ابتسامتها العذبة تحت ضوء القمر وهى تتمثل جمالها الرائع الذى





تحفة رومني الشهيرة — وقد اتخذ من إيماليون نموذجا ملهما لشتى موضوعاته الفنية

تحدثت عنه الصالونات الأرستقراطية وتناقلته الصحف والرواة فى كل مكان .. وعادت بها الذكريات إلى الليلة الساهرة السامرة ، حينما التقت « برومنى » لأول مرة .. وكيف راعه سحرها وجمالها فى تلك الليلة الوردية الدافئة ، وكيف ارتبطت به لعدة سنوات هى أسعد سنوات عمرها وعمره كذلك .. وكيف عرفت طريقها إلى الشهرة حتى كادت أن تطغى على شهرة الفنان نفسه .. وتساءلت فى خاطرها : أليست « الجوكوندا » أشهر من مبدعها « ليوناردو دافنشى » ؟ . وتذكرت رومنى وكيف كان يسجل لها الصور فى كل الأوضاع : مرحة ساهمة متأملة عابثة جادة باسمة مفكرة نائمة هائمة .. وكان هذا الكم الهائل من لوحاته لصورتها كفيلا بأن يملأ وجدان العالم وبصره وبصيرته .. وتمر الأحداث متلاحقة فى ذاكرتها المكدودة ، وتشعر بأنامل البطل تعبث فى خصلات شعرها التى تغطى ذوائبه قسماتها الشهية .. فتتذكر أنها بين أحضان نيلسون .. رجل بريطانيا العظمى وقائدها المنتصر .. لقد أحبت هذا البطل وما أكثر الرجال الذين أحبوها .. ولكنها اليوم غارقة فى حبه .. إنه نوع فريد من الرجال الذين ساقتهم الأقدار فى طريقها ، له مذاق جديد على عواطفها وأنوثتها المتفتحة ! إنه يمثل نضوج الخبرة ، وسلطان البطولة ، وسحر المغامرة والفداء ، إنه الرمز والمعنى والعطاء من القمة ! .. وعادت ذاكرتها إلى التحليق فى القاع : وأخذت بسمتها تخبو حتى تلاشت ، وانسدلت الأهداب الرعشة لتحجب الرؤية خارج ذاتها ، ولتغوص فى أعماقها تعتصر الألم الغائر فى طيات السنين .. وتشبثت بالبطل الذى احتواها بين ذراعيه تلتمس الأمان ، وكأنها تخشى على نفسها من مجابهة ذكرياتها الأليمة من بين أنقاض الماضى البعيد .. إنها ركام ثقيل من الضياع والحرمان فى أيام طفولتها التعسة العابثة الحزينة !



رسم توضيحى (لقاء إيماليون وبطلها قائد الأساطيل البريطانية)



المعاناة :

صور باهتة كالحة لا تستطيع أن تتبين معالمها على وجه اليقين . إنها الطفلة الصغيرة الفقيرة « أماليون » ، تمتاز بين أقرانها بمسحة من الحسن والجمال ، وكانت دائما محط الأنظار وموضع الإعجاب .. وبغريزة الأنثى ، شبت مزهوة بجمالها وفتنتها المبكرة . وتحولت إلى فتاة لعوب تتفنن في اللهو والعبث بقلوب شباب قريتها « هواردين » ، حيث كان أبوها يعمل حدادا ، ولكنها لا تكاد تذكر عنه شيئا .. أما أمها فهى تذكرها تماما ، لقد كانت طاهية فى بيوت الأثرياء ، تأتى إليها كل مساء بما تجود به موائدهم العامرة . وما أن بلغت « أماليون » الرابعة عشرة من عمرها حتى ألحقتها أمها ببعض الأعمال المتواضعة فى القرية لتكسب قوتها بنفسها ، وعرفت معنى الكد والتعب والجوع والحرمان ! .. اهتز القارب ... وتكسرت أضواء القمر الفضية بين الموجات المتصارعة .. فأعادت إلى ذاكرتها كيف تصارع الشباب من أجلها ، وكيف عبثت بقلوبهم ما طاب لها العبث وهى فتاة مراهقة لم تصل إلى السادسة عشرة . كانت تعمل خادمة فى بيت « الدكتور بد » طبيب القرية ، ورحلت مع الأسرة إلى العاصمة لندن ، وما أن انتقلت إلى المدينة العريقة الكبيرة حتى جابهت عالما جديدا مثيرا بكل ما يحتوية من أصناف البشر ! لقد بهرتها الأضواء الصارخة والحياة اللاهية الصاخبة .. حيث المسارح والحانات ودور اللهو وحوانيت الأزياء . وحيث النساء الجميلات يرتدين الملابس الفاخرة ، ويتزين بالحلى الثمينة ويتعلقن بأذرع الرجال فى رشاقة وخيلاء ! ولكن « أماليون » كانت تدرك تماما أن جمالها الطاغى يفوق هؤلاء الأنيقات .. وكل ماينقصها أن تتاح لها فرصة الحصول على المزيد من المال والتحرر ! فتمردت على مخدومها وفرت هاربة من بيته لتهيم على وجهها فى متاهات المدينة المترامية.وعملت بائعة فى أحد المتاجر ، و لم تلبث أن انتقلت إلى متجر أكبر كان ملتقى الأسر الغنية وسيدات المجتمع الأرستقراطى فى العاصمة . وصممت على أن تطلق لطموحاتها العنان بغير حدود لتعبر الموانع الطبقية ، متوسلة بجمالها المثير الذى فتح لها كثيرا من الأبواب الموصدة ! فألقت شباكها الناعمة حول إحدى ربات القصور .. وأخذت تتودد إليها حتى اختارتها وصيفة لها فى قصرها المترف الأنيق : وهناك ، تفتحت عيناها على كثير من الأسرار التى تزخر بها مثل هذه القصور الأرستقراطية . ويوما بعد يوم .. نصبت شباكها الأسرة هذه المرة حول سيد القصر « الكابتن جون بين » صاحب الاسم الكبير والثراء العريض .. وكانت الاستجابة بأسرع مما توقعت .. فوقع الرجل فى غرامها .. وأنجبت منه طفلتها الأولى .. وشجعتها هذه المغامرة على المزيد من العبث والطيش والطموح .. فأخذت تبيع جمالها فى غير تحفظ .. تبيع المتعة أوتهبها أو تشتريها فى جموح لا يحده وعد أو وعيد .. وبدأت الألسن تلوك سلوكها ومغامراتها ، وتناقل الناس أخبارها كغانية فاتنة لعوب . وما أكثر الدعوات التى كانت تنهال عليها مع كل فضيحة أو عبث جديد .. وعرفت الغانية آنذاك حياة البذخ والترف والسهر فى المنتديات وفى حفلات الأثرياء .. وكمظهر من مظاهر التأنق .. دأبت على حضور الندوات فى صالونات الفكر ومعارض المشاهير من الفنانين ، وأصبحت أماليون ــ بما تتمتع به من جمال صارخ ــ تتصرف كسيدات المجتمع الشهيرات !

سيدة القصر

وكانت العاصمة البريطانية تشهد افتتاح معرض الفنان الشهير « جون جراهام » ، ومن الطبيعى أن يدعو الفنان معظم سيدات المجتمع الشهيرات فى

لندن .. وعندما دخلت أماليون قاعة العرض ، تعلقت عيون الحضور بجمالها الرائع .. ولكن أحد الوجهاء المعروفين من رواد المعرض هو « السير هارى فيزر » كان أشدهم ترحيبا بها .. وأخذ يشيد بإناقتها وجمالها .. بل لقد تحولت عباراته إلى غزل ورغبة ملتهبة .. وطالما سمعت مثل هذه العبارات من قبل .. ولكنها وجدت فى هارى فيزر صيدها الثمين .. ستكون هذه المرة سيدة القصر بلا منازع .. ألم تعقد العزم على أن تتعدى كل الموانع الطبقية لتقفز فوقها ؟ وبابتسامة ذات مغزى ، مدت إليه يدها .. لتبدأ معه قصة مغامرة جديدة ! واحتلت « أما » مكانها فى قصره الكبير .. بعد أن تربعت على عرشها فى قلبه المفتون بجمالها .. وعاشت معه شهورا أوصلته إلى حد الجنون .. وصارت سيدة القصر بعد أن أسلم لها القياد والقيادة ، فكانت تأمر فتطاع على الفور .. ورضخ لكل طيشها ونزواتها .. وتمادت فى إقامة الحفلات والسهرات الحمراء لتتصيد فيها من يحلو لها من الرجال .. ونهشت الغيرة قلب السير هارى فيزر ، حتى فاض الكيل .. وفقد الرجل صوابه .. فطردها تحت جنح الظلام من بيته لتعود مرة أخرى إلى الضياع والتشرد ! وإمعانا منه فى الانتقام منها ، عمل على أن يسد جميع الأبواب فى وجهها بعد أن مرغته فى الوحل وسلبت منه عقله وقلبه .. وذاقت الغانية مرارة الحرمان ، وتمثلت أمامها أيام الفقر والجوع فى قريتها قبل أن تنتقل إلى العاصمة ذات الأسوار والأستار والأسرار الرهيبة !

.. حلقات من حياتها الأليمة .. توالت أحداثها كالأحلام المفزعة على ذاكرتها وهى فى القارب المتهادى على صفحة الماء الناعسة بين أحضان السير أدميرال نلسون .. وتسللت نسمة باردة تداعب ذوائبها النشوانة فى قارب الأحلام .. فذكرتها على الفور بصقيع لندن ينقر جسدها فى تلك الأيام العصيبة وهى هائمة على وجهها فى أزقة العاصمة ، بعد أن طردها السير فيزر .. وعادت بخاطرها تستعيد شريط


... (أو إيماليون) وقد اتخذت وضع المتعبدة أثناء الصلاة

الذكريات :

لقد تذكرت ذلك الثرى الذى تعرفت عليه فى قصر فيزر ذات ليلة .. بل لقد عاشت معه لحظات عابثة خاطفة .. فلماذا لا تلجأ إليه .. ألم تكن هذه أقصى أمانيه كما همس فى أذنها فى تلك الليلة ؟ وعقدت العزم على أن تذهب إليه .. إلى تشارلز جريفيل .. لقد سلمها بطاقته آنذاك تحسبا لأى طارئ ، وتمنى أن تقصده وهو دائما بانتظارها فرحلت إليه .. ورحب جريفيل بها أشد ترحيب ، وصمم على أن يعيد صقلها وتألقها من جديد .

وفى قصره الخلوى الشاعرى الجميل ، أتى إليها بأساتذة فى الموسيقى واللغات وقواعد البروتوكول .. وبدأ الأمل يراود الفاتنة اللعوب .. واشتعلت فيها جذوة الحيوية والجاذبية مرة أخرى ، وبعثت فى أرجاء القصر الفسيح إشعاعات الدفء والمرح والمتعة وأسباب الجمال !

وسارت الأيام بها .. هانئة سعيدة .. وكان من الممكن أن تستمر أماليون خليلة لصديقها الجديد تشارلز جريفيل ، أو أن تصبح زوجة له على أحسن الفروض .. ولكن الأقدار قد أفسحت صفحات من التاريخ لهذه الفاتنة لكى يتردد اسمها فى أرجاء العالم فوق الطبقة الأرستقراطية التى حسبتها أقصى طموحاتها .. وفوق القصور وأصحابها .. ففى سهرة دافئة ناعمة ، اتخذت سيدة القصر الخلوى مجلسها بين الحضور كدرة تتلألأ فى تاج الجمع المترف ، وأنغام الموسيقى الحالمة تنساب فى أرجاء القصر السامر ، لتختلط فى الأجواء مع عبير الأزهار وعطر النساء .. ووسط هذا الجو الشاعرى الملهم دخل فنان بريطانيا الأشهر « رومنى » أبرع رسامى عصره .. وبدأت الحكاية !



سرت بين النساء همسات دافئة وكأنها تنهدات حالمة ! أما درة الحفل — سيدة القصر — فقد تعودت على أن يعجب بها الرجال والنساء معا .. ولم تألف أن تبدى إعجابها بأحد حتى ولو كان رومنى !

وتشاغلت الفاتنة بالمسح على شعرها المنساب فوق جبينها ، وكأن الأمر لايعنيها فى شىء .. ولكن رومنى ما أن نظر إليها حتى راعه جمالها الصارخ ، إنه الفنان الذى ينقب عن مكامن الحسن من خلال نظراته الثاقبة فى وجوه النساء .. فأمعن النظر فى كل جزء من جسدها الرائع .. لقد سمع عنها الكثير قبل أن يراها فى هذا الحفل لأول مرة ..

وليس من رأى كمن سمع ! ولم يكد يفيق من دهشته ، حتى قاده مضيفه صاحب القصر إليها ليتعارفا ، وها هو رومنى .. عبقرية الفن ومفخرة بريطانيا العظمى يسعى إليها بكل اللهفة والإعجاب والانبهار ! وطفحت على ملامحها الساحرة على الفور شهوة المغامرة الكامنة فى أعماقها الطموحة .. وشعرت أماليون بأن الصيد هذه المرة يهبط من عليائه ليضع صورتها الجميلة فى أطر من ذهب تزين متاحف العالم !

وحظى الفنان فى هذه السهرة باهتمامها الخاص .. وأبدت له أثمن ماتملكه من كنوز الفتنة والعطاء . وما أن قارب الحفل على الانتهاء مع نسمات الفجر الجديد ، حتى همس رومنى لمضيفه بكلمات تشبه الأمر .. لقد عقد العزم على أن يستأثر بهذا الجمال وحده ! ..

ورضخ تشارلز ، ثم تأبطت درة القصر ذراع فارسها الجديد إلى مرسمه صانع الإبداع العالمى المتألق .. لقد فتح لها قلبه وعقله ووجدانه كما فتح لها صفحات التاريخ !

الزهرة والرحيق

جن الفنان بجمالها ، فقد وجد فيها النموذج الحى لمقاييس الجمال المثالى الذى يثير خيال الفنان .. وبقدر

ما كانت سعادته بها كانت سعادتها به ، فلم تكن تحلم — مهما اشتط طموحها — بأن تكون نجمة لوحات هذا الفنان الكبير .. إنه « وكالة الأنباء » فى ذلك العصر ، تنقل سحرها عبر البحار فى أرجاء المعمورة ! إنها تجربة جديدة فى كل شىء .. لها مذاقها الخاص فى وجدانها ، بين أجواء الإبداع الراق والفكر المتألق وأرفع ثقافات العصر !

وكان التفاخر من كليهما بقربه من الآخر ، هى تزهو بالشهرة المرتقبة والمجد المنتظر ، وهو يفخر باكتشافه لهذا الكنز الثمين من الجمال الرائع . وتوالت اللوحات ومعين الإلهام يفيض بالعطاء والرواء ، ورابطة الحب تستعر فى قلبيهما فتزيد من ثراء العطاء والإبداع وصدق الأداء .. حتى أصبحت أماليون حديث منتديات الفن فى عواصم أوروبا .. وبعد ثلاث سنوات كانت لوحات رومنى تصورها فى كافة الأوضاع خمسا وعشرين لوحة كبيرة .. غير مئات من الرسوم التحضيرية السريعة ، تلقفتها المتاحف والقصور ودور النشر وجامعو التحف فى كل مكان !

وتناقلت الصحف أخبارها وصورها ، وأفاضت فى الحديث عن علاقة الفن بالجمال .. وكادت الفاتنة أن تسبق الفنان فى شهرته العالمية .. ولم لا ؟! ألم تحظ الجيوكوندا بأكثر مما حظى به ليوناردو دافنشى من الشهرة والذيوع ؟!

وارتشف رومنى من رحيق الزهرة المتفتحة حتى الثمالة ، وبعد هذه السنوات الثلاث شارفت إشعاعاتها الملهمة على النضوب .. لا عن قصور فى مفاتنها الأنثوية ، ولكن .. هكذا الفنان ، إنه كالفراشة ، لا يمكن أن تستأثر به زهرة واحدة مهما كانت رافلة فى حلل العطر !

وشعرت أماليون بهذه الملالة .. وكان لزاما عليها أن تفسح المجال للفنان لكى يبحث عن منهل سائغ آخر يجدد به إلهامه العبقرى .. ولم يكن أمامها غير صديقهما الكريم ، صاحب القصر الخلوى الحالم



لوحة لم تكتمل .. هكذا تركتها ريشة الفنان

تشارلز جريفيل لتعود إليه مرة أخرى ! ولكن تحولها عنه على مدى سنوات ثلاث ، غارقة فى الشهرة والتألق وعالم الإبداع ، مع رومنى ، كان له تأثيره على صاحب القصر وعواطفه نحوها .. وعلى أية حال فقد سعت إليه .. وبالرغم من ترحيبه بها لتقيم فى بيته مرة أخرى ، إلا أنها لم تعد تحتل فى قلبه أو قصره إلا مجرد المتعة الجسدية و لم تعد مصدرا للحب العميق كما كانت من قبل .

ورضيت أماليون بهذا القدر من العطاء المادى السخى .. وكفاها مجدا أن اسمها الآن على كل لسان بأكثر مما تطلعت إليه طموحاتها .. ولكن المقادير كانت تخط لها طريقا آخر لم يخطر على بالها فى يوم من الأيام .

هاملتون واسمها الشهير :

وفد إلى بيت تشارلز ذات مساء زائر كبير من رجالات إنجلترا المرموقين ، وهو عمه السفير السير وليام هاملتون ، وفوجئ الكهل الأنيق بوجود نجمة لوحات رومنى فى بيت ابن أخيه .. لقد أسهبت الصحافة ومطبوعات الفن فى وصف جمالها وذكائها .. وها هو ذا يجلس بجوارها .. بل وتقوم بواجب التحية له مقرونة بالتبجيل والاحترام .. وأخذ السفير الرزين يتحدث إليها فى وقار .. وتشعب الحديث إلى مجالات الأدب والشعر والموسيقى والفنون الجميلة .. وساعة فساعة كان إعجابه بها يتزايد مع كل نقاش جديد .. كانت موسوعة من التجارب والمواهب والمعارف وآداب الحديث واللياقة .. وتمثلت فى خاطره أطياف التاريخ وهى تعبث بغلالات هيلين وغراميات جوليت وابتسامة موناليزا .. وتمادى فى أحلامه وتصور أنها تقاسمه حياته الخاوية وهو فى سنوات الخريف . ! لقد شغلته السياسة ومسئولية المنصب الرفيع عن كل ما عداها ومرت سنوات عمره دون أن يستمتع بدفء العائلة !

... وجاء دور ابن أخيه فى الحديث وهو يعلم تماما أنه سيبثه شكواه المعهودة من الإفلاس كما يفعل دائما ، وكيف لا وقد جبل على السفه والبذخ بغير حساب . ؟ وحدث ما توقعه ، فقد أتى إليه تشارلز يستعطفه أن يمده بما تيسر من ماله لكى ينتشله من ديونه التى كاد طوفانها أن يغرقه .. ووجدها العم الرزين فرصة سانحة لتحقيق حلمه الوردى الذى لم يفق من أطيافه بعد .

وكانت الصفقة .. وقد اعتقد كل منهما بأنه الرابح فيها .. لقد تكفل العم الثرى السير وليام هاملتون بسداد الديون .. على أن يتنازل له تشارلز فى نظير ذلك عن خليلته الفاتنة أماليون ليصطحبها معه ، وكانت الصفقة ـــ بالفعل ـــ رابحة لكل الأطراف الثلاثة :

كان تشارلز ـــ كما أسلفنا ـــ قد تحول قلبه عن فتاته ، فلم تعد أمله ومبتغاه ، وكان السفير المهاب ، يحلم بأن تبعث هذه الفاتنة الدفء والحيوية إلى أوصاله وحياته الحافلة بالأضواء والحفلات والاستقبالات الرسمية ومخاطبة القمة .. وتصور نفسه وهى بجانبه لتلقى عليه مزيدا من الهيبة الأرستقراطية الرفيعة .

أما هى .. المتطلعة دائما إلى الوثوب فوق الرءوس والحوائل الطبقية، فقد صادف هذا الاتفاق هوى فى نفسها .. إن سفيرها هذا فرصة العمر بالنسبة لها لكى تجوب العالم محصنة بحماية الدولة العظمى .. الإمبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس ! ستقتحم آفاق الدنيا ، وستخاطب الملوك والرؤساء والأمراء وستتخذ علاقاتها ومغامراتها طابعا فوقيا يحلق فى أجواء الدبلوماسية وخباياها المثيرة !

.. ورحلت أماليون فى صحبة السفير إلى مقر عمله .. إلى سفارة بريطانيا فى نابولى . ودهشت المجتمعات الإيطالية لما يحدث فى سفارة الدولة العظمى ، كيف استحوذ هذا السفير العجوز ممثل حكومة التقاليد والعراقة والسيطرة والنفوذ .. على فاتنة لوحات رومنى التى طالما سمعوا عنها وأعجبوا بها ؟ وكان من المألوف أن يقف الناس فى جمع غفير أمام قصر السفارة ليمتعوا أعينهم بنظرة إلى أماليون الساحرة ! وسرى الهمس .. تعالت أصداؤه لتعم دول أوروبا بأسرها .. إنها تعيش مع السفير البريطانى كخليلة لا كزوجة .. وهل يتفق هذا السلوك مع سفير دولة التقاليد ؟

وأخذت الصحف تعالج هذه القضية بحرص وحذر .. لا عن حياء وترفع .. بل لأن الأمر يخص سفير الإمبراطورية صاحبة السطوة على مشارق الأرض ومغاربها !

و لم يجد هاملتون بدا من أن يعلن عزمه على الزواج من فتاته .. إذ لا يليق أن يتهامس الناس بشىء ينال من سمعة سفير بريطانيا العظمى ؟





وفى لندن ، تزوجها بالفعل فى حفل رائع يليق بشهرة الجمال ومكانة الإمبراطورية .. وبذلك أصبحت أماليون زوجة محترمة تحمل الاسم الكبير « الليدى هاملتون » ، هذا الاسم الذى عرفت به فى التاريخ البريطانى .. ومن عجب أن هذا الاسم .. نفسه .. هو الذى عرفت به كذلك فى كتب الفن .. فإذا مارأينا إحدى لوحات رومنى التى رسمها لها قبل أن تصبح زوجة للسفير .. قرأنا اسم « الليدى هاملتون » فى التعريف عنها .. وكأنه اسمها منذ ولادتها ! ويعود السبب فى ذلك إلى الأحداث التى تلت زواجها .. وكانت السبب فى شهرتها العارمة كما سنرى .

زوجة السفير :

أحست الليدى بمسئولياتها الجسام وواجباتها نحو زوجها كممثل للدولة العظمى ، واستمرت شهرتها وجمالها وذكاؤها فى كسب صداقة الكثيرين من شخصيات المجتمع الإيطالى والأوربى بوجه عام ، وأصبحت صالونات إيطاليا وحفلاتها الرسمية والشعبية تحرص على دعوة السفير وزوجته الفاتنة ، حتى إن كثيرا من هذه المناسبات كانت تعد خصيصا لا لشىء إلا ليرى الناس فاتنة العصر وملهمة فنان بريطانيا الكبير رومنى .. وهذا سلوك طبيعى ومنطقى مع شعب يحب الفن ويعشق الجمال كالشعب الإيطالى العريق . وكانت الليدى هاملتون فى كل الأحوال على مستوى المسئولية بكفاءة واقتدار .

وتقول الملفات السرية لأساطيل الحرب البريطانية إن الليدى قد أمدت قيادة الحرب بفيض من المعلومات القيمة بفضل علاقاتها واتصالاتها بمصادر المعلومات ، وأن جمالها ولباقتها قد جعلت هذه المعلومات تأتى إليها فى سهولة تامة ، وقد ساعدت بريطانيا فى السياسة والتخطيط فى السلم والحرب معا .

... وبلغت الفاتنة ذروة جمالها وتفتحها ببلوغها الثلاثين من عمرها .. وأضفت على حياة السفير جمالا وروعة وسعادة كان يحسده عليها الجميع .. وسارت الأمور على خير ما يرام وليس فى الأمر مايعكر صفو الحياة ! وفى صباح أحد الأيام أكملت سفارة بريطانيا فى نابولى استعدادها لاستقبال ضيف كبير . وما أكثر من وفدوا إلى دار السفارة آنذاك .. ولكن القادم هذه

المرة هو بطل الإمبراطورية وقائد أساطيلها المهيمنة على البحار ... إنه الجنرال نيلسون .

.. حدث عادى أن يزور هذا القائد سفارة بلاده فى أى مكان .. ولكنه كان بالنسبة لهاملتون .. والليدى هاملتون حدثا مدويا فتح صفحات التاريخ لقصة مثيرة ، اهتز لها البرلمان .. واجتمع من أجلها السياسيون والقادة والمشرعون ..

قائد النصر العظيم يقع فى الشراك الناعمة

ألقت البارجة الإنجليزية « أجا ممنون » مراسيها فى خليج نابولى على الشاطئ الإيطالى ، وأطلقت المدفعية طلقات التحية لهبوط القائد ، وافترشت الأرض تحت قدميه بالبسط والزهور ، وهبط « هوراثيو نلسون » فى خطوات ثابتة ليقدم تحيته واحترامه لسفير بلاده السير وليام هاملتون وزوجته الليدى هاملتون ، وكانا على رأس مستقبليه عملا بالتقاليد البريطانية العريقة .

وكان نلسون رجلا ضئيل الجسم ذا وجه شاحب دقيق الملامح ، ولكن نظراته الثاقبة تشع بذكاء حاد وثقة واعتداد بالنفس إلى أبعد الحدود ، وما أن فرغ من استعراض حرس الشرف الذى اصطف على الجانبين لتحيته ، حتى أعاد تحية السفير وزوجته مرة أخرى ، ولاحظ هاملتون أن الضيف يمعن فى النظر إلى وجه زوجته ويضع يده على جبهته فى شرود ، وكأنه يحاول أن يتذكر شيئا ، وبعد لحظات ، ابتسم القائد وانفرجت أساريره فجأة وقال موجها حديثه إلى الليدى هاملتون إن وجه سيدتى ليس غريبا على أى بريطانى .. أليست سيدتى ..

ولم يكمل سؤاله حتى بادره السفير بقوله : نعم ، إنها هى نجمة لوحات رومنى الشهيرة ، لكى تعرف أن سفير بلادك يحسن الاختيار ، وإن مضيفتك هى أجمل النساء !

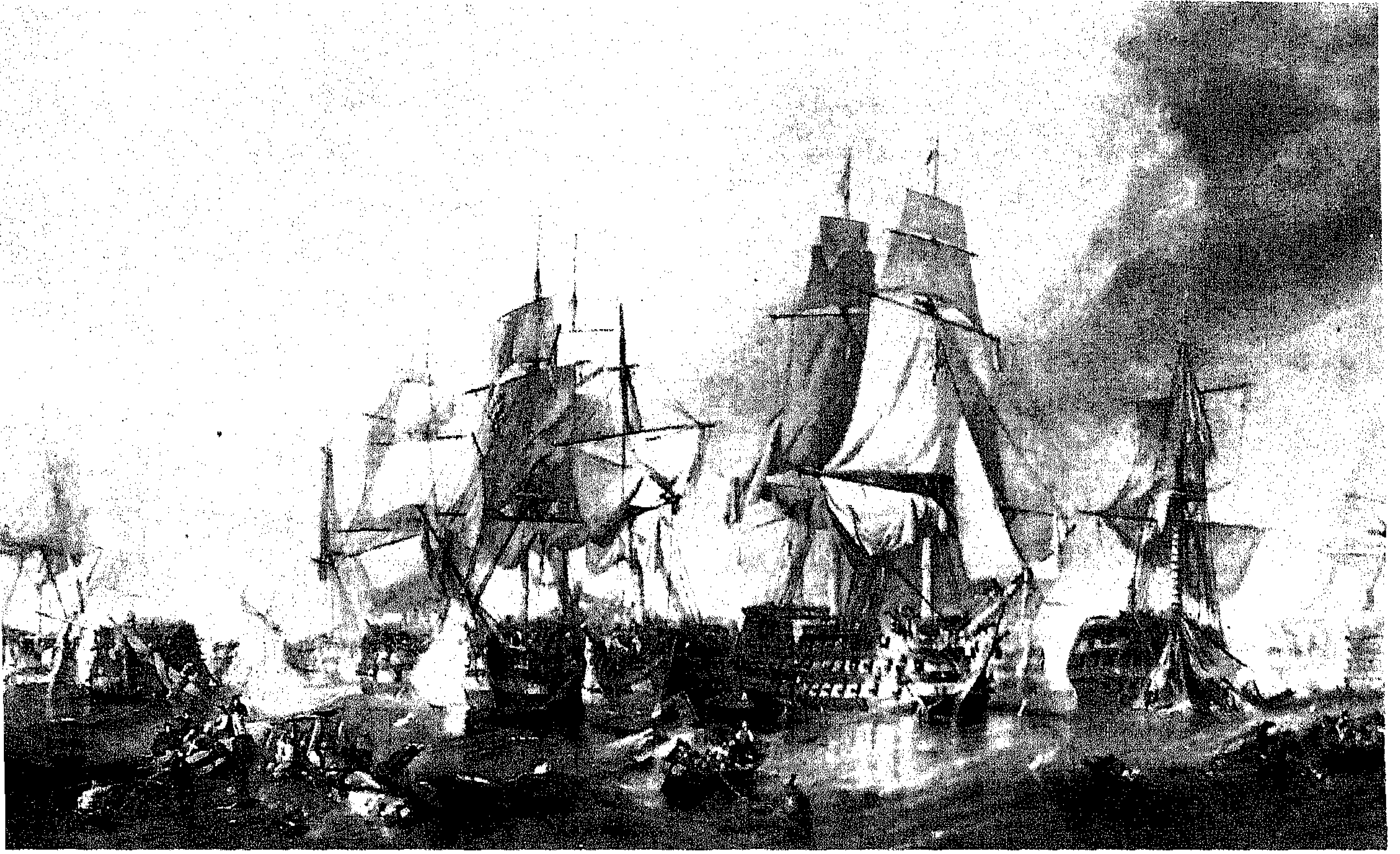
وتضاحك الجميع وساروا إلى البيت الكبير وحل القائد ضيفا على السفير فى بيته .. واستعاد إلى ذاكرته القصص المثيرة التى كانت ولا تزال حديث الناس عن « أماليون » وعن غرامياتها وعبثها وفتنتها التى أوقعت فى حبائلها كثيرا من الوجهاء أصحاب القصور !

وها هى اليوم تقوم بواجب ضيافته وتسبغ لمساتها الأنيقة على البيت وتضفى عليه البهجة وأسباب التألق والجمال ، إنها اليوم « الليدى هاملتون » وشتان ما بين «أما» العابثة بالأمس « والليدى » الزوجة المحترمة لسفير الإمبراطورية اليوم ! .. وتمر أيام الضيافة هانئة سعيدة .. ويحاول نلسون عند لقاء الفاتنة أن يستجمع كل ما يكمن فى أعماقه من رزانة القائد وصلابة العسكرية ومهابة اسمه الكبير ، إلا أن شعورا غامضا كان يتملك الفتاة عندما تتحدث إلى ضيفها .. إنه يعاملها وكأنه على منصة القيادة فى ملاحمه الشهيرة . إنه القائد الهادئ الواثق المسيطر على مشاعره وكأن صلابته الفولاذية لا تحس بجمالها وأنوثتها الطاغية !

لم تتعود فاتنة العصر أن تجابه بهذا التحفظ والوقار من الرجال .. إنها حقا زوجة سفير الإمبراطورية .. ولكنها فى نفس الوقت ساحرة القلوب تستعذب الثناء وتهيم بإطراء جمالها ولو فى حدود الأدب والالتزام !..

وعقب كل لقاء مع القائد الرزين كانت تحس لأول مرة فى حياتها بأنها ليست سيدة الموقف وأن القيادة انعقدت على ضيفها وكأنه فى ساحة المعركة ..

وأخذت تفكر فى الأمر مليا ، وتمثلتها معركة حقيقية بينهما ! وأخذت هذه المعركة الوجدانية تضطرم فى أعماقها ، ويستعر لهيبها ، وهى لا تدرى لماذا سيطرت شخصية القائد على حواسها واستحوذت على تفكيرها بهذا الشكل المثير ؟ إنها صراعات هادرة خفية تحت السطح الهادئ لمراسم الضيافة الرسمية ! ومرت أيام الضيافة .. واعتملت فى نفسها معارك صامته ، أضمرتها لجولة قادمة ، لابد وأنها آتية لا محالة ! وتمثل فى ذاكرتها ذلك القول الشائع : إن المرأة لا تهتم إلا بمن لا يهتم بها .. وحان وقت الرحيل ، وكانت الفاتنة المهزومة مع زوجها السفير فى توديع ضيفهما .. ونظرت إلى عينيه الثاقبتين وهى تشد على يديه ، وقد ارتسمت على شفتيها ابتسامة ديبلوماسية هادئة ، ولكنها توارى خلفها شجون وكلمات غير معلنة أجلتها لليوم



أساطيل الامبراطورية العظمى

الموعود ! .. ومرت الأيام والشهور ، ولم تستطع الليدى هاملتون أن تنسى صلابة القائد الآسر الواثق .. الذى هزمها فى جولته الأولى ، وظلت تستحث مشاعرها بألا تستسلم لهذه الهزيمة التى لم تألف مثلها من قبل !

الخيار الصعب

ومضت خمس سنوات على الزيارة الأولى ، وفى أحد أيام شهر يوليه ١٧٩٧ .. عاد قائد النصر العظيم مرة أخرى إلى نابولى تتوجه أكاليل الغار ، وخرجت جموع الشعب الإيطالى يتقدمها الملك والملكة كارولينا وكانت صديقة حميمة لليدى هاملتون ، لاستقبال نلسون ، وأشرفت الليدى بنفسها على ترتيبات هذا الاستقبال المهيب ، وتحرقت شوقا لرؤية البطل ، فلم تستطع خمس سنوات كاملة أن تنسيها أيام الضيافة الأولى أو معركتها الأولى معه ! ولم تصبر حتى يهبط نلسون من سفينته ، بل استقلت زورقا صغيرا أبحرت به صوب البارجة التى تقل قائد النصر ، لكى تكون أول من يراه ، وقبل أن يحاذى الزورق سلم البارجة الضخمة ، وثبت إليها فى لهفة محمومة لتستقبل البطل وتشد على يمينه مهنئة بالنصر العظيم .. وكانت المفاجأة المذهلة : لقد وقعت عيناها على بطلها وهو يقف وسط ضباطه وقد فقد ذراعه اليمنى فى معركته الأخيرة التى مازال دخانها يملأ الآفاق .. ومازالت بقع الدم القانى تلوث سترته وكأنها أوسمه علقت على صدره منذ لحظات ! ولكنها سرعان ماسيطرت على أعصابها من أثر المفاجأة المروعة ، وبالغت فى عبارات الترحيب به والابتهاج بلقائه .. وقادته فى حفاوة بالغة إلى الشاطئ وبعد انتهاء مراسم الاستقبال الرسمية قادته إلى البيت الكبير .. وأخذت على عاتقها مسئولية السهر على راحته ومعالجته وتمريضه والترفيه عنه ، كواجب وطنى يرقى إلى مستوى تضحية البطل الشجاع ! .. ومرت الأيام وهى لا تفارق ضيفها

لساعة واحدة .. أما الزوج الغيور ، فقد وجد نفسه فى موقف صعب لا يحسد عليه .. فكيف له أن يمنع زوجته من أداء واجب تفخر به الإمبراطورية كلها ؟ وفى الوقت ذاته .. لقد أحس الرجل بأن الأرض تميد من تحت أقدامه وأن أسهمه تتساقط كأوراق الخريف .. إن غريمه العظيم قد حظى بكل عنايتها وحبها .. فلم يبق له من شىء ، ويئس السفير العجوز من أن يستعيد اهتمام زوجته .. وهو يوقن أنه فقد مكانه فى قلبها كما فقد سنوات عمره الذابلة !

وبدأ الهمس بين موظفى القصر .. ورواده : إن الزوجة الحسناء على وشك أن تبدأ مغامرة على مستوى القيادة .. وقال قائل : ولكن نلسون ليس بالصيد السهل وقد أصبح أعظم شخصية بريطانية يحسب لها ألف حساب ، فقد علمته التجارب والمعارك الطاحنة التى خاض غمارها ألا يستسلم أو يسلم قيادته لأحد ، فهو الآمر دائما .. ودائما أيضا هو المنتصر ! إنه بلا شك يعجب بها ، وربما قد أحبها ، ولكن اسمه الكبير ووفاءه لزوجته ومبادئه الدينية ، ومركزه على رأس القيادة الإمبراطورية ، كل هذا لابد وأن يحول بينه وبين إغراءاتها !

وفى الجانب الآخر ، كانت الفاتنة المبهورة بقائدها كلما خلت إلى نفسها تعترف بأنها لا تستحقه . إنه أمل بريطانيا وما هى إلا غانية أتت إليها الشهرة على يد فنان مبدع تنتشر لوحاته لتعلق فى متاحف الفن والتراث ومجمعات الخالدين .. إنه الفنان رومنى الذى يستحق التمجيد والخلود ، وما أكثر الجميلات اللائى لم يصادفهن الحظ كما صادفها .. إنها تخشى أن يضيع منها كل شىء إن هى أقدمت على مغامرة طائشة .

... وفى زفرات حسيرة من نفس كسيرة ، تستعيد إلى ذاكرتها ماضيها المشين ، فتنكس رأسها وتغفو لتدور فى دوامة الهواجس والظنون !

... وهكذا ، أصبحت المرأة فى حيرة من أمرها .. إنه الخيار الصعب ، لقد أحبت نيلسون ، وملك حبه عليها كل كيانها ، إنه الدفء الذى سرى فى حياتها الراكدة الباردة فى ظل زوجها السفير العجوز .. إنه الربيع اليانع أتى بخصبه ونمائه وازدهاره وأريجه وقد أضحى عمرها على اعتاب الخريف .. ولكن الحصن منيع أحكم القائد تسليحه وأصبح اقتحامه نوعا من الانتحار .. أو الجنون ، ودارت الليدى هاملتون فى دائرة المعاناة النفسية الرهيبة ، ولكنها خرجت من معمعة أفكارها القاتلة بقرار مذهل : ستخوض المعركة ولا تخشى العواقب ! لقد استيقظت نداءات الرغبة فى جسدها .. ولم تستطع مقاومة تلك النزوة الجارفة التى هبت محمومة بعد سبات عميق !

الاستسلام :

وبعد كر وفر ، استسلم القائد ، ورفع رايته البيضاء لأول مرة فى حياته .. لكنه لم يستسلم لعدوه ، بل لحبيب قريب إلى قلبه !

وبدأت قصة الغرام تملأ الأسماع .. وتتعالى أصداؤها لتصم آذان الوزراء والساسة والمشرعين فى العاصمة البريطانية ، وأخذت البرقيات تنهال على بيت السير وليام هاملتون فى نابولى .. وكان لابد للقائد الولهان أن يعلن الانفصال عن زوجته ، ليعيش حبه الكبير مع فاتنته .. وفى الوقت ذاته لابد أن يجد طريقة ملائمة لكى تنفصل الليدى هاملتون عن زوجها السفير المغلوب على أمره .. وفكر نلسون جديا فى الزواج منها بعد ذلك . ولكن الأقدار قد شاءت أن تحل له هذه المشكلة .. فلم يتحمل السفير الشيخ أكثر مما تحمل ، فمات كمدا بالسكتة القلبية ! وبذلك أصبحت الأرملة اللعوب حرة طليقة ، تخطط كما تشاء لمستقبل جديد مع قائد النصر العظيم .

... ويهيم البطل بفتاته ويستعر الحب فى قلبه كما تستعر النار فى معاركه الحربية الضارية ، ويقرر أن يصحب « الليدى » فى رحلة بحرية خاصة جدا على زورق حالم من نابولى إلى جزيرة مالطة ، لقضاء أيام

ممتعة على شاطئ الجزيرة الوادعة !

.. وانتهى شريط الذكريات الذى استعرضته الفاتنة فى مخيلتها وهى تلقى برأسها على صدر البطل فى زورق الأحلام .. وأفاقت من تلك الغفوة الدافئة .. لتتأهب مع حبيبها للنزول على شاطئ الجزيرة .. وهبطت تتهادى فى دلال .. ولتبدأ الحياة من جديد ، ولتقذف بماضيها فى أعماق هذا البحر الناعس .. وكم غاصت فيه من أسرار وأسرار !

.. وتمضى الأيام حلوة هانئة ، وما أسرع ما تمضى الأوقات السعيدة .. ثم صحب نلسون فتاته عائدا بها إلى أرض الوطن .. إلى بيته فى « ميرتون » ليقضى معها عدة أيام أخرى قبل أن يستعد لخوض المعركة الحاسمة الكبرى التى كانت الشغل الشاغل للحكومة البريطانية آنذاك وهى التى عرفت بموقعة الطرف الأغر .

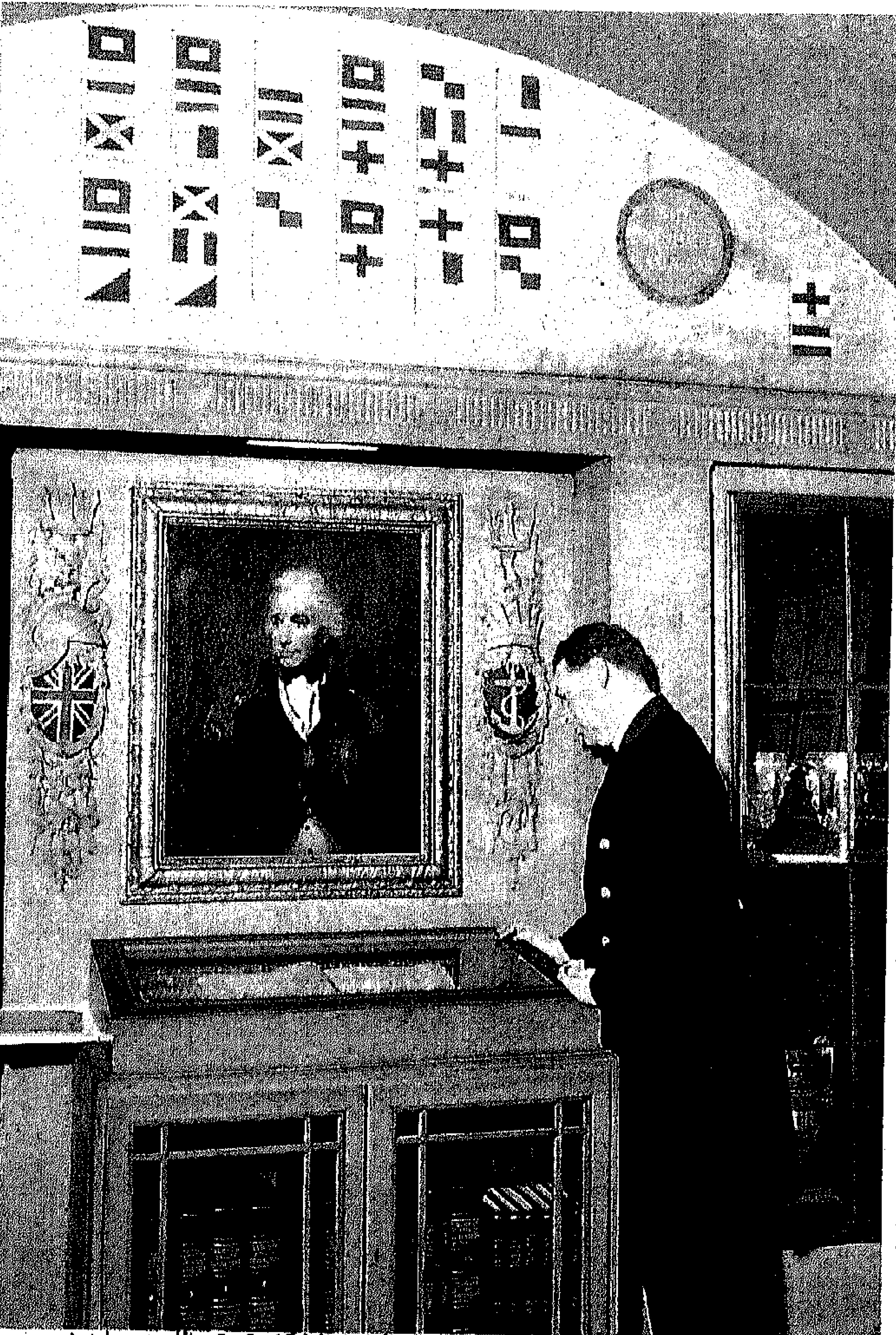
و لم تمض أيام قلائل حتى انتزعت الحكومة بطلها من بين أحضان فاتنته ليقود المعركة الفاصلة وليأتى لها بالنصر كما عودها دائما .

ويحس القائد بأن شيئا رهيبا ينتظره فى هذه المعركة .. وقبل أن يودع حبيبته .. نظر إلى اللوحة التى حرص على اقتنائها قبيل وصوله إلى بيته فى ميرتون .. وهى إحدى روائع رومنى الشهيرة لصورة الليدى هاملتون ، والتى علقها فى صدر قاعة الاستقبال فى البيت ، وأخذ يناجى الصورة فى همس حزين : أعدك يا حبيبتى أن تكون هذه آخر معاركى الحربية ، فقد سئمت الحرب وعشقت الحب والسلام . !

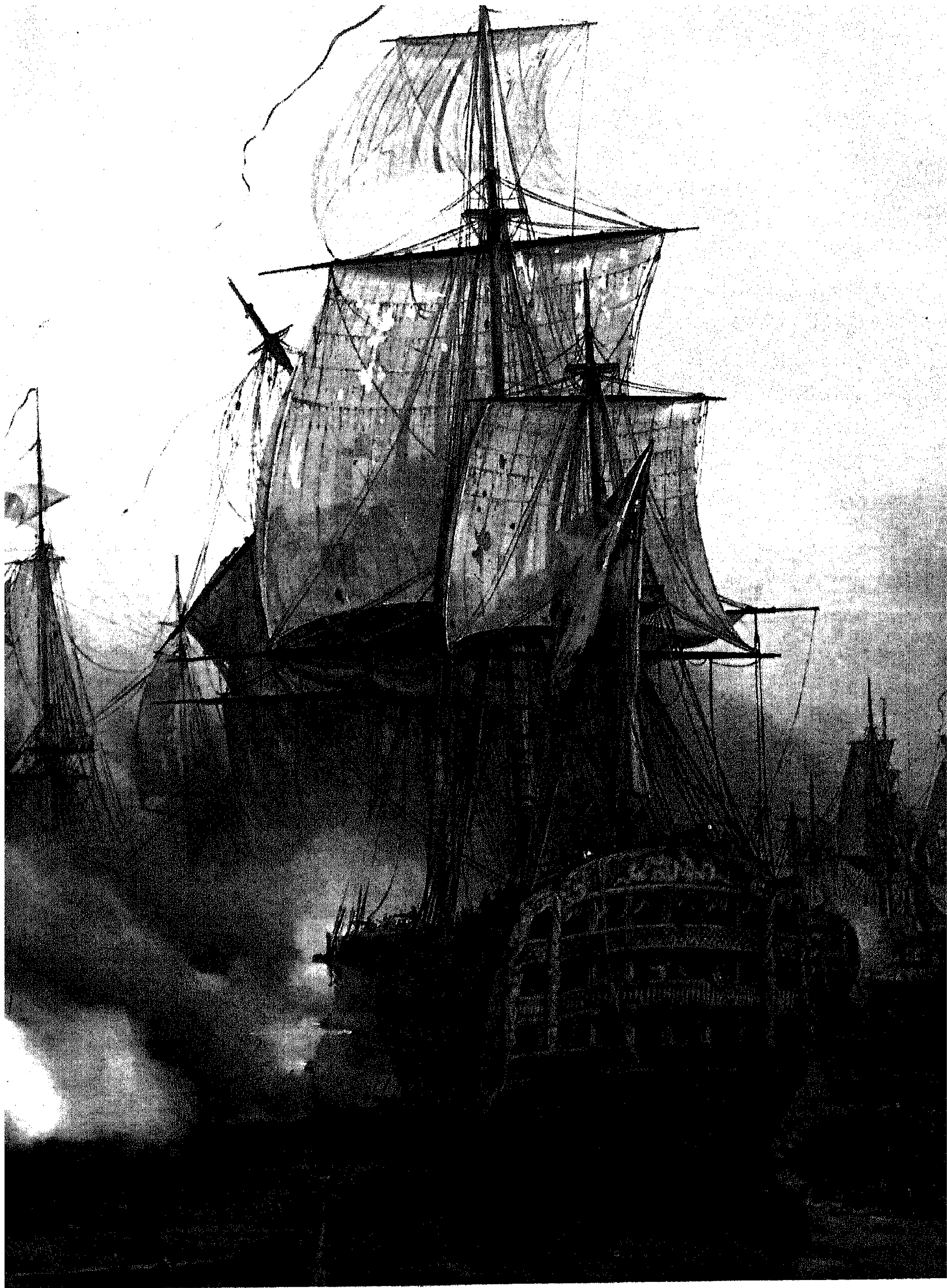
.. وكانت بالفعل آخر معاركه ، فقد لقى حتفه فيها بعد حياة قيادية مجيدة تزخر بالبطولات الأسطورية العظيمة .. أما المحبة التعسة ، فقد عاشت بعده فى يأس قاتل وتوالت عليها النكبات حتى هربت بكل تعاستها من دائنيها إلى فرنسا .. وهناك ، فى غرفة متواضعة احتضرت فى ظلام الصمت الرهيب !

وبهذه النهاية الأليمة ، أسدل الستار على اخر الأحداث فى حياة الغانية اللعوب .. تلك الفاتنة العابثة التى يذكرها التاريخ كواحدة من أبرز المغامرات الملهمات للكثيرين من فنانى بريطانيا وساستها ونبلائها ، وبأنها قد أفادت قيادة الحرب بسيل من المعلومات عن أسرار الحياة الأوروبية وخططها العسكرية .. وكانت شهرتها وجمالها وذكاؤها كفيلة بأن تحصل على هذه المعلومات فى يسر وسهولة لم تألفها أجهزة المخابرات من قبل ، ولكن المؤرخين يتساءلون :

هل تورط قائد النصر العظيم نلسون فى علاقته بهذه الفاتنة حتى إنه آثر الموت فى آخر معاركه على العودة ليجابه غضبة البرلمان البريطانى وسخط دعاة التقاليد العريقة ؟! لقد كتب لها آخر رسائله يوم ١٩ أكتوبر عام ١٨٠٥ قال فيها :



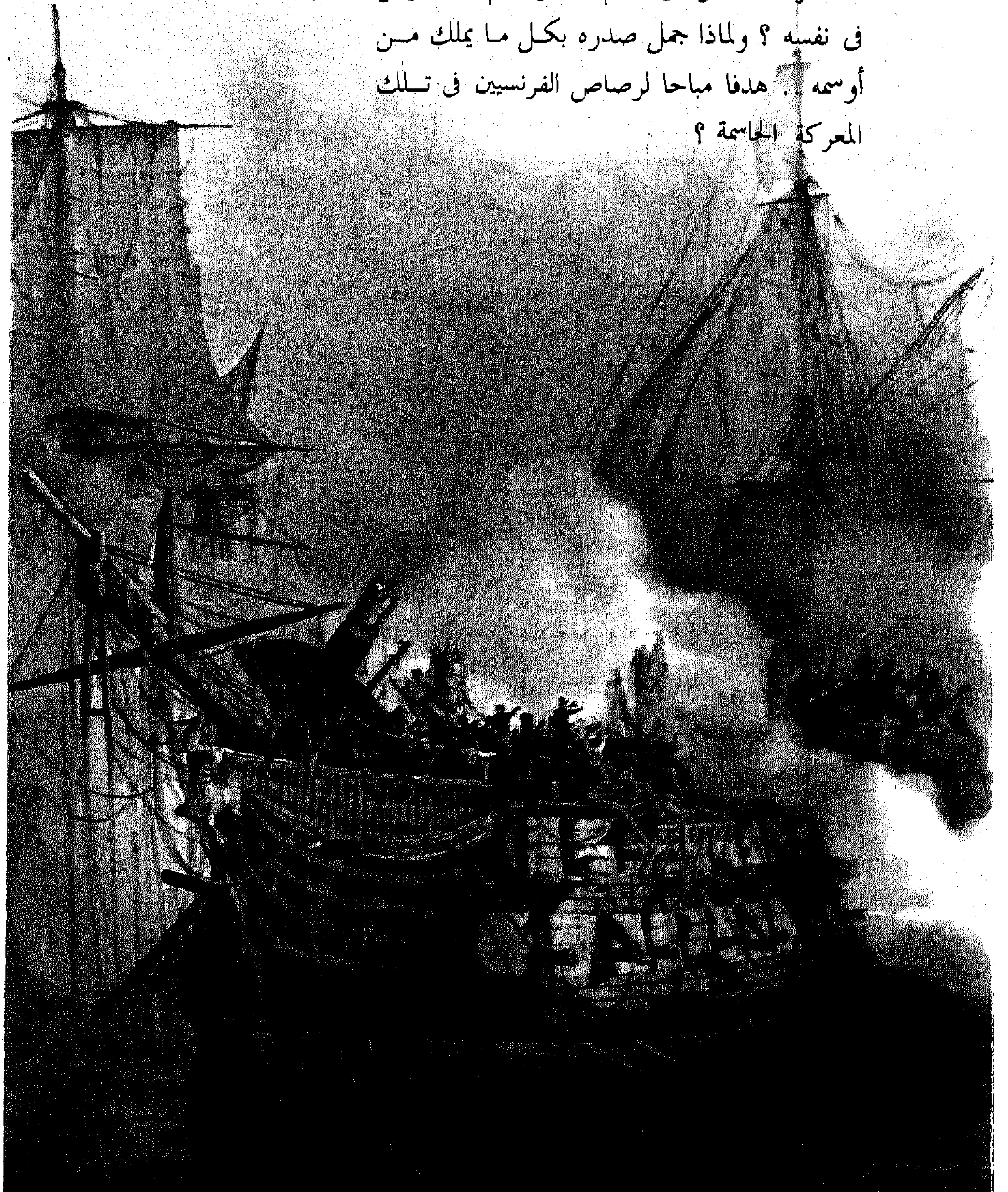
صورة نيلسون ومتعلقاته الشخصية فى القاعة التذكارية بمقر اللويدز بلندن



« لو أنى كنت أثاب على ما قدمت لبلدى من خدمات جليلة وانتصارات مجيدة ، لطلبت كل ما أريد وما أشتهى .. وحصلت على كل شيء أبتغيه .. ولكننى على البعد ، أودع حبيبتى « ليدى هاملتون » وأدعها أمانة فى ذمة ملكى ووطنى ليوفروا لها ما يكفيها ويزيد لكى تحيا حياة تناسب مركزها ومقامها ومكانتها عندى .. » !! إنه يحس بدنو أجله وكأنه قد عزم على شيء رهيب ..

فقد كانت هذه الرسالة مؤرخة بيوم ١٩ من أكتوبر .. أى قبل بدء المعركة بيومين اثنين .. فهل كان موته قضاء وقدرا .. أم انتحارا أقدم عليه لغرض فى نفسه ؟ ولماذا جمل صدره بكل ما يملك من أوسمه .. هدفا مباحا لرصاص الفرنسيين فى تلك المعركة الحاسمة ؟

... وتمضى الأحداث ، وتطوى الصفحات ، ولكنها الحقيقة ماثلة أمامنا فى حكايا التاريخ .. حقيقه امرأة فاتنة عابثة خلدت صورها فى المتاحف على يد فنان ملهم وضعته الظروف فى طريقها .. فكانت بداية لتألقها وشهرتها .. ولكنها وإن حظيت بهذه الشهرة ، لم تكن فى مراحل طيشها ونزقها ونزواتها إلا دمية جميلة يلهو بها سمار الليل وعشاق المغامرات وطالبو المتعة العابرة .. ولولا ريشة الفنان المبدعة التى صورت ملامحها بأنامله العبقرية الملهمة ، لاندثرت سيرتها بين ركام النسيان كآلاف غيرها من مغامرات عصرها .. !





فى المدارس الفنية الإسلامية المتتالية عبر مراحل الإمبراطورية الإسلامية الكبرى .. لم يحظ الفن بصور النساء الشهيرات اللاتى أضفن صفحات مضيئة إلى التاريخ الإنسانى على مر العصور .. بعكس الحال فى مدارس الفن الغربى الذى لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وسجلها مجسدة متكاملة .. حتى الكتب المقدسة ، تبارى الفنانون الغربيون فى عصور الحضارات القديمة والعصور الوسطى ، والعصر الحديث ، فى تجسيدها ورسم أحداثها وإيحاءاتها مفصلة تفصيلا يدعو إلى العجب والإعجاب « من وجهة النظر الفنية البحتة » . وقد أباحت بعض المذاهب الدينية مبدأ التصوير والتخيل وإطلاق العنان لأطياف العبقرية الفنية بغير حدود ولا قيود . إلا أن بعضا منها « كالمذهب البروتستانتى » كان ينظر إلى الفن أحيانا نظرة فتور تحولت شيئا فشيئا إلى كراهية تقرب من التحريم ولا سيما فيما يتعلق برسم القصص الدينى والصور المجسدة بشكل عام كما حدث فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر .. وظلت حركة الإبداع الغربى بين العثرات والطفرات ولكنها ــ فى معظمها ــ أفاضت بشمولية وإتقان حتى غطت كل فترات التاريخ بالصور الشخصية وتسجيل الأحداث والمعتقدات والأساطير .. أى أن التاريخ كله نراه عندهم مجسدا من خلال أعمال الفنانين نحتا ورسما وصياغة وتجسيدا وتشييدا ، بجانب فن القول والكلمة المدونة .. فالصورة والكلمة قد تآزرا وتضافرا لتشكيل التاريخ فى قوالب إبداعية خالدة تعمر بها متاحفهم وكتبهم ! .

●● أما فى الدين الإسلامى الحنيف ، نرى أن قيودا عقائدية ووجدانية وروحية قد شكلت الفكر الإبداعى للفنان المسلم بشكل يتفق مع روح الشريعة وتعاليمها المقدسة .. فأصبح الفن فى معظم نزعاته فنا ذهنيا يميل إلى تحوير الأشكال الطبيعية النباتية ويبتعد عن التجسيد وتصوير الأشخاص .. أو يلجأ إلى الزخارف الهندسية فيما عرف بفن « الأرابيسك » الذى بلغ أوج أزدهاره فى العصر العثمانى التركى وخاصة فى منطقة الشرق الأوسط الإسلامية . وظلت هذه الفنون تنهل من الجماليات النباتية والزخاف والتشكيلات الهندسية اللانهائية حتى وصلت بها إلى قمة إبداعية معجزة .

وهذا يفسر القصور فى تسجيل أحداث التاريخ العربى الإسلامى وصور القادة والحكام والمشاهير من الرجال والنساء .. أو أن يتغنى الفنان بجمال ملهمته فى لوحات مجسدة كما فعل الغرب فى الجانب الآخر .

●● وظل الحال كما هو عليه حتى نشطت حركة الاستشراق الفنى بصورة تدريجية منذ سقوط الدولة البيزنطية فى القرن الخامس عشر ، حتى وصلت إلى ذروتها فى القرنين الماضيين سيلا من أعمال الفنانين العالميين « الغربيين » التى استلهموها من تاريخنا وعاداتنا وتقاليدنا .. بل واقتحموا علينا مخادعنا وأبدعوا فى رسم أجنحة الحريم والجوارى وسيدات القصور والخدور وربات الجمال ، وحتى حكاياتنا وأساطيرنا الشهيرة ، جسدوها لنا فى لوحات متحفية تجمع بين الواقعية والشاعرية والمثالية الفنية الرائعة ! .

وكثيرا ما تشدنى بعض لوحات المستشرقين عن النساء الشرقيات اللاتى تنضح مفاتنهن الأنثوية بالإيحاءات الجمالية المثيرة .. وعندما يختار الفنانون أسماء للوحاتهم .. نقرأ غالبا : شهر زاد ــ جارية السلطان ــ المحظية المفضلة ــ جناح الحريم ــ سيدة القصر ووصيفتها ــ شجرة الدر ومرجانة .



ولتكن هذه الأخيرة موضوع لقائنا مستلهمين هذه الصور الرائعة التى نراها مع هذه السطور ، ومن إيحاءاتها الجمالية المبهرة .. نغوص — كالعادة — بين صفحات التاريخ ومراجع الفن لنحكى جانبا من جنبات تاريخنا الزاخر بالأحداث والخبايا والمفارقات والغرائب والعجائب ! ولنبدأ الحكاية :

أم خليل ومرجانه

●● تحت ضوء الشموع الوسنانة فى جوف الليل الساكن .. جلست فتاتان فى عمر الربيع يعلو محياهما جمال شرقى وقور .. وقد استرخت إحداهما على فراش من الحصير وسط قاعة كئيبة رهيبة شيدت جدرانها من الصخور الصماء الكالحة .. ولا تتناسب هذه الأجواء الموحشة مع ما تتمتع به الفتاتان من فتنة المحيا ورشاقة القوام وتألق الذكاء وفيض الجاذبية .

إنهما أسيرتان فى قلعة « الكرك » ذات الأبراج الحصينة والأسوار الشاهقة .. الواقعة عبر نهر الأردن ، حيث يبسط صاحبها « الناصر داود » نفوذه على البقاع المجاورة ..

لقد تسمرت عيون المرأتين على باب سجنهما .. تنتظران قدوم سيدهما نجم الدين .. وطال انتظارهما .. وزاد قلقهما على مصير الأسير الغائب .. لقد اقتادوه منذ ساعات ليتباحث مع الناصر داود .. وتشعبت المفاوضات بينهما إلى الحد الذى أنسى نجم الدين جاريتيه كل هذه الساعات الطوال .. وهو الذى لم يطق بعدا — ولو للحظات — عن جاريته وفاتنته وحبيبته التى استولت على عقله وقلبه .. إنها شجرة الدر ، محظيته وأم ولده « خليل » التى أهمل زوجته « العاملة » بسببها بعد أن فتن بجمالها وذكائها وجاذبيتها التى لا تقاوم ! .. أما الجارية الثانية فهى « مرجانة » ، اشتراها نجم الدين من حلب ، وكانت هى وشجرة الدر تعتقدان أنهما من بلدة واحدة فى

جبال القوقاز ، حيث أخذهما النخاسون طفلتين صغيرتين ، وساقوهما إلى بلاد الشام حيث باعوهما إلى الأمراء والحكام . وكانت مرجانة تهيم بحب سيدها نجم الدين بأكثر مما تكنه له غريمتها ورفيقتها شجرة الدر .. ولكن سلطان القلوب كان أقوى من تخطيطها وتدبيرها .. فآثر نجم الدين شجرة الدر عليها .. وأصبحت هى بمثابة الوصيفة المقربة إلى غريمتها صاحبة الحظوة عند سيدهما . فظل قلبها يكتوى بنار الغيرة صباح مساء .. فتقربت من شجرة الدر وبالغت فى التزلف إليها ، فى انتظار اليوم الذى تستغل فيه نفوذها لتنتقم منها شر انتقام ! ..

وأحبتها شجرة الدر .. وزاد تعلقها بها عندما اكتشفت أن مرجانة تجيد رواية الحكايا والأساطير وتقرأ الغيب و « تضرب » الرمل والودع ، وتستطلع الفلك . وهى فنون درستها على رجل من الفرس الإسماعيليين عندما كانت ملكا لأحد أمرائهم فى جبال اللاذقية .. وعرفت الفتاة الحاذقة كيف تستغل موهبتها هذه فى السيطرة على سيدتها شجرة الدر التى انقادت لتوجيهاتها ونصائحها .. وما كانت هذه النصائح إلا تخطيطا محكما لبلوغ مآربها .. والله أعلم بما فى النفوس ! .

أما كيف وقع نجم الدين وجاريتاه فى أسر صاحب « الكرك » الناصر داود .. فقد حدث فى مصر عام ٦٣٥ هجرية « ١٢٣٨ ميلادية » أن مات الملك الكامل ، ابن الملك العادل ، ابن صلاح الدين الأيوبى فاستولى على عرش البلاد ابنه الأصغر سيف الدين أبو بكر ، الملقب بالملك العادل الثانى ، وكان الأحق منه بالعرش هو نجم الدين بصفته الابن الأكبر .. ولم يتمكن من ذلك فور وفاة أبيه لغيابه عن مصر آنذاك حيث كان نائبا عن والده فى حكم حلب ، فلم يجد أمامه إلا أن يزحف على رأس جيشه الصغير نحو الجنوب لينتزع الحكم من أخيه الأصغر سيف الدين أبو بكر . واعترضه فى الطريق صاحب « الكرك » الناصر داود وأوقعه فى كمين مع رجاله .. فتشتت الرجال من حوله ، وبقى هو وبعض خاصته من الرجال والنساء فى قبضة صاحب « الكرك » .. فأودعهم السجن كما رأينا .. وطالت مدة سجنهم فى القلعة إلى سبعة شهور كاملة .. ولم تكن بين نجم الدين والناصر داود عداوة كبيرة بقدر ما هى مساومة على اقتسام الغنيمة فى مصر .. فكان أن اتفق الطرفان على أن يستقل نجم الدين بحكم مصر بعد أن ينتزعه من قبضة أخيه ، وأن يستقل الناصر داود بحكم الشام .. وهكذا عقد التحالف بين الآسر والأسير لتوزيع النفوذ بينهما .. ذلك هو الخبر السار الذى حمله الملك الأسير إلى شجرة الدر التى تسمرت عيناها على الباب .. تترقب حضوره بعد غيابه تلك الساعات .. وبعد أن استبد بها القلق وساورتها الشكوك لطول هذه الساعات الثقال .. تاركا حبيبته ووصيفتها وحدهما تقاسيان ظلام الصمت الرهيب فى تلك القلعة الموحشة ! . وكانت شجرة الدر بالنسبة لسيدها هى كل حياته .. كانت تناديه « يا أبا خليل » بالرغم من أن ابنه الأكبر من زوجته كان يدعى « غياث الدين تورانشاه » ! .

وهكذا قضت المرأتان مع سيدهما فى سجنه سبعة أشهر .. تركوا قلعة الكرك بعدها — بموجب الصفقة التى قسمت الغنيمة — إلى مصر . لكى تفتح صفحات التاريخ مجالا رحبا تتألق فيه شجرة الدر .. وتزداد مرجانة حقدا على حقدها الدفين .. وتدور عجلة الزمان .. وتتوالى الأحداث الساخنة على الساحة المصرية بين الطفرات والعثرات والكر والفر وشرور الأحقاد وفواجع الانتقام ! .

معمعة الحكم والتحكم

خلع نجم الدين أخاه العادل سيف الدين ، وزج به فى السجن ، ولم يكتف بذلك ، بل أرسل إليه فى سجنه بمن قتله خنقا فى عام ٦٣٧ هـ . وخلا له الجو لحكم مصر .. وشعر بثقل المسئولية فأحسن التصرف وأصلح الأحوال .. وصارت شجرة الدر « أم خليل » سيدة القصر ، وصاحبة الكلمة


مرجانة

المسموعة فى كل كبيرة وصغيرة من شئون الدولة ، بعد أن تزوجها نجم الدين زواجا شرعيا ..

لقد نعمت بالجاه والسلطان والحكم والـزوج والولد .. وظنت أن الحظ قد أحاطها بكل صنوف المتعة والسعادة .. ولكن ، عبست لها الأيام فجأة ، فمات ولدها خليل .. وبدأت التقلبات والأنـواء والزلازل من الداخل والخارج تهز العرش من تحتها ! . فلم يمهلها القدر لكى تفيق من حزنها على وحيدها ، حتى صعقها بوفاة زوجها نجم الدين فى عام ٦٤٧هـ .

« ١٢٤٩ م » ، تاركا ولدا وحيدا هو ابنـه الأكبر غياث الدين توارنشاه ، الملقب « فيما بعد » بالملك المعظم ، وكانت وفاة نجم الدين صدمة قوية لأنها حدثت فى أثناء المعارك المستعرة التـى نشبت بين المصريين والصليبيين بقيادة ملك فرنسا لـويس التاسع .

لقد نزلت الجيوش الفرنسية فى مدينة دمياط فى الخامس من شهر يونية سنة ١٢٤٩ ، وجعل لويس يتأهب للزحف على القاهرة بطريق المنصورة .. فلم



تجد شجرة الدر أمامها إلا أن تكتم خبر الوفاة عن الجميع ، وهنا أظهرت حكمة وشجاعة رفعت من قدرها فى نظر المصريين جميعا .. إلا واحدة من أقرب المقربات إليها .. وأشدهم حقدا عليها .. إنها مرجانة رفيقتها ووصيفتها وقارئة أفكارها والعالمة بأسرارها ما ظهر منها وما بطن ! .

قالت مرجانة لسيدتها : ها قد جلست على العرش ، واستأثرت بالحكم وحدك .. ألم أتنبأ لك

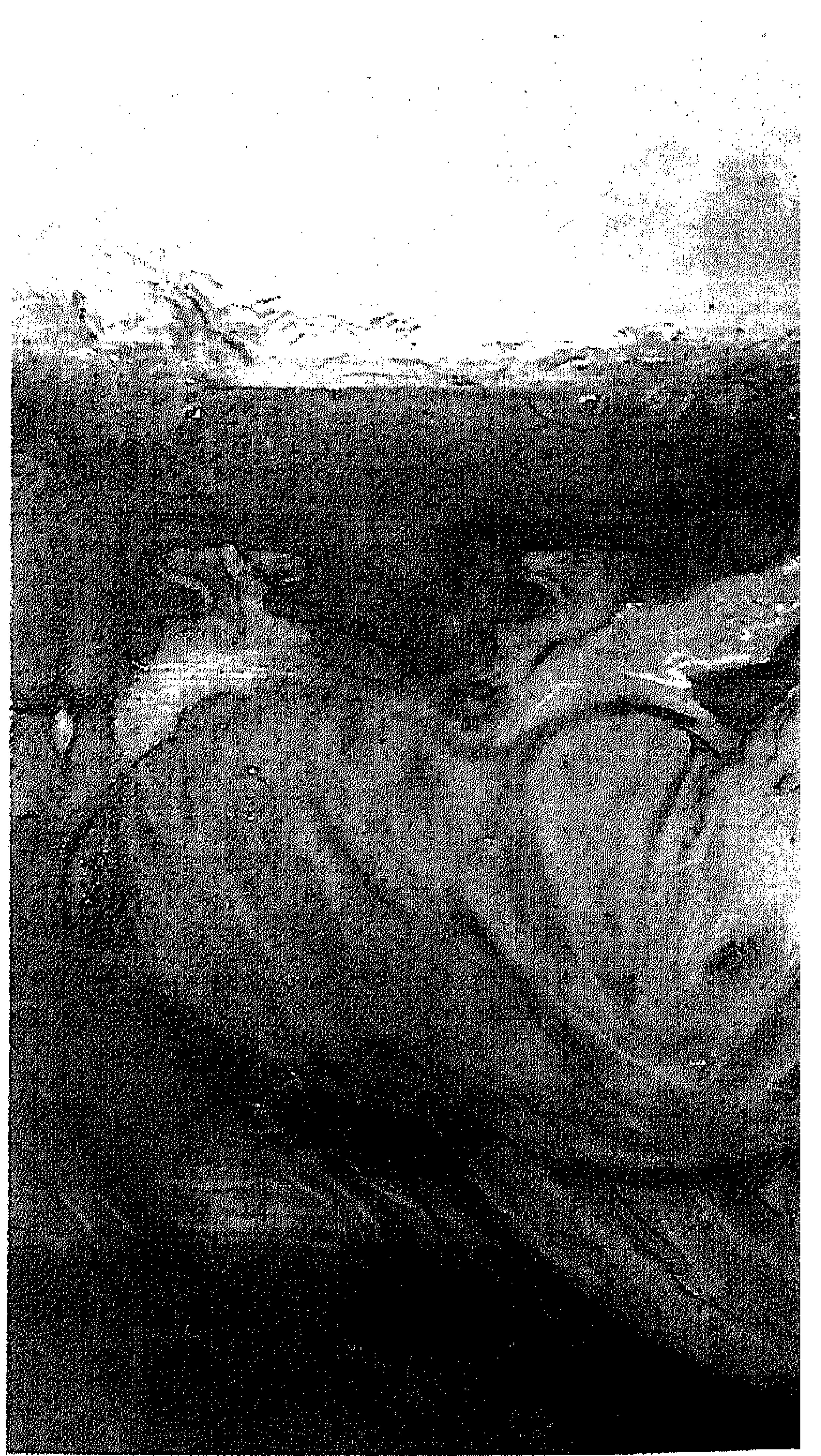
ألقيت على عاتقى شىء تكمن فيه السعادة ؟ .

ــ أكاد أعرف ما يشغل سيدتى : إن غياث الدين تورانشاه هو العقبة الكبرى أمام طموحاتنا .. قد تزيحه الأقدار من طريقك كما أزاحت عمه وأباه .. وليتك تعتمدين على فى مثل هذه الأمور .

السابحات فى بحر الدماء

أخفت شجرة الدر خبر وفاة الملك نجم الدين عن الجيش والشعب ، وواصلت تصريف الأمور بمفردها ، مستعينة ببعض الخلصاء والمقربين ، وبعثت فى طلب غياث الدين تورانشاه من أرض الشام ليحضر على الفور فى تلك الأوقات العصيبة . واستغرقت رحلة ذهاب الرسل وعودة الأمير ثلاثة شهور حافظت فيها شجرة الدر على السر الرهيب .. وركزت كل جهودها واهتمامها على درء الخطر الصليبى الداهم القادم من شمال البلاد .. وهب الشعب بكافة طبقاته وموارده وطاقاته على قلب رجل واحد ضد الزحف الأجنبى ، وأحرزت شجرة الدر انتصارات باهرة على الإفرنج ، فأوقفت زحفهم وفرقت كتائبهم .. وكانت تصدر المراسيم والأوامر والتعليمات مذيلة بخاتم الملك الصالح مدعية أنه مريض يلازم الفراش ، وكانت لا تخفى صغيرة ولا كبيرة عن جاريتها وصديقة عمرها وموضع ثقتها مرجانة ، تلك الفتاة التى تتفجر حقدا عليها .

قالت مرجانة : تعلم سيدتى أننى لم أدخر وسعا لخدمة العرش الذى يتألق الآن تاجه على جبينك وحدك .. وإن إخلاصى لك طوال هذه السنين يحتاج منك إلى عطاء .. لقد قضيت عمرى أرسم خطواتك وأحفظ أسرارك ، وانتزعت قلبى انتزاعا عندما آثرك الملك الصالح نجم الدين ، على كل النساء ، ورضيت أن أحيا حياة الظل جارية لك ، ولكننى راضية محبة مخلصة كما تعلمين .. لقد أوغرت صدر مولاى ــ رحمه الله ــ على زوجته (العالمة) أم غياث الدين حتى أهملها و لم تقم لها قائمة وكأنها فى عداد الموتى ،



بذلك فى ليالى قلعة الكرك ؟ . فماذا أعددت لجاريتك المخلصة التى تقرأ طالعك وتزف إليك البشرى والسعادة مع مطلع كل يوم جديد ! .

ــ وهل تعتقدين يا مرجانة أن هذه المسئولية التى

كما شاركتك التخطيط فى القضاء على الملك العادل سيف الدّين الذى اغتصب العرش من أخيه الأكبر مولانا نجم الدين إلى أن أقدم مولانا على عزله ثم اغتياله فى سجنه .. وهأنذا يا سيدتى على استعداد لأن تعتمدى علىّ لكى أخلصك من غياث الديـن .. فلاشك أنه العقبة الوحيدة أمامك ..



لويس التاسع (التمثال الأصلي الوحيد لسانت لويس)

●● وصل الملك المعظم غياث الدين تورانشاه إلى المنصورة ، وأسرعت شجرة الدر فأعادت إليه مقاليد الحكم وتبعات الملك والقيادة ، فأعلن خبر وفاة أبيه الملك الصالح والمناداة بنفسه ملكا على مصر والشام ، وتفرغ غياث الدين لقيادة الجيش ضد الصليبيين .. ولم يمض أسبوعان حتى أنزل بهم كارثة مروعة فى المنصورة ، فسحق جيشهم ، ووقع الملك لويس التاسع أسيرا فى أيدى المصريين الذين اقتادوه سجينا فى دار ابن لقمان . وعمت البلاد أفراح النصر ونشوة الفخار والثقة والتغنى بحب الوطن والسيادة والكرامة !

التآمر والعاصفة

ولعبت نشوة النصر العظيم برأس تورانشاه .. وتصرف بالخيلاء والتعالى مع خلصائه ومع الأمراء الذين حافظوا على عرش البلاد فى غيبته .. وعامل شجرة الدر بخشونة وجفاء لم تتعود عليه من قبل ! وكان لابد من أن تنعكس ردود الفعل على هؤلاء الصفوة من القادة وذوى النفوذ ، وتحركت الأصابع فى الظلام تحيك المؤامرات وتطالب بالردع والانتقام . ونفذوا قرارهم بقيادة بيبرس البندقدارى الذى كان أول من ضرب الملك بالسيف فقطع يده .. وحاول تورانشاه الفرار ، فأدركه القتلة فى وسط النيل وأجهزوا عليه . وألقيت جثته فى العراء ثلاثة أيام ، ولا يعرف أحد أين دفنت ! وكان هذا الحادث المأساوى المروع فى شهر المحرم من سنة ٦٤٨هـ . بعد خمسة أسابيع من مبايعة تورانشاه بالملك .

وبموته ، انقرضت أسرة الأيوبيين فى مصر .. وتشاور الأمراء فيما بينهم ، ثم بايعوا شجرة الدر ملكة على عرش مصر .. فكانت بذلك أول ملكة جلست على العرش وحدها فى تاريخ الإسلام !

وما أن تربعت على كرسى العرش .. حتى نادت جاريتها مرجانة وأجلستها قريبا منها وأمرت لها بعدة أثواب مزركشة ، وقرطين من الماس ، ومجموعة نادرة من القباقيب المصنوعة من خشب الصندل المموه بالذهب .. فكل شيء له ثمن !

وهبت عاصفة مدوية بعد اعتلائها العرش فى مختلف بلاد الإسلام ، وأرسل الخليفة المستعصم بالله العباسى يقول : « ويل لبلد تحكمه امرأة ! إذا كانت مصر قد أقفرت من الرجال فأخبرونا لكى نرسل إليكم رجلا » !!

وأدركت شجرة الدر بثاقب نظرها أن الأمور لن تستتب لها مادامت وحيدة بدون رجل بجانبها يشاطرها العرش والرأى والسلطان ، فتزوجت الأمير عز الدين أيبك التركمانى فشاركها الحكم باسم (الملك المعز) . وقد عمل جهده لإرضاء الفئة الباقية على ولائها للأسرة الأيوبية .. فجاء بالأمير الصغير (موسى) من سلالة الملك العادل ، ونصبه معه ملكا باسم (الملك الأشرف) ، وما أن هدأت الأمور حتى زج به عز الدين فى السجن ثم أرسل إليه من يقتله .. وأعاد نفس اللعبة القديمة فى التآمر وسفك الدماء !

وصفا الجو لشجرة الدر وزوجها ، فراحا يوطدان عرشهما .. وظن عز الدين أيبك أنه أصبح الحاكم بأمره .. وأنه الرجل صاحب الكلمة العليا .. وأن زوجته الملكة — وقد بلغت الخمسين من عمرها — لن تمارس سيادتها على نفوذه وسلطانه بعد اليوم !



الاقتتال بعد انتصار المنصورة

وذهب فى طموحاته إلى أبعد من ذلك .. إنه يخطط ويفكر جديا فى مستقبل حكمه وفيمن يخلفه على عرش مصر .. إن شجرة الدر لم تنجب فى حياتها غير الطفل الذى مات صبيا وليس هناك من أمل لأن تنجب مرة أخرى وهى فى سن الخمسين . فى حين أن جاريته قد أنجبت له ابنا سماه (نور الدين على) .. فلم لا يكون نور الدين وريثا شرعيا للعرش وسيسوى هو أموره مع شجرة الدر بطريقته الخاصة !

واشتط به الطموح والخيال .. وتجاسر يوما فبعث برسول إلى (بدر الدين لؤلؤ) حاكم الموصل يطلب منه أن يزوجه ابنته الأميرة الشابة الفاتنة !

... علمت شجرة الدر بكل ما يدور خفية من خلف ظهرها .. وقادت مرجانة فريق التجسس والوقيعة بين الزوجين اللدودين وهمست الجارية فى أذن سيدتها بأن عز الدين يُخطط لاغتيالها — إن سبع سنوات مرت على الزوجين فى شقاق ونفاق وخلافات وخيانات .. فعهدت شجرة الدر إلى غلمانها بالقضاء على الزوج المتمرد .. فنفذوا الأوامر على مرأى منها .. وقيل إنها بدأت خطة الاغتيال بأن ضربت زوجها الضربة الأولى بالقبقاب على رأسه وتركت للغلمان أن يجهزوا عليه حتى النهاية !

ثار المماليك من أنصار عز الدين لتلك الجريمة البشعة ، فهاجموا القصر ، وفتكوا بالغلمان والخدم والعبيد وبطانة الملكة المتسلطة .. وأرغموها على البقاء فى أحد أبراج القلعة سجينة مجردة من كل نفوذ أو سلطان .. ثم نادوا بابن عز الدين أيبك (وهو الطفل نور الدين على) ملكا على مصر والشام باسم (الملك المنصور) .. ولكن شجرة الدر لم تذعن

لهذه الزلازل المروعة .. فاستجمعت كل ما بقى من فلول أنصارها .. وحثتهم على قتل الملك الصغير نور الدين .. وقتل أمه .. وقتل المماليك المعزية .. وليغرق الجميع فى بحر من الدماء !

وما أن نقلت مرجانة هذه الأخبار إلى أم نور الدين على (الملك المنصور) حتى اجتمع المماليك واستمعوا إلى رجائها بقتل غريمتها شجرة الدر .. تلك المرأة التى حكمت مصر ثمانية عشر عاما ، وجمعت فى شخصيتها كافة المفارقات والمتناقضات .. وفشلت فى محاولة التوفيق بين خشونة الرجولة وعنفوانها ونعومة الأنوثة ورقتها !

●● فبعد قتل المعز بأيام ، جىء بشجرة الدر إلى غريمتها أم نور الدين الملك المنصور .. التى ما أن مثلت أمامها حتى أعطت الإشارة إلى جواريها .. وإذا بسرب منهن يثبن عليها ويشبعنها ضربا بالقباقيب ، حتى لفظت آخر أنفاسها على هذا النحو المروّع ..

وكانت مرجانة فى مقدمة الضاربات .. تلك الجارية الحاسدة الحاقدة التى حالت شجرة الدر بينها وبين حبيبها الملك الصالح .. فأضمرت الانتقام فى نفسها وعاشت تلك الأعوام الطويلة تتجسس على غريمتها وتوقع بينها وبين الناس .. حتى حانت الفرصة لها فى النهاية لكى يكون انتقامها مروعا .. وكانت نهاية الملكة الفاتنة القوية المتسلطة تحت أقدام الجاريات . وكان آخر ما وقعت عليه عيناها وهى تغالب سكرات الموت .. تلك القباقيب المموهة بالذهب المصنوعة من خشب الصندل .. التى كانت مرجانة تحرص على اقتنائها كعطايا من شجرة الدر إلى جاريتها وصديقتها وموضع ثقتها .. ولا تمل من طلب المزيد منها فى شتى المناسبات !

وتدور عجلة التاريخ .. وكم يحوى بين صفحاته من العجائب والخبايا والغرائب وتلك هى مسيرة الإنسان !



واجتمع المماليك واستمعوا إلى رجائها وقرارها الخطير

ذات الابتسامة الخالدة .. وفضيحة العصر

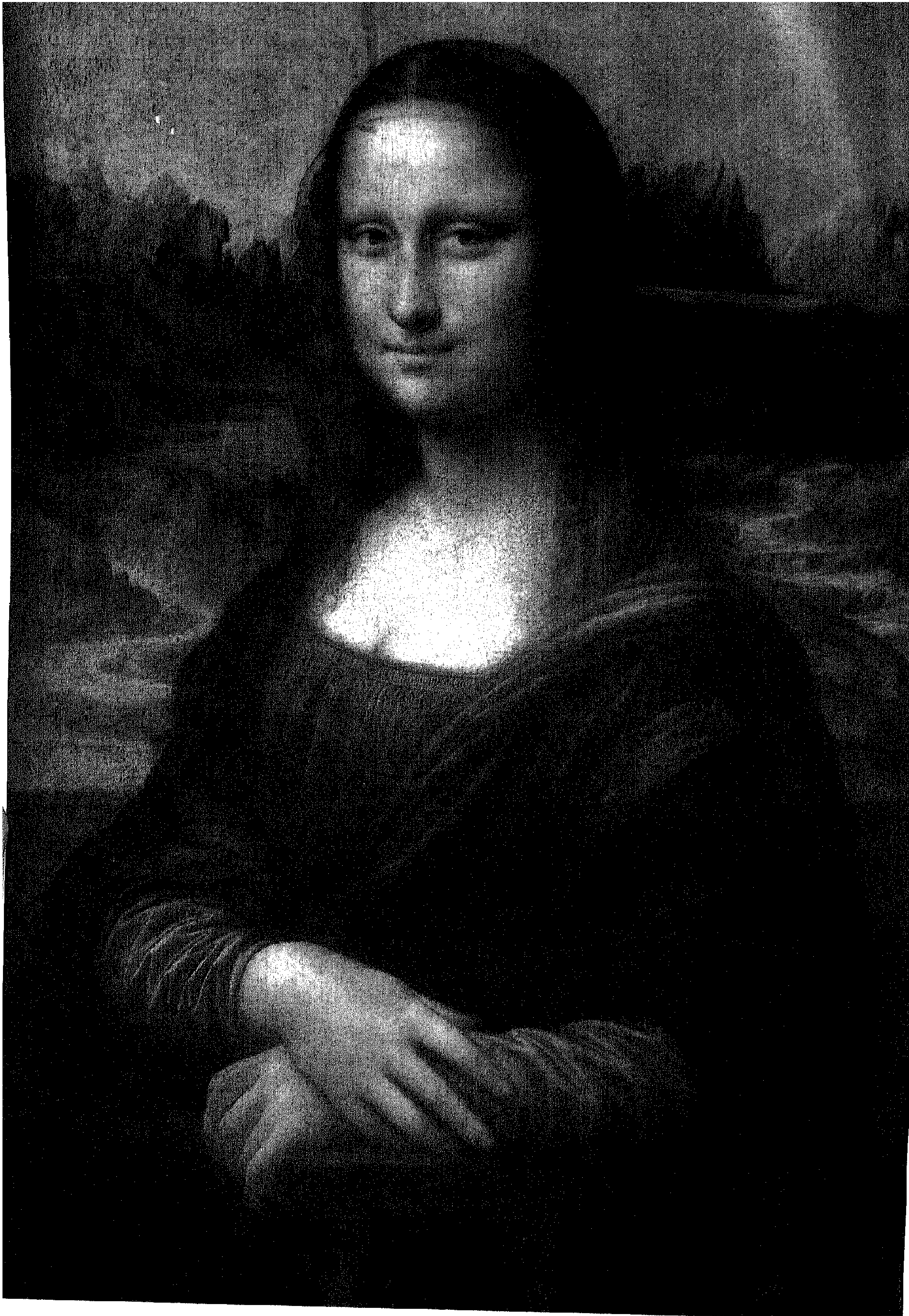
حرى بنا أن نتمثل فى وجداننا « الجيوكوندا » أو « الموناليزا » بما أثير حولها من حكايا وأساطير ، وبما حظيت به من شهرة فاقت كل حدود التصور ! ولوحة ليزا جديرة حقا بهذا الاهتمام العالمى ، إذ يكفى أنها أثمن مقتنيات متحف اللوفر .. الذى هو أهم متاحف الدنيا بأسرها . أما مبدعها « ليوناردو دافنشى » فهو أعظم عبقريات عصر النهضة الإيطالى .. وكان هذا العصر بمثابة الذروة فى مسيرة الإبداع العالمى والفكر الإنسانى بصفة عامة !

فنان سبق عصره

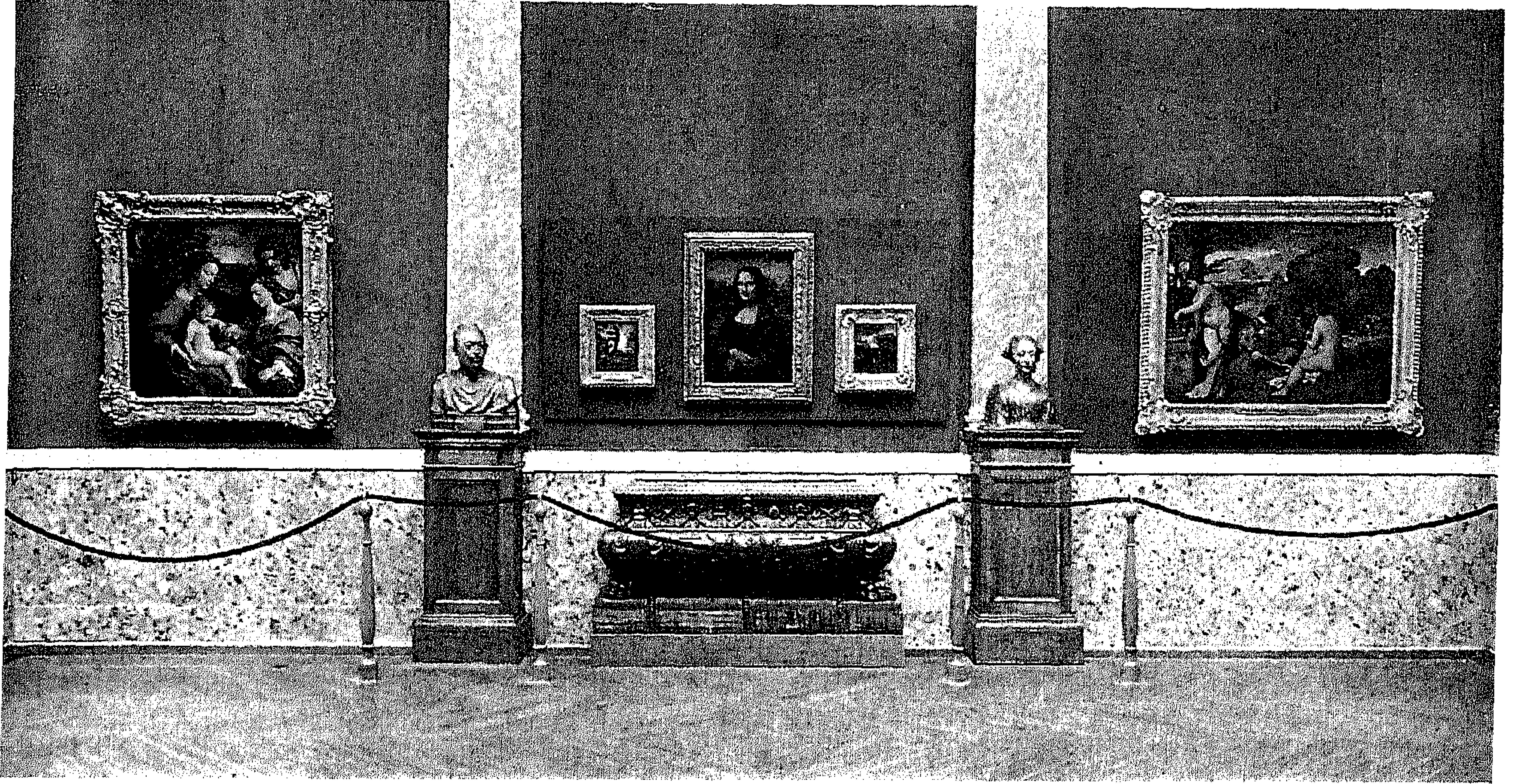
وقصة حياة دافنشى ثرية بالأحداث والغرائب والعجائب ، ومواهبه عديدة متألقة فى كل مرافق الحياة ، فكان المهندس المخترع والأديب الفيلسوف وعالم الفلك والطبيعيات .. وقبل كل ذلك .. كان رساما ونحاتا لايبارى ! وليست مذكراته فقط هى التى ضاع معظمها ، بل وبعض أعماله الفنية الكبيرة كذلك .. فقد صمم عام ١٤٩٤ أحد تماثيل الميدان الكبيرة ليتوسط مدينة ميلانو ، وهو تمثال القائد « فرانشسكو سفورزا » وانتهى فعلا من تجسيده مصغرا ، وما أن هم بتنفيذه مكبرا بالبرونز ، حتى غزت الجيوش الفرنسية ميلانو فاضطرت الحكومة إلى استخدام الكميات الكبيرة من البرونز التى كانت معدة لصب التمثال فى الأغراض الحربية لكى تتحول إلى مدافع وتحصينات ، وبذلك اندثر مشروع التمثال ولم يبق منه حتى الآن إلا بعض التخطيطات التحضيرية التى وجدت بين أوراقه .

كما أن لوحة هامة من أعماله الكبيرة وهى لوحة « معركة إنجيارى » قد قدر لها أن تذوب بفعل العوامل الجوية بعد أن أتم رسمها .. ولم يبق لنا من ملامحها إلا بعض الرسوم التخطيطية التى اقتبسها بعض فنانى عصره من هذه اللوحة ، مثل الفنان « روبنز » وقد ذكرت كتب التاريخ عنها أنها مقتبسة من لوحة « معركة إنجيارى » لدافنشى . أما لماذا تفاعلت ألوان اللوحة وانطمست معالمها .. فذلك يرجع إلى أن الفنانين فى تلك الأزمان كانوا يصنعون ألوانهم بأنفسهم من مساحيق وكيماويات ومواد طبيعية ينقبون عنها ويعتبرونها سرا من أسرار المهنة ، ولذلك كانت صناعة هذه المواد فنا قائما بذاته يشتهر به هذا الفنان أو ذاك ويتميز به على أقرانه . وعكف فناننا دافنشى على صناعة ألوان جديدة تناسب ألوان المعركة .. وخلط المساحيق والزيوت .. وشرع فى رسم لوحته .. ولكنها بسبب تفاعلات كيماوية لم يعمل حسابها تداخلت الألوان وتميعت بعد سنوات (لاندرى طالت أو قصرت) .. وبذلك قضى على هذه اللوحة العملاقة قبل أن تخلد فى التاريخ كباقى أعماله التى مازالت شاهدة على عبقريته حتى اليوم !

... ونتخطى الأيام والأحداث فى حياة دافنشى لنصل إلى رائعته وملهمته الموناليزا ، لتكون هى « بطلة » هذا الاستعراض الذى وصل إلى ذروة الإثارة لا فى القرن السادس عشر فحسب .. بل وفى القرن العشرين كذلك !



هكذا كانت الجيوكوندا فى مكانها عام ١٩١١



أثمن درر الإبداع العالمى

والحق أنها ليست مجرد صورة لا مرأة بعينها .. فقد التقت فيها الرؤية بالرؤيا ، والواقع بالخيال ، والوجدان بأسرار الطبيعة .. نقف مشدودين مشدوهين أمام هذه اللوحة الأسطورية ، فنحتار لمغزى ابتسامتها .. هل هى وردية ساحرة أم صفراء ساخرة .. ونرى هاتين العينين الساهمتين الهائمتين .. هل هما آملتان وادعتان .. أم زائغتان ماكرتان ، وذلك الأفق الغامض ذو الوديان والأنهار والأشجار .. تسبح جميعا فى أطياف الشاعرية ذات اللمسات المرهفة الحانية ! وصاحبة الصورة .. السيدة ليزا أو الموناليزا أو الجيوكوندا نسبة إلى عائلة زوجها « جيوكوندو » .. إنها زوجة التاجر الفلورنسى « فرانسيسكو دى بارتولوميو دل جيوكوندو » ، ولا شك أن صلة وثيقة كانت تربط بين الفنان وهذه المرأة البسيطة الجميلة ، مما جعله يعكف أربع سنوات كاملة على رسم صورتها ، بل إنه كان يعتز بها اعتزازا يفوق الوصف ، فقد عرف عنه أنه كان يحمل هذه اللوحة معه فى أسفاره دون باقى لوحاته التى يتركها فى مرسمه بفلورنسا .. إن شيئا وجدانيا أكبر من علاقة فنان بلوحته كان يملى عليه هذه التصرفات مع هذه اللوحة المفضلة .. وقد كتب عن ليزا ما لا يمكن حصره من التقييم والتحليلات والأبحاث التاريخية والفلسفية ، وفى السنوات الأخيرة ، أجريت على اللوحة عشرات من التجارب الكيماوية والتصوير الإلكترونى بمختلف أنواع الأشعة ، وأخذ المحللون يستنتجون أسباب احتفاظ الألوان بثباتها ورونقها رغم مرور نحو خمسة قرون على رسمها حتى اليوم .. كما ألفت عنها أوبرا عرفت باسم « أوبرا الموناليزا » ، وكتبت من إلهاماتها آلاف القصص والقصائد والتحليلات النفسية والفلسفية .. وخلاصة القول : إنها ترتسم فى مخيلتنا وكأنها أسطورة تتراقص فى بصائرنا على أنغام الهمس الشاعرى الذى يخرج من بين شفتيها الباسمتين المطبقتين على أسرار الصمت والغموض !

عندما تستضاف الجيوكوندا

والجيوكوندا تحفة التاريخ .. وتحفة العصر .. وكل العصور حتى اليوم . فبالأمس القريب ، وعلى وجه التحديد فى عام ١٩٦٢ ، اتفقت الولايات المتحدة الأمريكية مع فرنسا على استضافة اللوحة الأسطورة لكى تعرض بعض الوقت فى « متحف واشنطن للفنون الجميلة » وقامت معارضة قوية بين جموع الشعب الفرنسى لهذا القرار .. وكان للشعب مبرراته فى أسباب التخوف والتحسب من إعارة الموناليزا لأمريكا ، خوفا عليها من السرقة أو التلف .. وعندما صدرت البيانات الحكومية تؤكد دقة الاحتياطات وأسباب الأمن بما يكفل سلامة اللوحة فى ذهابها وإيابها .. خرج المتظاهرون وقد رفعوا لافتات كتب عليها : على المسئولين أن يتذكروا عام ١٩١١ !.. وبعد قليل سنعرف تفصيلات ما حدث فى ذلك العام لدرة متحف اللوفر : الجيوكوندا ! وعلى أية حال .. فقد سافرت اللوحة .. وعرضت بواشنطن وعادت بالسلامة . وكانت شركة الملاحة التى قامت بمهمة نقل اللوحة وإعادتها إلى فرنسا (وهى الشركة الأتلانتية) تملأ أرجاء الدنيا . بإعلاناتها ودعايتها فى منشورات تقول فيها : إن باخرتنا « فرنس » قد نقلت خلال عام ١٩٦٢ لوحة الجيوكوندا وخمسة وستين ألف راكب ! أى الجيوكوندا عندها كانت حافزا لها على الفخر بأكثر مما حملته طول العام !

فضيحة العصر :

قلنا إن عام ١٩١١ م بالنسبة للشعب الفرنسى ومحبى الفنون الجميلة فى العالم عام لا ينسى :

ففى يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من شهر أغسطس من ذلك العام جاء أحد المصورين المحترفين يدعى « لوى بيرو » إلى متحف اللوفر فى ساعة مبكرة من الصباح ، ومازالت قاعات المتحف خالية من الزائرين الذين يفدون من شتى أنحاء الأرض لزيارة المتحف الشهير ، وكان الرجل قد حصل مسبقا على إذن من إدارة المتحف لدخول البهو الخاص بعصر النهضة الإيطالى ليلتقط بعض الصور الفوتغرافية لفتاة حسناء تقف وفى خلفيتها لوحة الموناليزا ، وذلك لأغراض الدعاية عن عطر جديد لإحدى الشركات الباريسية . وما أن وصل المصور ومعه فتاته إلى مكان لوحة الموناليزا حتى وجده خاليا ، فظن أنهم نقلوها إلى مكان آخر فقصد « مسيو بوباردان » كبير الحراس وسأله عن اللوحة ، فأجاب الضابط ببرود : « انتظر قليلا ، إنهم بلا شك قد حملوها إلى معمل التصوير لأغراض الطباعة ، وأشار لأحد رجاله من حراس المتحف وأمره بأن يذهب ليستفسر عن موعد إعادة اللوحة إلى مكانها . وما هى إلا لحظات حتى دخل الحارس على رئيسه مذعورا وهو يقول : سيدى إن الجيوكوندا ليست بقسم التصوير ، بل إن أحدا لم يعلم عنها شيئا ولم تصدر أية تعليمات بنقلها من مكانها ! » وذهل رئيس الحرس مما سمع وأسرع بإصدار أوامره إلى جميع مسئولى الأمن فى المتحف بإغلاق الأبواب واستدعاء رجال المباحث والمحققين ، وتفقد الجميع مكان اللوحة مرة أخرى فاكتشفوا أنها نزعت من مكانها بعنف ولا شك أن هذا قد حدث بغرض السرقة .. وأسقط فى أيدى رجال الأمن ، فهم بلا شك على أبواب فضيحة ستهز العالم بأسره ، وأنهم قادمون إلى كارثة محققة ! وعندئذ ، امتلأت قاعات المتحف بالهرج والمرج ووفد مئات من رجال المباحث



والتحقيقات من إدارة الشرطة المركزية بالعاصمة وعلى رأسهم مدير الأمن العام فى باريس ، وعمل الجميع ما فى استطاعتهم لستر الأمر وإخفائه عن الزائرين الذين اندس بينهم رجال المباحث لعلهم يشاهدون أو يسمعون أى شىء يفيدهم فى هذه الكارثة ! وفى داخل قاعات العرض جرت عمليات البحث الدقيق التى يسمونها بعمليات التمشيط ..

وكانت أولى المفاجآت أن وجدوا أسفل السلم الخلفى الذى يقود إلى « ممر أبى الهول » إطار اللوحة المذهب ومازال عالقا به لوح الزجاج الذى يحفظ اللوحة من التلوث ، أى أن اللص أراد أن يخفف من حمله الثمين فانتزع اللوحة من أثقالها غير عابىء بما قد يحدث لها من كسر أو تلف .. وهذه هى الطامة الكبرى !.. وتحول مكتب مدير المتحف إلى (غرفة عمليات) ، وكان



صورتان لدافنشي رسمها لنفسه

التساؤل الذى يؤرق المسئولين عن الأمن فى متحف اللوفر : كيف استطاع اللص أن يفلت من بوابات المتحف وهو يحمل أثمن لوحة فى العالم ؟ ومما زاد الطين بلة ، أن لوحة الجيوكوندا مرسومة على لوح من الخشب طوله (٧٩ سنتيمترا وعرضه ٥٤) ، ومعنى ذلك أن اللوحة وقد رسمها دافنشى على خشب لا على قماش أصعب بكثير فى إخفائها عن الأعين .. فكيف حدث هذا بالرغم من الحراسة الشديدة والمراقبة الدائبة طوال الليل والنهار ؟

... وتوالت أقوال الشهود .. وخرج المحققون بتصور محدد : لقد سرقت اللوحة فى اليوم السابق (أى يوم الاثنين ٢١ أغسطس) فيما بين الساعة السابعة والتاسعة صباحا (كان يوم الاثنين هو يوم الإجازة الأسبوعية لمتحف اللوفر) وقامت الدنيا و لم تقعد ...

●● توصلت التحقيقات الدقيقة التى أجراها المسئولون إلى أن السارق كان يرتدى معطفا أبيض ، وربما كان من عمال المتحف الذين يقومون بأعمال الصيانة ولا يشك أحد فى دخولهم وخروجهم .. وليس أمامهم سوى البصمات التى خلفها اللص على زجاج اللوحة . وتم حصر العاملين بالمتحف (وكان عددهم آنذاك ٢٥٧ شخصا) وتقدمهم المدير بنفسه لكى يأخذوا بصماته كقدوة للجميع فى مساعدة المحققين .. وكانت المفاجأة المخيبة للآمال أن مقارنة جميع البصمات بتلك التى تركها اللص على زجاج اللوحة .. لم تسفر عن أية نتيجة إيجابية ! وازدادت الأمور حرجا ، وكان على الشرطة أن تبحث عن قطرة فى بحر .. بينما كان العالم الفنى من أقصاه إلى أدناه قد روعه هذا الحادث الجلل ! والصحافة فى كل مكان تسهب فى نشر التحقيقات المثيرة وتلقى باللائمة على رجال الأمن المسئولين عن الحراسة فى أكبر وأهم متاحف الدنيا بأسرها ! وأطلق على هذه الجريمة : جريمة العصر .. وكان الحادث لغزا محيرا : هل هى جريمة فردية أم عصابة دولية .. لماذا ولمصلحة من ؟ وهل فات هؤلاء أنهم فى غباء وجهالة إذا توهموا أنهم يستطيعون بيع اللوحة أو الانتفاع بها ماديا وهى معروفة تماما لكل فرد فى أرجاء المعمورة ؟ ربما أقدم على هذه الفعلة مخبول لا يدرى ماذا يفعل بعبثه هذا .. وهل .. وهل .. وكل أدوات الاستفهام والتعجب !!

وفى الجانب الآخر .. كان المؤرخون والباحثون والفنانون يجهدون عقولهم وقرائحهم ويستعرضون ملكاتهم فى البحث والتأليف وإثراء الفكر الإنسانى بفيض من المعلومات القيمة عن فنانى عصر النهضة وقطبهم الشهير ليوناردو دافنشى .. وعن ملهمته « ليزا » وقصتها معه وأصلها وفصلها بما يشبه الأساطير ! وصارت اللوحة الصامتة .. كيانا يملأ الحياة حركة وحيوية .. وازدادت شهرتها وتألقها فى وجدان البشر .. وكيف لا وقد أقامت الدنيا و لم تقعدها قلقا على مصيرها المجهول !!

عفوا لقد طالت بنا الجولة بأكثر مما يتسع لها المجال .. وكنت أريد أن أتحدث عن اللوحة تفصيلا منذ أن صحبها دافنشى إلى باريس عام ١٥١٦ ثم اضطر إلى بيعها إلى الملك فرانسوا الأول بمبلغ أربعة آلاف جنيه من الذهب وتصدرت القائمة الرئيسية فى قصر « فونتين بلو » إلى أن أمر نابليون بونابرت بوضعها فى غرفة نومه بقصر « التويلرى » .. وحتى استقرت فى متحف اللوفر فى عهد نابليون الثالث ، فلنتخط هذه الأمور إلى لقاء آخر إن شاء الله لنعود إلى المفاجأة الكبرى ..

المفاجأة

يئس المحققون ورجال الأمن فى فرنسا من العثور على اللوحة .. و لم يكفوا عن البحث والتفتيش وكتابة التقارير .. ومرت الأيام .. والشهور .. ومر عام .. وعامان .. وظل الحال على ما هو عليه من النشاط

ألفريد جيرى ـــ تاجر التحف الفلورنسى (ديسمبر ١٩١٣)



المحموم فى أجهزة الأمن .. ومن اليأس فى النتائج المخيبة للآمال .. حتى كان يوما من أيام شهر نوفمبر عام ١٩١٣ .. حيث نشرت بعض الصحف الفرنسية هذا الإعلان : « رغبة فى إقامة معرض فنى ، أرجو ممن لديه تحف أثرية من أى نوع أن يتصل بالعنوان التالى جيرى ألفريدو ـــ رقم ... فلورنسا ـــ إيطاليا » وبعد أيام من نشر هذا الإعلان ، وصل جيرى مئات الرسائل ، ولكن رسالة غريبة استوقفته وكانت من باريس وموقعة باسم : ليوناردى فنشتزيو : يقول فيها « أكتب إليك لأعرفك بأننى أملك لوحة الجيوكوندا .. نعم لا تعجب ! إنها الجيوكندا حقيقة ، وبوسعى أن أسلمها لك إذا ما رغبتم فى الحوار بشأن ثمنها الذى أريده . الرد على مكتب بريد رقم ٦ بميدان الجمهورية ـــ باريس » . قرأ جيرى هذا الخطاب ، وكاد يلقى به فى سلة المهملات ، إنه لا شك من مجنون أو نصاب أو مغامر أو عابث .. أبهذه البساطة يعلن هذا المجنون أنه يملك « الجيوكوندا » ؟! ولكنه تريث وقرر إرسال موافقته على العنوان الذى ذكره فنشتزيو ، لعل وعسى .. وبعد أيام .. فوجىء الرجل برد عاجل من باريس يخبره (صاحب الجيوكندا) بأنه فى طريقه إلى إيطاليا ومعه اللوحة ! وجاء اليوم الموعود .. ففى صباح أحد أيام شهر ديسمبر ١٩١٣ دخل شاب رث الثياب إلى مكتب جيرى فى فلورنسا وقال له بكل هدوء : سيدى .. أنا فنشتزيو ، ومستعد لأن أبيع لك الموناليزا بنصف مليون فرنك . إننى إيطالى أقيم فى باريس ، ولاشك .. أنه عمل وطنى أن أعيد اللوحة إلى وطنها الأصلى إيطاليا .. وإلى مدينة فلورنسا بالذات حيث رسمها ليوناردو دافنشى .. أليس كذلك ؟ و لم يكد جيرى أن يصدق ما سمع ولكنه تظاهر بالموافقة والترحيب وقال للشاب : أنا واثق من ذلك كل الثقة .. فأين اللوحة ؟.. وبكل سذاجة .. حدد الشاب موعدا لإتمام الصفقة فى « فندق طرابلس إيطاليا » بالطابق الثانى ، حيث كان يشغل إحدى الغرف المتواضعة باسم مستعار هو « هنرى ليونار ـــ مصور من باريس » .





فينسنزيو بيروجيا وبطاقة التحقيق الجنائى بعد القبض عليه

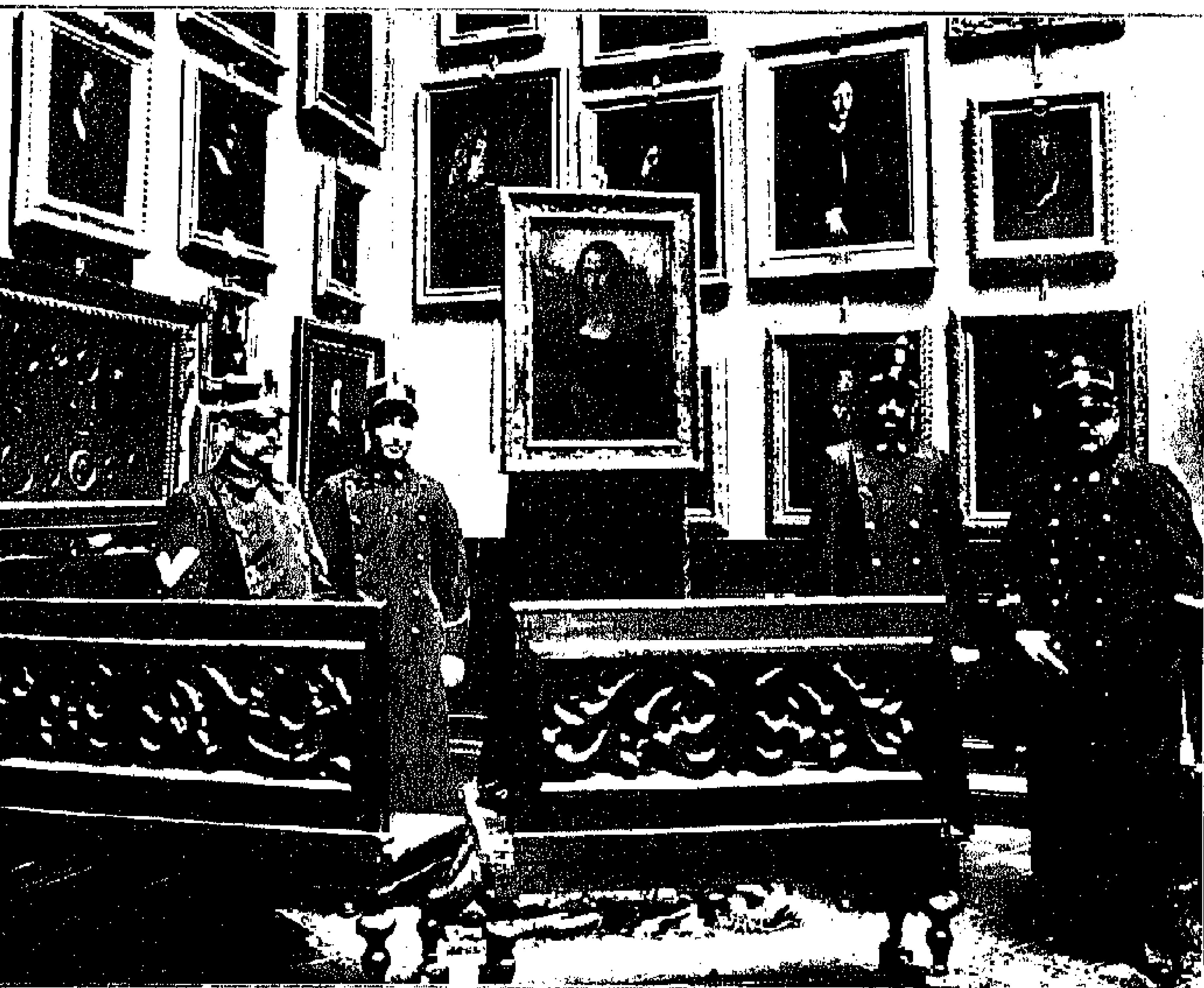
المساومة والوقوع فى الفخ :

وفى الموعد المحدد .. كان الشاب والجيوكوندا فى قبضة رجال الشرطة على مشهد من جيرى وخبراء متحف فلورنسا .. وكشف النقاب عن الاسم الحقيقى لهذا المغامر فنشنزيو بيروجيا — من مواليد ٨ أكتوبر عام ١٨٨١ بإقليم كومو بإيطاليا ، وعمله مبيض ومزخرف مبان يسكن فى باريس منذ ست سنوات ، وقد عمل لعدة أشهر فى متحف اللوفر لحساب شركات الصيانة .

.. واشتعلت الأخبار الصحفية والمحافل الفنية وأجهزة الأمن مرة أخرى .. وأسرعت السلطات الفرنسية بطلب إعادة اللوحة إلى متحف اللوفر وتأمين سلامتها بأقصى الترتيبات الأمنية اللازمة .. وقدم بيروجيا للمحاكمة فى شهر يونيو عام ١٩١٤ بمدينة فلورنسا ، وترافع عنه واحد من أشهر المحامين الإيطاليين بتكليف من بعض الجماعات الوطنية المتحمسة لاستعادة اللوحة إلى وطنها الأصلى ! وكانت مرافعات المحامى « تراجتى » بمثابة خطب حماسية تخاطب ضمير القضاة لكى ينظروا إلى المتهم على أنه شاب وطنى يعز عليه أن يرى تراث أمته الإيطالية مسلوبا كغنائم الحرب التى طالما نهبتها قوات الغزو الفرنسى من شتى بلاد العالم !! ولكن الجريمة هى الجريمة .. فقد حكمت المحكمة على بيروجيا حكما مخففا بالسجن سنة واحدة وخمسة عشر يوما .. بينما قامت ثورة عارمة فى فرنسا تستنكر هذا الحكم الذى لا يناسب شناعة الجرم الذى أطلقت عليه الصحافة العالمية آنذاك « سرقة العصر » !... ومرت الأيام .

... وكانت سحب الحرب العالمية الأولى تتراكم فى أفق السياسة الأوربية .. وتنذر بالأعاصير والرعود والزلازل والبراكين .. وجاء مصرع ولى عهد النمسا وزوجته فى « سراييفو » شرارة البلقان التى أحرقت أوربا .. وشغل الناس عن الجيوكوندا .. وصار اللص





رجال الشرطة الإيطالية فى حراسة الجيوكوندا عندما عرضت مؤقتا فى متحف فلورنسا

(C) حجرة بيروجيا فى باريس



وقضيته فى طى النسيان .. وأمضى مدة سجنه فى إيطاليا ثم عاد إلى باريس .. وعاش فيها حتى مات فى أغسطس ١٩٤٧ .

وتربعت على عرشها مرة أخرى

« أما الموناليزا فكانت قد رُدَّت إلى فرنسا فى احتفال كبير فور الانتهاء من نظر القضية فى فلورنسا ، وأقيم لها معرض خاص فى أوائل عام ١٩١٥ بأكاديمية الفنون الجميلة فى باريس خصص دخله لأعمال الخير الإيطالية .. ثم استردت الجيوكندا عرشها فى متحف اللوفر العريق ..

وقبل أن نختتم جولتنا هذه مع أحداث « سرقة العصر » أعود بكم إلى أكثر الأمور طرافة فى أثناء التحقيق مع بيروجيا .. فقد أثبت بسهولة أنه ترك العمل بالمتحف منذ فترة طويلة .. وبهذا أفلت من اكتشاف بصماته ، ولكن أجهزة الأمن قررت تفتيش سكنه المتواضع ضمن مئات من العمال الذين سبق لهم العمل بالمتحف .. وذهبت لجنة من رجال المباحث يرأسها ضابط كبير إلى حجرته التى يقيم فيها بأحد الفنادق الشعبية .. وقلبوها رأسًا على عقب .. ولم يجدوا شيئا .. وأراد الضابط أن يكتب محضر التفتيش التقليدى ليوقع عليه بيروجيا .. فلم يجد فى الحجرة إلا منضدة صغيرة مغطاة بمفرش تلوثه البقع والأتربة .. فوضع أدواته عليها وأنهى مهمته ..

ولم تكن هذه المنضدة فى واقع الأمر إلا لوحة الموناليزا المرسومة على لوح من الخشب وقد أخفاها الشاب المغامر تحت هذا المفرش القديم .. وصدقت توقعاته .. إذ لا يخطر ببال أحد أن تحت هذه الستارة البالية تختبىء درة متحف اللوفر التى تتطلع إليها أنظار العالم ..

◁ الملك فرنسوا الأول ـــ استدعى دافنشى إلى باريس فحمل معه الجيوكوندا



الجيوكوندا وقد أمسك بها سفير فرنسا فى إيطاليا قبيل عودتها إلى باريس (ديسمبر ١٩١٣)

وعادت اللوحة إلى باريس



● باريس .. وقصر الإليزية العريق بحى سانت أونوريه .. هو المقر الرسمى لحكام فرنسا .. وكم شهد القصر الجميل من أسباب الترف والسرف والبذخ .. كما زخر بأسرار المغامرات والنزوات والعلاقات الغرامية الجامحة فى عهود الرومانسية المترفة !.

وكان القرن الثامن عشر .. قمة عهود تلك الرومانسية وأطيافها الوردية الناعمة .. حتى إن الفن الفرنسى فى ذلك العصر .. قد انحدر إلى الزخرف والليونة والإبهارات البصرية الحالمة التى تواكب روح الحياة الأرستقراطية التى كانت السمة المميزة لقصور الحكم آنذاك .. وظهر الطابع الشهير الذى أطلق عليه « الروكوكو » فصار فن البلاط فى القرن الثامن عشر ، وأضحى مدرسة فنية انطلقت من باريس لتعم أوروبا كلها تحت أسماء مختلفة .. وكانت الملهمة لهؤلاء الفنانين الكبار والراعية لهم هى مدام دى بمبادور .

وإذا طالعتنا فى المتاحف الشهيرة أو صفحات تاريخ الفن إبداعات واتو وريجو وبوشيه وفراجونار وفيجيه لوبران .. وغيرهم .. وغيرهم من فنانى الروكوكو .. تقفز إلى أذهاننا على الفور ذكرى البمبادور وحياة البلاط الحالمة ، ومغامرات أصحاب القصور العالية فى عهد السمر والسهر وتقديس الجمال !.

وإذا أتيحت لأحدنا فرصة زيارة الإليزيه .. وطاف بأرجائه وحدائقه الفسيحة ، ووجد أمام الباب الكبير المؤدى إلى حدائق القصر ، بناء جميلا تحيط به خمائل الزهور والرياحين ... لا بد أن الفضول سيدفعه إلى السؤال : ما هذا البناء المرمرى الجميل؟.. وستأتى الإجابة : إنه ضريح الكلب المدلل .. وقد دفنته صاحبته مدام دى بمبادور خليلة الملك لويس الخامس عشر أمام باب القاعة الكبرى فى مدخل الحديقة ، لتظل رفاته تحت أنظارها !.

كان كلبها الذى لم يفارقها أبدا ، يمرح فى القصر الكبير .. ويرتع فى أرستقراطية وخيلاء .. تماما كما كانت هى تحكم القصر وتتحكم فيه ، بل وفى زوجها .. وفى الدولة .. حسب هواها وأهوائها .. ولا تلقى بالا لزوجها الهائم فى حبها .. الغارق لأذنيه فى اللهو والعبث والمجون !

فمن هى ذات الحسن والجمال والدلال التى استولت على قلب الملك .. فدانت لها مقاليد الحكم فى فرنسا ... أو أن لويس الخامس عشر رأى الدنيا بعينيها وحكم فرنسا من خلالها ؟..

مسحة الجمال والطموح المبكر

● كانت الطفلة « جان أنطوانيت بواسون » موضع إعجاب صديقاتها ، بل وموضع حسدهن كذلك ، لما حباها الله من نعمة الجمال ورقة الملامح والجاذبية ورشاقة القوام . وكان يحلو لها أن تذهب مع رفيقاتها إلى العرافة ذات الصيت فى حيهن ، فتجلس أمامها ساهمة مستكينة تصغى إليها فى اهتمام وذهول وهى تقول لها :

أمامك طريق مفروش بالورود .. السعد حليف لك ، وسوف ترتفعين إلى ذرى المجد ... ثم تصمت العرافة وتشخص ببصرها إلى المجهول وتضيف قائلة :

ستصبحين ملكة ... لا ، بل أكثر من ملكة ! وسوف يخضع لك العرش بدون أن تجلسى عليه .. لن تضعى تاجا فوق جبينك .. ولكنك ستقفزين فوق التيجان والعروش ، سيكون سلطانك مستمدا من جمالك .. فحافظى على هذا الجمال !



... وتذهب الصبية تحكى لأمها هذه النبوءة العجيبة التى لا تمل العرافة من ترديدها .. وصارت جان تحلم بالمستقبل المفروش بالورود .. وتطيل النظر إلى قسماتها الفاتنة ... وإلى قامتها التى أثقلتها نضوج أنوثتها المبكرة .. وكلما تفتح جمالها .. اتسعت دائرة طموحاتها حتى أضحت لاتحدها حدود !..

كانت تردد دائما تلك الكلمات التى تلتها العرافة على مسامعها مرات ومرات .. حتى حفظتها من كثرة ترديدها : ستكونين أكثر من ملكة ، وسيخضع لك العرش بدون أن تجلسى عليه !..

إنها من أسرة متوسطة ، رقيقة الحال ، لكن أمها تطمع فى أن تكون ابنتها شيئا عظيما ، حتى ولو لم تصدق نبوءة العرافة .. إن الفتاة تتمتع بمواهب شتى : الجمال والذكاء والجاذبية . وفى مثل ذلك العصر الذى تسيطر عليه مفاتن الأنوثة وأسباب الجمال ، يحدوها الأمل فى مستقبل ابنتها المشرق .. وما عليها إلا أن تتعهدها بالمزيد من الرعاية والصقل والتنسيق ! فعنيت بتعليمها وتثقيفها وتهذيبها ، ودربتها على فنون الرقص والغناء والرسم والموسيقى .. فرقت مشاعرها ، وتسامت فى عالم المعرفة والفن الرفيع . وعاما بعد عام ، تجلت مواهبها وملكاتها .. وها هى ذى فى سن الزواج .. فسارعت أمها فى تزويجها من أحد النبلاء — وكان قد أعجب بها — وهو النبيل شارل لينورمان . إلا أن نبوءة العرافة لم تفتأ أن تحيل خططها وأفكارها إلى أحلام وردية سابحة فى الأفلاك العلوية ! فاتخذت من زوجها النبيل « وهو من أعرق الأسر الفرنسية » وسيلة للتقرب من القصر بشتى الطرق والوسائل .. وكان من السهل على الزوجين أن ينالا شرف الحضور فى حفلات البلاط التى يدعى إليها أفراد العائلات الأرستقراطية والبيوتات العريقة .... ورأت جان ملكها عن قرب .. بل وابتسم لها محييا كما يبتسم فى وجوه الفاتنات جميعا .

وباتت تخطط لمغامرة جنونية ... لعل وعسى !..







المغامرة .. الغرس والحصاد

اعتاد الملك أن يخرج للصيد فى غابة سينار على مشارف باريس ، وفى ذات يوم ، بينما كانت عربة الملك المذهبة تخترق الغابة ، اعترضتها عربة أخرى صغيرة زرقاء اللون .. وقد حرنت خيولها عن مواصلة السير ، فاضطرت إلى التوقف متقاطعة مع العربة الملكية .. وأطلت الفاتنة من بين الستائر المخملية ، وكأنها لا تدرى ماذا أصاب خيولها فى تلك اللحظات .. والتقت عينا لويس الخامس عشر بعينى جان الساحرة .. ودقق النظر فى الوجه الحسن والجسد الرائع الجميل .. وابتسم لها ابتسامة ذات مغزى .. إنه اليوم يهبها وحدها تلك البسمة الخاصة ... ويتأمل مفاتنها وحدها بعيدا عن فراشات القصر الهائمة حول الأزهار والأضواء ... أما هى ، فقد بادلته التحية بأحسن منها ، وزادت عليها انحناءة مهذبة تليق بصاحب عرش البلاد . وطالت اللحظات .. فقد أخذت تنسق من هندامها قبل أن تأمر الحوذى بأن يستأنف المسير ..

ومنذ ذلك اللقاء الباسم ، شعر الملك بأن شيئا

ما يشده إلى صاحبة العربة الزرقاء . وقد جرت عادة حاكم البلاط الفرنسى آنذاك أن يتخذ لنفسه ما شاء من الخليلات ، ولكن واحدة منهن تكون هى المحظية الرسمية ! تأمر فتطاع .. وطلباتها غير قابلة للمناقشة .. بل إن آراءها وتعليماتها نافذة فوق القوانين الحكومية والنصوص الدستورية !.

وهكذا درج الحكام على هذا التقليد المتوارث منذ قرون . وكانت المحظية الأولى « أو الرسمية » للملك وقتها هى « دوقة شاتورو » .. تلك الحسناء التى يعرفها جيدا كل أفراد الحاشية والوزراء والمسئولون فى الدولة .. ينفذون ما يصدر عنها من أوامر بكل الطاعة والالتزام والولاء .. بعكس الملكة صاحبة التاج « الزوجة الشرعية » ، فقد كانت تعليماتها قابلة للجدل والمناقشة .. وغالبا ما تهمل فى إطار من الأدب وحسن التبرير !..

وكان العزاء للملكات ، أنهن صاحبات العرش والتاج وأن أولادهن هم الوارثون ..

أحس لويس بأن « دوقة شاتورو » يجب أن تكتفى بهذا القدر ، فلم تعد تحتل قلبه بالقدر الكافى



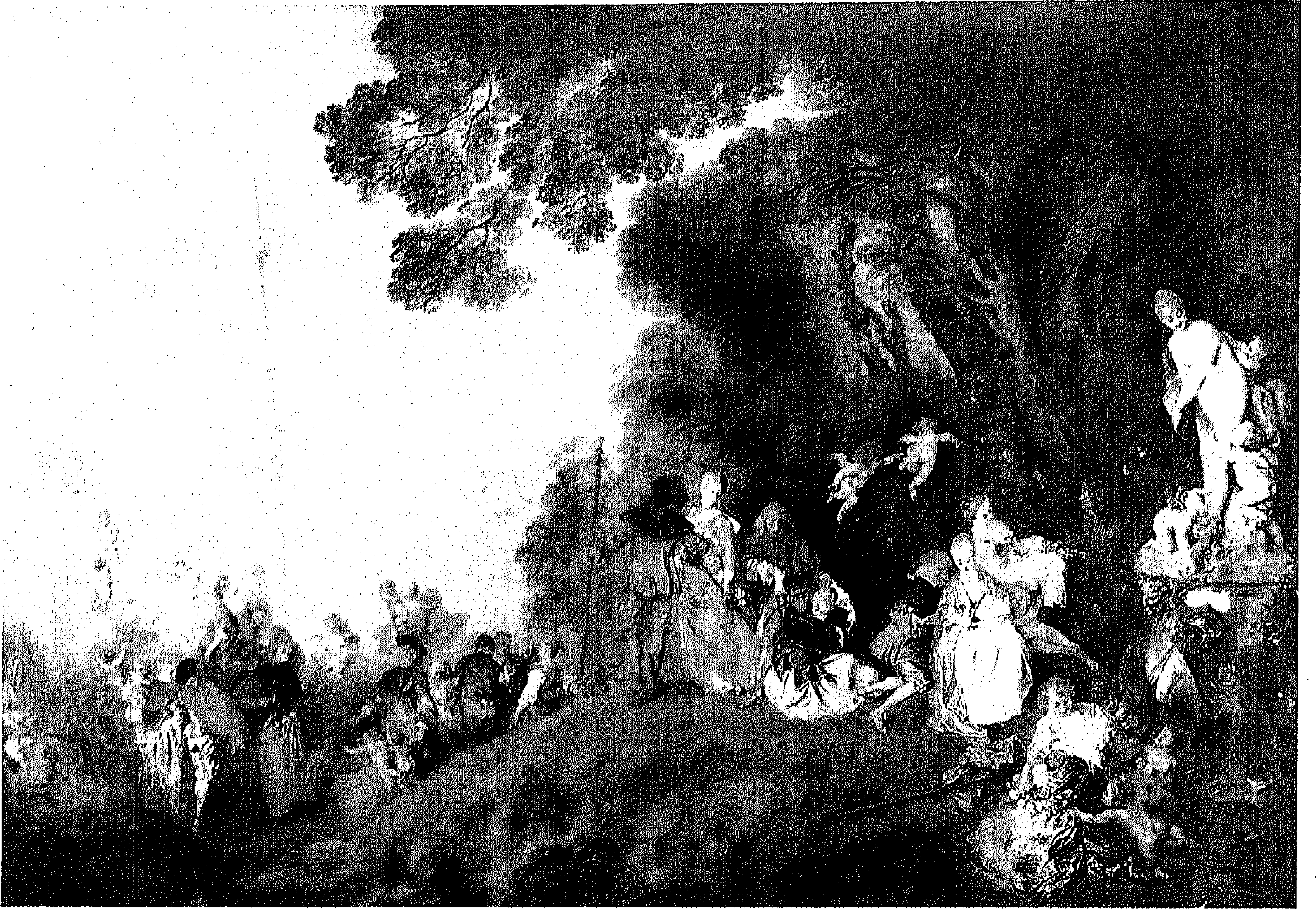
حتى تتربع على هذه المكانة الخاصة فى قصر الإليزيه . إن صاحبة العربة الزرقاء تفوقها جمالا وإناقة وجاذبية ولكنه لا يعرف من هى ولا من أين جاءت .. فليصبر أياما أخرى .. ولا بد أنها ستعاود اللقاء .. إنها ستبرر وجودها دائما بأنه « بمحض الصدفة » .. فلا بأس ... وليترقب هذه الصدفة ... علها لا تطول !...

وبالفعل ... فقد كانت هذه « الصدفة » بأسرع مما توقع الملك ...

رآها فى حفل بدار بلدية باريس ، فاتنة خلابة ، ترتدى أفخر الثياب ، وتتحلى بأجمل زينة .. وخصها بابتسامة كلما تلاقت أعينهما ، ولم تغفل هى النظر إليه للحظة واحدة ... وازدادت ثقتها بنفسها حتى كادت تطير فوق الرءوس .. إن الملك يهتم بها من وسط المئات من زهرات باريس وأميرات البلاط ! .. ولم يضيِّع لويس وقته ، فقد أقبل عليها أخيرا يلاطفها بكلمات الغزل والمداعبة .. وتصنعت الحرج والحياء وأجادت المراوغة .. وأتقنت دورها الذى باتت تعد له من قبل أيما إتقان !..

وكانت أمها من خلفها خطوة بخطوة تقوم بمهمة المخطط والملقن البارع . أما زوجها .. فقد غاص بين الحسان يراقص هذه ويمازح تلك ، ولا يدرى ماذا يدور .. وطبيعى أن ما حدث كان فوق أحلام أية فتاة ، كما كان فوق تحسبات أى زوج لا يخطر على باله مطلقا أن تتدانى القمة العليا ، وأن تتواضع القامة الملكية لتختص خليلة مثلها من طبقة متوسطة متواضعة !...

وأحست الخليلة الرسمية « دوقة شاتورو » بأن الأرض تميد من تحت قدميها .. وكانت تحب ملكها بجنون . فكتمت غيظها ، ولكنها لم تقو على وطأة الاحتمال .. فماتت عام ١٧٤٥ !.. وخلا الجو لجان أنطوانيت بواسان .. وكانت قد بلغت الرابعة



والعشرين من عمرها .. فأصبحت الخليلة الأولى .. وافتتح الإليزيه أبوابه ، لتحتل فيه قلب الملك .. والتحكم فى مقاليد الأمور !

ومنح لويس الخامس عشر فاتنته الجديدة لقب « مركيزة دى بمبادور » وبذلك صارت مدام دى بمبادور راعية الأرستقراطية الفرنسية فى عهد التأنق والرفاهية .. وكمظهر من مظاهر الرومانسية الملكية ، فتحت صالونها الفنى لاحتضان فنانى عصرها ومفكريه فى شتى ميادين الإبداع الرفيع .. وتبنت أروع المدارس الفنية فى القرن الثامن عشر تألقا وإبهارا وترفا .. هى المدرسة الفنية العالمية الشهيرة التى عرفت فى التاريخ باسم « الروكوكو » ، وقد اشتق هذا الاسم من الكلمة الفرنسية « روكاى » أى الالتفافات اللينة قوقعية الشكل .. وفعلا ، فهى اسم على مسمى ، يميز إبداعات ذلك العصر بما عرف به من الليونة والدعة والترف السابح فى عالم الأحلام !

... وكان الزوج آخر من يعلم ... فعندما أراد أن يحتج ، أبعد على الفور من باريس ، وحصلت المركيزة على قرار رسمى بالانفصال عنه !..

يقول المؤرخون :

كانت مدام دى بمبادور فاترة المشاعر ، متجمدة الأحاسيس والعواطف ، بخلاف ما كان يدل عليه مظهرها وجمالها الآسر ، ولكن مطامعها لم يكن لها حدود ، وظمأها للمال والسلطة لم يترك لأحد غيرها أية فرصة للمنافسة . ونظرا لاستحواذها على خيوط اللعبة .. فقد كثر حسادها .. فازدادت هى تعنتا وتسلطا إزاء هؤلاء المتربصين بها من الرجال والنساء !..

أما الجانب الآخر من شخصيتها ، فكان رائعا حقا : رعاية الفن والأدب واحتضان المواهب ، وكان أول ما فعلته فى قصر الإليزيه الذى أهداه لها الملك ، أن افتتحت فيه دائرة للتمثيل والموسيقى ، كما أفردت صالوناتها للفنانين وذوى المواهب الإبداعية بكل

أشكالها ونزعاتها ، حتى صارت ملتقى للمبدعين من كافة أنحاء فرنسا وأوروبا ، يجدون عندها التشجيع والإغداق عليهم برضا وكرم وسخاء ..

وبجانب هذه الاهتمامات الوجدانية ، عنيت البمبادور بشئون السياسة وتنظيم العلاقات بين فرنسا وباقى الدول الأخرى ... وكان لويس يصغى إلى آرائها ويعمل بها بكل الإعجاب والاقتناع ! فكان عدوا للنمسا قبل البمبادور ، فأصبح صديقا لها ، بل وتوطدت علاقة فرنسا بالنمسا حتى وصلت إلى حد التحالف القوى بشكل أذهل باقى الدول الأوروبية ، وبالعكس ، كانت فرنسا صديقة لبروسيا .. ولم ترض فاتنة البلاط بهذا التقارب ، فعملت على أن تصبح فرنسا عدوا لبروسيا .. ذلك العداء الذى تفشى واستفحل فى المستقبل .. وهكذا سارت الأمور ...

يعادى لويس أصدقاءه .. أو يصادق أعداءه ، حسب ما تراه الملهمة المتربعة على قلبه وعرشه .. ولكنها غير متوجة !...

دام حكم البمبادور تسعة عشر عاما كاملة .. وعندما أحست أنها بدأت تفقد جاذبيتها فى عين ملكها ، وأن الملك بدأ يبحث عن غيرها ، لم تغضب ، ولم تيأس ولم تحاول المقاومة ، ولم تمت كمدا كما فعلت سابقتها ، ولكنها سايرت الملك فى رغباته ، وغضت نظرها عن علاقاته ، وكان شرطها الوحيد عليه أن تتمتع هى بكامل صلاحياتها ونفوذها ، وليفعل لويس ما يحلو له بعد ذلك !.

... وتحقق لها ما أرادت حتى آخر يوم فى حياتها .. وماتت عن ثلاثة وأربعين عاما فى يوم ١٥ من شهر أبريل عام ١٧٦٤ ...

واليوم ، ونحن نشاهد صورها الرائعة التى أبدعتها أنامل الفنانين العظام فى عصرها ، لنتمثل سويا هذه الفاتنة التى ألقت بإيحاءاتها الملهمة على بصائر الموهوبين من عباقرة القمة ..

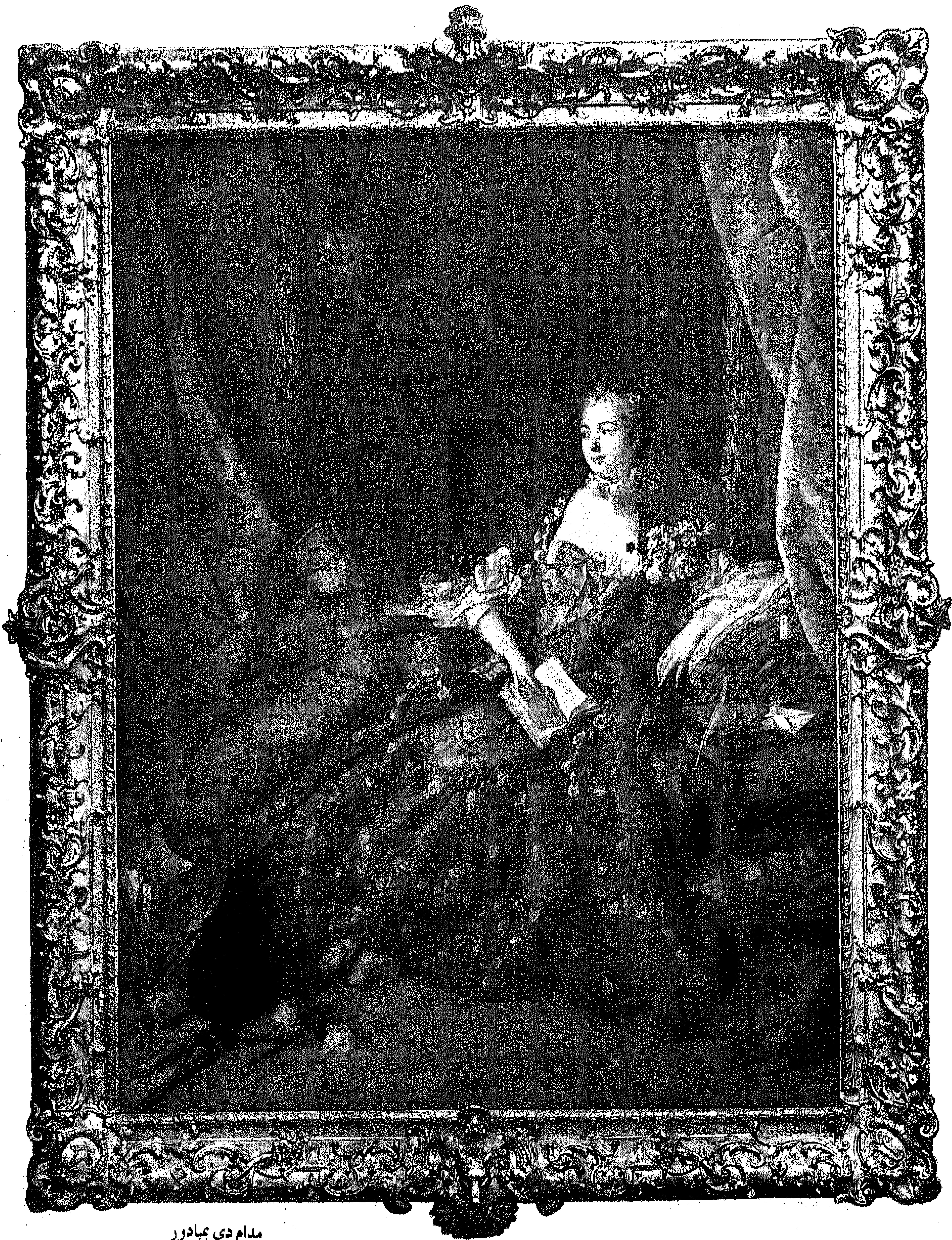
هؤلاء الذين جمعتهم حولها ، تشجع ملكاتهم ، وتزكى قرائحهم المتقدة ، وتفجر طاقاتهم الخلاقة المبدعة ..



البمبادور (وجه بالباستيل للفنان دى لاتور)



مدام دى بومبادور (تزخر متاحف فرنسا بالعديد من صورها التى رسمها فنانو القرن الثامن عشر)



مدام دى بمبادور

خيانة الحريم وعقدة شهريار

لماذا سوء الظن بالنساء ؟ ولماذا يشتط خيال الرواة فيثيرون الغرائز بهذه الأقاصيص الممتعة عن خيانة المرأة ؟

● ● فى العصور الوسطى كان الرجال يرددون دائما أقوالا تجمع على سوء الظن بالنساء .. ومن أشهر ما شاع من تلك الأقوال حينذاك :

استعيذوا بالله من شرارهن ، وكونوا على حذر من خيارهن ..

وعلى أية حال فإن هذا القول لا يخلو من بعض التفاؤل .. فعلى الأقل ينطوى على الاعتراف بأن هناك امرأة خيرة ! وبالتأكيد فإن الخير والشر متلازمان فى الحياة .. ليس فى النساء فقط . بل فى الرجال والأعمال والأقوال وظواهر الطبيعة وفى كل زمان ومكان ..

وقد حسم الحديث الشريف هذه القضية وأقر بأن المرأة الصالحة هى أساس الأسرة القويمة : « الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا الزوجة الصالحة » .. وهذا تسليم بوجود المرأة الصالحة ..

ولما كان الرجل يمثل (بطبيعته وخلقه وتكوينه) الجنس الأقوى ، كان من الطبيعى كذلك أن يكون الرجال قوامين على النساء .. ، بحكم كفالتهم عليهن .. وهكذا نرى أن السيادة (سيادة المسئولية والكفالة والرعاية والحماية) ، تصبح بحكم المعتقدات الدينية .. سيادة بالحق الإلهى : ففى الإسلام : الرجال قوامون على النساء .. وفى المسيحية من قبله : ورد فى رسالة بولس إلى أهل أفسوس : « أيها النساء . اخضعن لرجالكن تخضعن للرب » .

وصورت الكتب المقدسة قصة آدم وحواء أن خلقت حواء من ضلع آدم .. أى أن الرجل هو الأصل .. كما أوضح هذا المعنى قول بولس فى رسالته إلى أهل كورنثيوس :

« إن الرجل لم يخلق من أجل المرأة ، بل المرأة خلقت من أجل الرجل » .. أى أن المساواة بين الزوجين مهما تعددت مظاهرها ، ومهما كانت المرأة (شريكة الحياة) كما نادى بها الفراعنة قبل ظهور الديانات السماوية الكبرى ، فالواقع الحياتى والمادى والعضوى يقول إن المرأة مسئولية الرجل .. تابعة له لاحقه به .. وهو واقع راسخ فى أعماق الرجل ، أيدته المعتقدات الدينية والكتب السماوية ..

وهذه التبعية الأبدية كانت بمثابة الحصانة لسلوك الرجل ، تجعل ما يعاب على النساء من سلوك ، لا يعاب بنفس القدر على الرجال .. وهذا ما سلكه الفلاسفة بعد ذلك من أمثال « نيتشه » الذى ميز فى تقييم الأخلاق بين التابع والمتبوع .. وحتى شاعرنا العربى القديم « المتنبى » يقر هذا المبدأ الطبقى فيقول :

وما فى عزة الأرباب عيب .
وما فى ذلة العبدان عار

ونحن إذا تخطينا العصر الحديث وتوغلنا فى القرون السابقة نجد أن المرأة كانت بالنسبة للرجل غالبا لا تعنى أكثر من متعة جسدية ولا وجود لها خارج البيت .. وحتى فى أكثر البلاد تقدما ، وجدنا أن المرأة لم تجرؤ على المناداة بأن تتساوى بالرجل إلا فى أواخر القرن الماضى ، عندما بشر بذلك لأول مرة الكاتب

المسرحى النرويجى « إبسن » فى مسرحيته « بيت الدمية » ، وتلقف دعوته الكاتب الأيرلندى الساخر برناردشو .. وتوالى بعد ذلك تأسيس الجمعيات النسائية فى أوروبا .. « ولهذا مجال آخر للبحث لنرى كيف أطلق على المرأة التى نالت حريتها وتساوت مع الرجل فى الحقوق والواجبات : المرأة المسترجلة .. وكيف أصيبت بالعقد النفسية عاما بعد عام لضياع مواهبها الأنثوية » ..

وما يهمنى فى هذه المقدمة .. هو أن المرأة التى طبعت على هذه التبعية من قديم الزمان ، نراها وقد عملت بكل طاقتها على توكيد مواهبها الأنثوية — بدافع من ضعفها — لتكون وسيلة فعالة إلى استغلالها لسيدها الرجل لضمان التمتع بحمايته وكفالته .. وهنا كان الجمال والدلال والتأنق والتمنع وسبل الإغراء ونصب الشباك الناعمة .. رأيناه وكأنه سباق تتبارى فيه النساء للاستحواذ على قلوب الرجال ، ولكى تكون لهن الغلبة فى النهاية .. ويحدثنا التاريخ أن فاتنات الجمال وربات القصور وسيدات المجتمع الشهيرات اللائى لعبن بالنار ، فاتخذن من فتنة الأنوثة والشهوة والإغراءات الجسدية وسيلتهن للغلبة والاستحواذ على الرجل ، لم يلبثن أن سرت إليهن العدوى ..

فأصبحن بدورهن فريسة للرجال .. ووقعن فى بئر الغواية ! ومن هذا المنطلق توالت الحكايا والأساطير ..

وهذا هو السر الخفى فى فساد الحريم فى قصور الشرق القديم كما ورد فى كتب التراث فليس عجيبا أن نقرأ قصص ألف ليلة ، وكأنها حلقات فى سلسلة ذهبية جذابة .. تروى بتهويل ومبالغة محببة حكايا الفاتنات الخائنات ومواهبهن الأنثوية المثيرة !

حتى كأنما أراد مؤلفو هذه القصص الشعبية الشهيرة أن تكون المقدمة الشائقة التى يستهل بها كتاب ألف ليلة ، كلمة السر للدخول إلى أجوائها والانغماس فى أحداثها الممتعة ..

وهذه المقدمة التى حظيت فى العالم أجمع بالتقنيم والإعجاب ، جديرة بأن نستعرضها فى عجالة .. لأنها — فى حد ذاتها — قصة جذابة تزخر بوجود المرأة الملهمة المؤثرة التى تزلزل الأرض من تحت أقدام الرجل ، فنراها تارة ترقى به إلى ذرى المجد ، وتارة أخرى تهوى به وبنفسها إلى قاع الحياة !

أحضان العبيد

تقول المقدمة باختصار : كان من بين الملوك ملك عظيم ، بلغ من اتساع ملكه أن امتد حتى اشتمل على بلاد الهند وتجاوزها إلى الصين .. وقيل إن جنوده كانوا كعدد القطر ، وبنوده مرفوعة دائما بالنصر .. وكان لهذا الملك ولدان : الأكبر شهريار ، والأصغر شاه زمان .. فلما وافت الوالد منيته .. صار الملك كله إلى شهريار بمقتضى الشريعة فى تلك الديار .. ولكن شهريار — رعاية منه لأخيه — رأى أن يقطعه إمارة يحكم عليها ، فاختار له مملكة فى أطراف البلاد ، هى مملكة التركمان ، حيث اتخذ قاعدة ملكه فى سمرقند .. ومضت عشر سنوات ، واشتاق شهريار إلى رؤية أخيه ، فأصدر الأمر إلى كبير وزرائه بالسفر إلى بلاد التركمان ليستدعيه ولا يأتى إلا به .. فمضى الركب يجد فى السير ليل نهار ، يجوب الدساكر والقفار .. حتى أدرك مشارف سمرقند .. فلما دخلوا المدينة ورفعت أخبارهم إلى شاه زمان ، خرج الأمير للقائهم بكل الحفاوة والإكرام .. ولما استراح الوزير ، وبطانته من عناء السفر ، أطلع الأمير على مهمته . وطمأنه على أخيه وازدهار الحال فى مملكته .. ففرح شاه زمان مؤكدا أنه لا يقل عنه اشتياقا بل يزيد .. و لم تمض بضعة أيام .. حتى بدأوا طريق العودة وعلى رأسهم الأمير إلى ديار الأخ الكبير .. بعد أن ودع الملك زوجته الحبيبة الفاتنة التى يتغنى دائما بإخلاصها وتفانيها فى حبه والعمل على إسعاده وراحته .. وقبل أن ينتصف الطريق ، تذكر



شاه زمان أنه نسي الهدية التى اختارها لكى يقدمها لأخيه ، فأسرع تحت جنح الظلام بالعودة وحده إلى القصر .. ولم تطاوعه نفسه أن يمر على مخدع الملكة دون أن يقبلها مرة أخرى .. ولكنه ما كاد يفتح الباب فى رفق ، حتى أذهلته المفاجأة : لقد وجد زوجته تضاجع عبدا من عبيد الحريم .. فجمد الأمير مكانه وهو لا يصدق عينيه ، وبعد لحظة استل حسامه وأطاح برأسيهما بضربة واحدة .. الخائن والخائنة ! ..

.... وتطول المقدمة بتفاصيل كثيرة .. وفى النهاية يصل إلى أخيه شهريار ويلقى فى رحابه كل صنوف الكرم والتكريم ، ولكنه لم يستطع أن ينسى زوجته الخائنة فى الليلة المشئومة .. ويصاب بالاكتئاب ، ويقبع فى جناحة بقصر أخيه ولا يريد أن يشاركة رحلاته ونزهاته ، متعللا بوهن صحته ، واعتلال مزاجه .. وخرج شهريار فى رحلة صيد .. وكالعادة ظل شاه زمان فى القصر .. مسهدا لا تغمض له عين من شدة الهم الذى ألم به .. وفكر أن يجلس خلف إحدى النوافذ المطلة على الحديقة ، ليتسلى بمنظر الأشجار والأزهار وتغريد الأطيار .. وبينما كان مستغرقا فى شروده وحزنه خلف النافذة .. ترامى لناظره مشهد غريب : لقد انفتح باب خلفى فى جدار القصر وخرجت منه عشرون جارية حسناء ، وفى وسطهن تخطر أميرتهن السلطانة ، وقد تحلت بأجمل الحلى والثياب .. وما هى إلا لحظات ، حتى رفع الجميع النقاب .. وعلى الفور ، أقبلت عليهن جموع من العبيد ، اختارت كل واحدة منهن عبدا منهم .. وذاب الجميع فى قبلات محمومة وأحضان مجنونة !

أما السلطانة فقد صفقت بيديها ونادت : أقدم يامسعود ! فإذا بعبدها مسعود يسرع إليها ويحتويها بين ذراعيه .. وكان ما كان !

كاد شاه زمان أن يجن من هول مارأى .. ولكنه تمالك نفسه .. وانطبعت ابتسامة ساخرة على شفتيه .. وبعد ساعات من التعجب والتفكير .. ارتدت إليه السكينة .. وساعده التأسى على التعزى ! كما طاب له المنام والشراب والطعام بعد ذلك ..

وعاد السلطان شهريار من رحلته .. فوجد أخاه فى حال طيب .. فحمد الله وسأله عن سر هذا التحول بعد أن أحزنه بأرقه وهمه واكتئابه فى الأيام السابقة .. ولم يجب شاه زمان خشية أن يفلت لسانه بالسر الكبير .. ولكن شهرياز أصر على أن يعرف حقيقة هذا التغيير .. وأمام الإصرار والتصميم لم يجد شاه زمان بدا من الاعتراف بتفاصيل ما رآه بعينيه فى غياب أخيه !

وكذلك تطرق إلى مأساة سمرقند وما كان من زوجته الخائنة التى كان يحبها ويظنها أخلص الزوجات !

قال شهريار مذهولا : لا يمكننى أن أصدق ما تقول حتى أرى .. فقال أخوه . وما أيسر من أن ترى بنفسك ، فما عليك إلا أن تعلن عن خروجك للصيد .. ثم تعود متنكرا، وتقبع خلف نافذتى وعندئذ ستعلم أن كلهن خائنات !

وبالفعل أعلن شهريار عن قيامه برحلة صيد فى يوم حدده .. وصحب معه أخاه ثم ترك الملكان الأخوان معسكر الحاشية خارج المدينة وسلكا طريقا مهجورا وهما فى طريق العودة وحدهما متنكرين حسب الخطة التى اتفقا عليها .. ولما أعياهما التعب والإرهاق أويا إلى شاطئ البحر تحت شجرة من الأشجار ليأخذا قسطا من الراحة .. وإذا هما يتأملان البحر .. انشق الموج فجأة عن جنى عملاق أسود يحمل على رأسه صندوقا له أربعة أقفال .. وبين الذهول والخوف .. شاهدا الجنى وهو يفتح الصندوق . لتخرج منه صبية رائعة الجمال . فاتنة القوام .. أخذ الجنى يدللها ويناجيها .. ويناديها بأشرف الشريفات حتى مال برأسه على فخذها واستغرق فى نوم عميق .. ومن هول الفزع .. تسلق الملكان الشجرة واختبآ بين الأغصان .. وبعد لحظات رفعت الفتاة رأس الجنى ووضعتها بحذر على الأرض .. وانتصبت واقفة تشير


للفنان بريجمان

بإصبعها نحو الأميرين المختبئين وتأمرهما أن ينزلا فامتثلا لها .. فطلبت منهما أن يضاجعاها .. وإلا ايقظت الجنى ليقتلهما شر قتلة !!

وكان لها ما أرادت ! ثم أخرجت الفتاة من صدرها كيسا فتحته وأخرجت منه عقدا من الخواتم .. وأمرت شهريار وشاه زمان بأن يخلعا خاتميهما لتضمهما إلى باقى المجموعة حتى تضبط حساباتها لإحصاء من شاركوها المتعة والخيانة !

وعاد الملكان كل إلى مملكته.وبعدها ، عاش شهريار وقد استولت على تصرفاته وسلوكه عقدة الخيانة .. فكان أول ما فعله عند وصوله إلى قصره أن أمر بضرب عنق زوجته ووصيفاتها .. وكذلك أعناق العبيد والجوارى .. وكل من فى القصر من الرجال والنساء ! ثم ابتن لنفسه بعد ذلك سنة شاذة : وهى أن يأتوا له كل ليلة بفتاة عذراء .. وفى الصباح يسلم عنقها إلى الجلاد .. إمعانا فى الانتقام من النساء !

حتى جاءت إليه شهر زاد .. وكان ما كان من لياليها الملاح،وكل ليلة يدركها الصباح .. فتتوقف عن الكلام المباح .. ويتحرق شهريار شوقا إلى الليلة التالية .. وليلة بعد ليلة .. استطاعت أن تخلص بنات جنسها من حد السيف المتربص بهن وراء الأستار المخملية .. واستحقت بجدارة أن تصبح الزعيمة الأولى للحركة النسائية فى الشرق « شرق ألف ليلة » . وأن ترد اعتبار المستضعفات فى الأرض والمستكينات فى الخدور وفى أروقة القصور وأجنحة الحريم ..

●● إن هذه العوالم المثيرة .. كانت ومازالت معينا لا ينضب من الإيحاءات المبدعة .. والإلهام العبقرى للفنانين على مر العصور !

كنوز التراث

وفاتنات

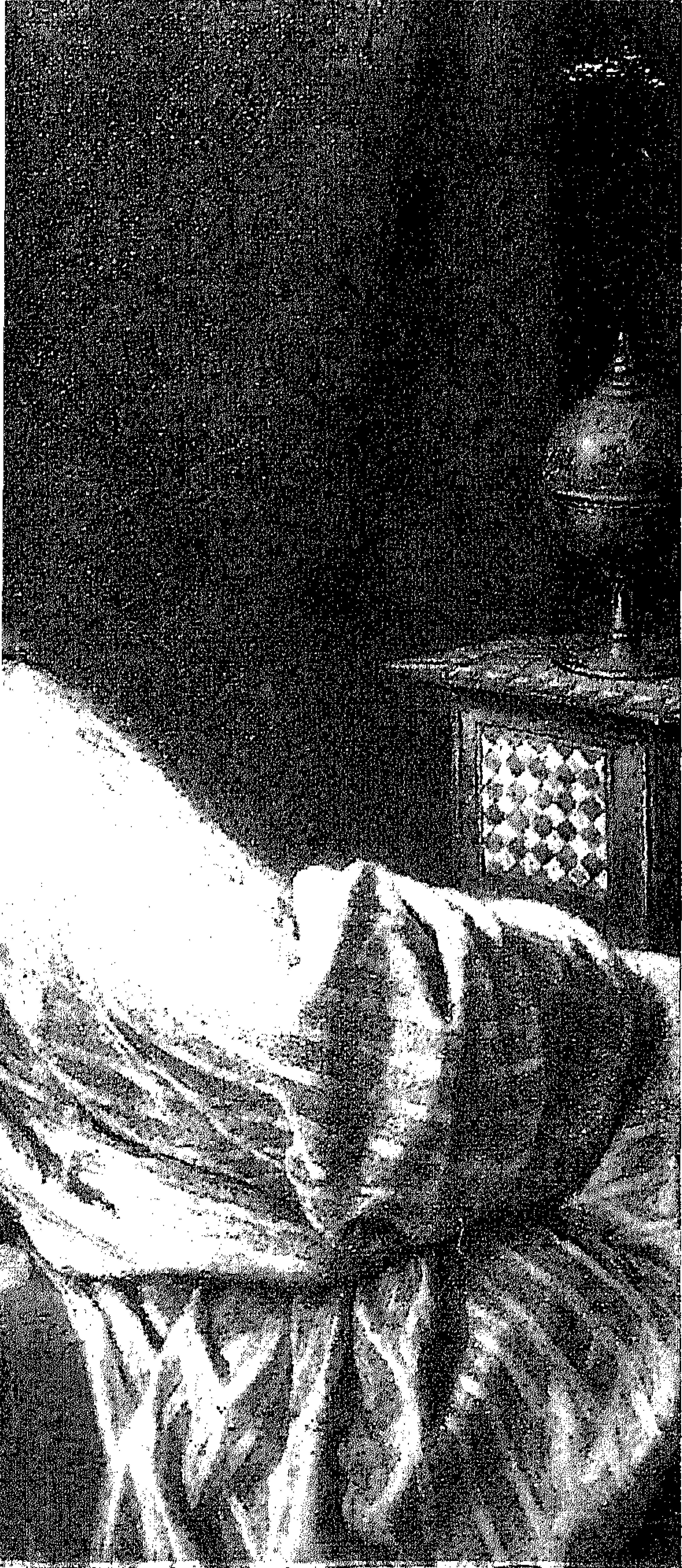
ألف ليلة

● ● تمثلت قصص ألف ليلة فى خواطر المبدعين الغربيين على أنها جزء لا يتجزأ من حياتنا العامة ، وكأنها حقيقة واقعة نحياها — نحن الشرقيين — وتكسو أجواءنا بغلالاتها الأسطورية الشاعرية الغامضة ! فانبهروا بها . وتمثلوها عالما مثيرا تتراقص فيه الأحداث خلف أستارها الوردية فى قاعات المرمر التى تتألق بلون الزهر وبريق الدر وعبق البخور .. وتمايل الجوارى نشوانه بعزف الأوتار وكؤوس الخمر فى ليالى السهر والسمر والرقص والغناء وهمس المحبين !

وتطل شهر زاد . تتهادى فى ثوبها الحريرى الشفاف .. وتأخذ مجلسها على الطنافس المخملية الوثيرة .. لتحكى حكاياتها الممتعة لشهر يار . فتستكين العواطف . وينطلق الخيال الجامح فى رحلة المغامرات والسحر والأحلام !

فلا غرو أن تلهب هذه الأجواء المثيرة مشاعر فنانى العالم الغربى ، ونراهم يرحلون جماعات إلى بلادنا العربية ، منقبين على مكامن الجمال الأسطورى الملهم . تاركين العنان لخيالاتهم المبدعة .. فاختلطت الحقيقة بالخيال ، والأسطورة بالواقع ، وخلفوا لنا تراثا فنيا ذا ملامح واقعية رومانسية ، كأزهى وأجمل ما يحمله الإبداع الراقى من قيم فنية أصيلة !

وكانت « ألف ليلة » مجرد نقطة انطلاق تسلل الفنانون بعدها إلى عوالم شرقية أكثر رحابة وأشمل استيعابا وتفهما لحياتنا ، بعد أن عاشوا بيننا وتآلفوا معنا واندمجوا فى مجتمعاتنا اندماجا تاما أحسوا فيه بنبض الحياة اليومية لشعوبنا وطبيعتنا السمحة الوادعة .. ولكن أجمل ما سيطر على خيالهم وملكاتهم .. هو جمال المراة العربية !



ألف ليلة .. المنشأ والذيوع

وقد ثبت أن مجموعة قصص ألف ليلة وليلة . ترجع فى منشئها بعد اكتمالها إلى القرن التاسع الهجرى . وتلتقى فيها ثلاثة أصول رئيسية :

●● الأولى : حكايات فارسية ممزوجة بعناصر هندية .

●● والثانية : ألفت فى بغداد ما بين القرنين الرابع والسادس الهجرى وهى ذات ملامح عربية خالصة .

●● والثالثة : ألفت فى مصر فيما بين القرنين السابع والثامن ، وهى أروعها جميعا من حيث شطط الخيال وثراء العناصر الدرامية الشائقة .

وفى أوائل القرن الثامن عشر الميلادى تحدث العالم عن هذا الحدث الكبير : لقد نقل أحد المثقفين الفرنسيين وهو « أنطوان جالان » .. قصص ألف ليلة إلى اللغة الفرنسية ، فلاقت ترجمته — وكانت أولى



الترجمات — إقبالا شديدا ونجاحا مذهلا بين القراء الأوروبيين . لما امتازت به من سلاسة وعذوبة ، صاغها « جالان » بلباقة وتصرف وسهولة ممتعة . ولم يكتف بذلك ، بل لقد أسس دارا للنشر ، أوقفت نشاطها على نشر المجموعة تباعا فى « كتب جيب » صغيرة بأسعار زهيدة ، فلاقت رواجا منقطع النظير ، ولم تمض شهور قلائل حتى كانت أوروبا كلها تقرأ « قصص المسيو أنطوان جالان » . مترجمة إلى كثير من اللغات العالمية . وقد أطلق على هذه القصص — آنذاك — « قصص جالان » لأنها فى حقيقة الأمر تعتبر — تجاوزا — من مؤلفاته ! حيث إن مهارته فى رواية القصة ، وإحساسه بذوق القارئ فى ذلك العصر ، قد أضفى على القصص طابعا أوروبيا خاصا يتسم بمهارته وثقافته الشخصية .

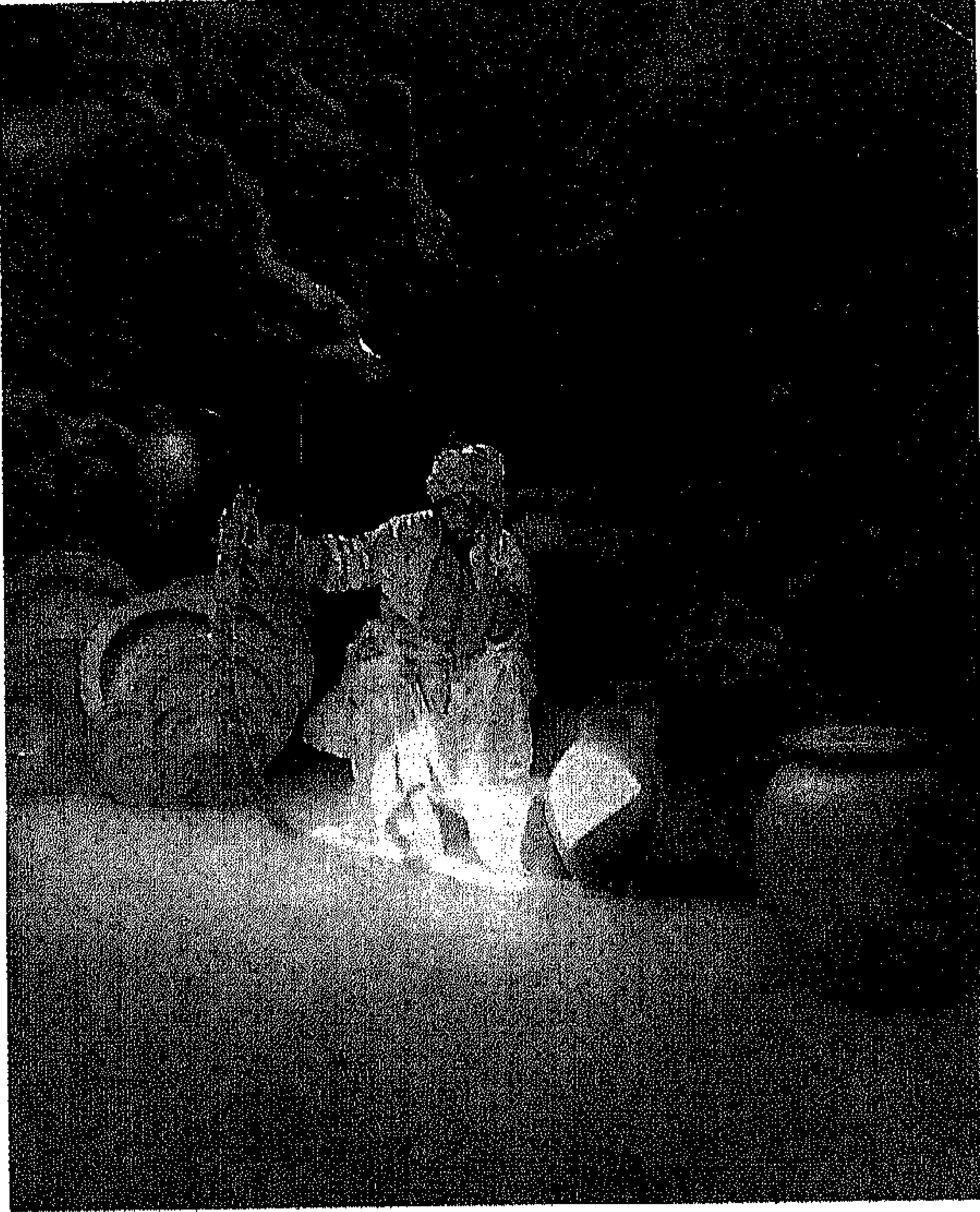
وبالرغم من التزامه بالنص العربى التراثى ، إلا أنه أضاف من مصادر شفهية غير مدونة قصصا جديدة لم تكن ضمن المجموعة العربية الأصلية . فأصبحت هذه الإضافات المستحدثة من أوسع القصص انتشارا .. وحتى نحن — أصحاب التراث — نتداولها دون أن ندرى أنها من وضع جالان ، ولم تكن موجودة أساسا فى النص التراثى القديم ، وهى على سبيل المثال . قصص . « على بابا » و « السندباد » و « علاء الدين والمصباح السحرى » .

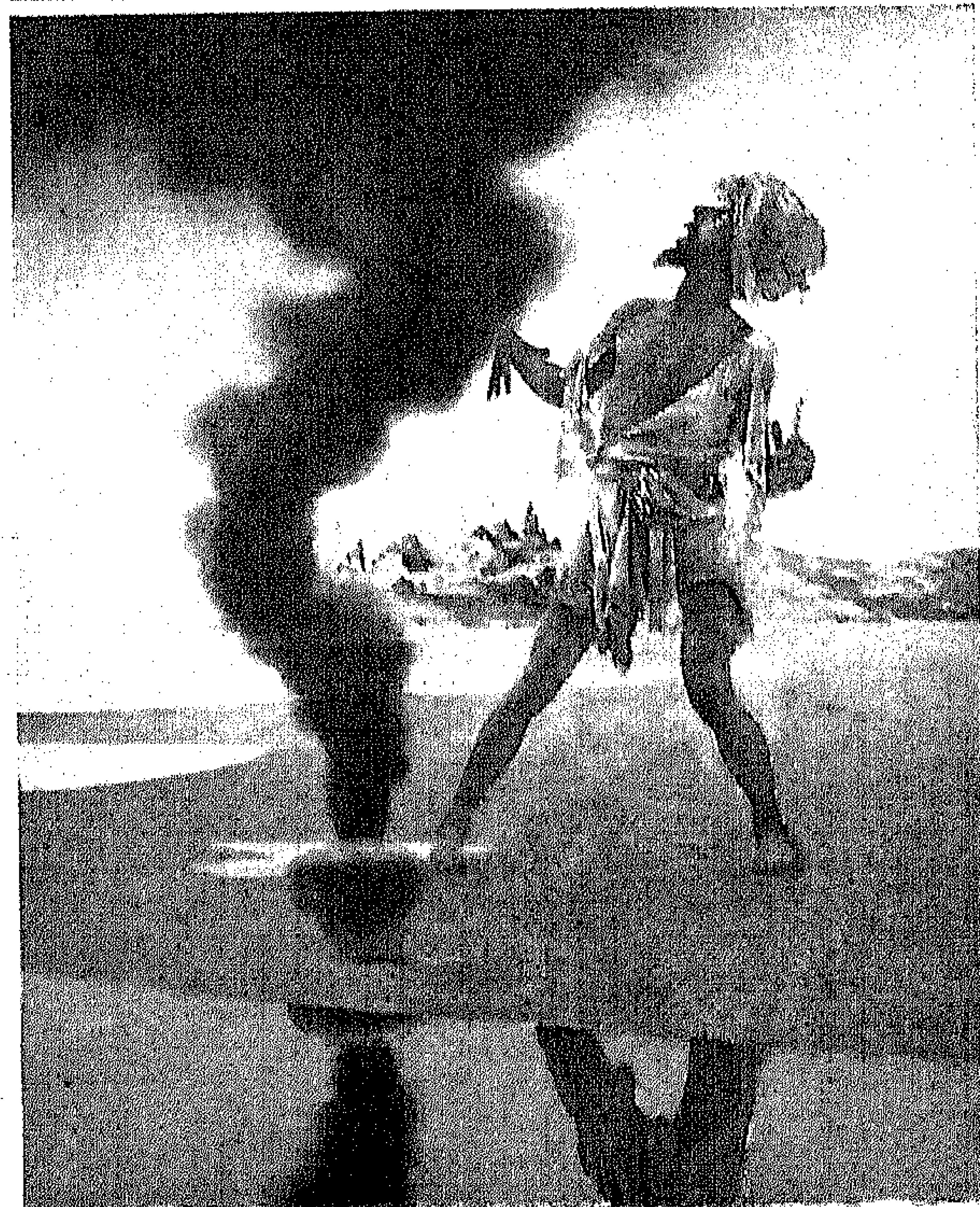
وسرعان ما انتشرت حركة الترجمة إلى أكثر من عشرين لغة عالمية غزت أرجاء المعمورة . ولكن واحدة منها لم تستطع أن تتفوق على ترجمة « أنطوان جالان » من حيث تفردها بمطابقة الأسلوب للمضمون . وبالجاذبية الخاصة للنص الفرنسى .

وأحدثت انقلابا فى الذوق الأدبى

لقد نظر الغربيون إلى قصص ألف ليلة فى البداية على أنها مجرد تسلية تثير الخيال وتبعث المتعة فى نفوسهم .. ولكنها لم تلبث أن أخذت تؤثر فى أسس الفن الروائى وتحدث انقلابا حقيقيا فى مفهوم التراث والذوق الأدبى الأوروبى .

كما أصبحت — وهذا هو الأهم فى موضوعنا — مصدر إلهام لا ينضب لفنانى العالم الغربى ، وانتشرت — تبعا لذلك — ظاهرة افتتان الفنانين بالشرق العربى ، ونشطت حركة الاستشراق الفنى






A Calbet

كمدرسة لها مقوماتها ومضامينها فى تاريخ الفـن مدرسة ذات جماليات واقعية رومانسيـة وإبهارات بصرية .. تبتعد عن المؤثرات الفلسفية والمساجلات النظريـة ومعـارك الملمـوس والمحسوس والرمـز واللاشعور .. ولكنها حركة إبداعية ملتزمة تسجل الواقع بعد أن يضفى عليه الفنان ثوبا رومانسيا يتغنى بالجمال المثالى فى أكمل صوره الطبيعية .

المرأة فى ألف ليلة

والمتتبع لتاريخ الفن الأوروبى ، يجد أن القـرنين الثامن عشر والتاسع عشر كانا بمثابة صحوة الوعى الفكرى ـــ والفنى بصفـة خاصة ـــ عنـد جميـع الشعوب الأوروبية . وقد ظهرت فيهما أجمل النزعات الفنية على الإطلاق .. وكان محور اهتمام الفنانين فى المقام الأول هو التغنى بجمال المرأة .. بل بمثالية الجمال النسوى الذى يسبح فى أطياف شاعرية معطرة ، كما رأينا فى فن « الروكوكو » المترف الذى استأثرت به الطبقات الأرستقراطية الفرنسية .. وبعدها رأينا فن (الكلاسيكية الجديدة) الذى أبدع أيما أبـداع فى تصوير الجمال للمرأة فى قوامها الإغريقى المثالى . وتوالت المدارس الفنية : الواقعية ـــ الرومانيكية ـــ التأثيرية .. وغيرها. وفى تلك الفترة المجيدة ، نشطت حركة الترجمة لقصص ألف ليلة وليلة ، وكانت نداء موحيا لفنانى العالم ، فوجدنا آلاف الفنانين وقـد تعبدوا فى محراب المرأة وإلهاماتها الأنثوية المبدعة ـــ وازدهرت حركة الاستشراق الفنى ـــ كما أسلفنا ـــ مشدودة إلى جمال الشرقية التى حيكت حـولها القصص والأساطير فى كتاب ألف ليلـة .. وسواء أكانت إبداعات هؤلاء الفنانين قد جاءت من وحى الشرق بشموليته الرحبة ، أم لتصويـر الأحـداث الخاصة بطبعات جديدة من ألف ليلة .. إلا أنها جميعا تهتف فى مضمونها بجمال المرأة الشرقية بطلة أحداث هذه القصص المثيرة .. وتبارى العشرات من كبار الفنانين فى رسم الفاتنات من وحى الشرق .. بل ، إننا وجدنا فنانا عالميا كبيرا مثل « رينوار » يرسم فتياته فى أشهر لوحاته وهن بالأزياء العربية . أما الفنـان الأشهر « أنجر » فقد استولت المرأة الشرقيـة على مشاعره .. ورسم مجموعات من لوحاته عن أجنحة الحريم وحمامات الجوارى ومحظيات السلطان .. وغير ذلك من إلهامات المرأة الشرقيـة . ورأينـا رائـد الرومانتيكيـة الفنـان « ديلاكـروا » يهيم بـالمرأة الشرقية . وينزح إلى المغرب العربى ويـرسم أروع لوحاته عن المرأة العربية وهى فى أزهى حللها المطرزة محاطة بأجواء الطنافس والزخارف العربيـة ونـعيم القصور الباذخة ..

ولـو اتسع المجال لأوردنـا المئات مـن الأسماء واللوحات التى تغنت بجمال المرأة الشرقية والأجواء العربية التراثية التى ألهبت قرائح المبدعين ..

● ● وإذا ما تصفحنا كتابا أنيقا من كتب ألف ليلة ، تلك التى تفننت دور الطباعة والنشر العالمية فى صناعتها وصياغتها وإخراجهـا وتزيينها باللوحـات الرائعة .. فلنمعن النظر فى هذه اللوحات وستطالعنا إحـدى الفاتنـات بين الأحـداث والحكايـات ، ولنتذكر ـــ دائما ـــ أنها من بنات الأفكار العبقرية التى ألهمت الفنانين على مر العصور !









شهر زاد للفنان آنج تيسييه (ألوان زيت)

فاتنة الدنيا وحسناء الزمان

بالفتنة فى جسدها ، وبالفطنة فى عينيها ، وبالحلم والطموح فى خيالها ، دخلت كليوباترا معركة الحياة بخطى ثابتة ، وأهداف مرسومة ينيرها بريق لآلئ التاج من فوق جبينها ، وتألق المعارف فى ذهنها . وإذا كان الفنانون على مدى ألفى عام ، قد تناولوها فى إبداعاتهم كأنشودة شجية يترنمون بألحانها العذبة الممتعة .. فما أحرانا بأن نستعرض حكاياتها .. مستعيدين فى وجداننا روائع الآيات الفنية التى خلفها لنا أساطين المبدعين .. تزدان بها متاحف الدنيا فى أطر من ذهب !

● ● فى عام ١٨٦٤ تحدثت المحافل الفنية العالمية عن المعرض الفرعونى (أو معرض كليوباترا) . الذى أقامه آنذاك فنان بريطانيا الأشهر « لورانس ألماتاديما » رائد الفن الفيكتورى الذى ساد إنجلترا فى القرن التاسع عشر .. واحتوى هذا المعرض التاريخى ستاً وعشرين لوحة رائعة . كان بعضها فى حجم الحائط الكبير .. وتناولت كلها موضوعاً واحداً .. هو مصر الفرعونية ، وركزت فى شاعرية حالمة على جمال كليوباترا ومغامراتها الطموحة المثيرة . وحصل تاديما عن معرضه هذا على الميدالية الذهبية العالمية التى لا تمنح إلا للأفذاذ من عباقرة التاريخ . ومن تأثيرات هذا الحدث الفنى الرفيع .. أقبل العلماء والباحثون والدارسون على دراسة تاريخ مصر الفرعونى بشغف وهيام ... وانتشرت الدعوة فى مختلف الأكاديميات الأوروبية لتعليم الهيروغليفية والغوص فى حضارة وادى النيل .. مستعيدين فى أذهانهم أطياف السحر خلف أستار القصور الوردية التى عبقت بأنفاس كليوباترا الفاتنة !

وعندما أقامت الأكاديمية الملكية للفنون حفلاً مهيباً للفنان فى العاصمة البريطانية لتسلم جائزته ، وقف ليقول وسط الجمع الراق من مفكرى أوروبا وعلمائها وفنانيها :

« إن أول شىء يلقن للطفل فى دراسته عن الحضارات الإنسانية الأولى هو الحضارة المصرية القديمة ، بل إننا كلما هممنا بدراسة منابع العلم وجذور المعرفة فى أى مكان فى العالم ، وجدنا أن هذه المنابع وتلك الجذور ، ما هى إلا روافد لنهر النيل العظيم .. وإذا تدارسنا حياة كليوباترا ، وكيف كادت أن تحكم العالم وهى على مقعدها الوثير فى مدينة الإسكندرية .. وجدنا أنها شخصية فذة مميزة .. وقمة سامقة فى مسيرة التاريخ .. وبالنسبة لنا — نحن الفنانين — نجد فى شخصيتها غايتنا المنشودة : الجمال الوثير ، وقوة الشخصية ، وجاذبية الأنوثة الصارخة .. وحكمة القيادة ، ورحابة الثقافات والمعارف الإنسانية .. هذا غير أطياف الغموض والخيال التى تغلف الحياة الفرعونية على ضفاف النيل .. حيث مراكب الشمس الذهبية ونبات البردى وزهور اللوتس وأعمدة المعابد الشاهقة وأسرار الخلود وغوامض الكنوز الدفينة . !

● ● وقلما نجد فناناً مرموقاً من فنانى التاريخ لم يتعرض فى إبداعاته لكليوباترا وحياتها الزاخرة بشتى الإلهامات والإيحاءات التى تثير الخيال وتحرك المشاعر . وفى عصور الرومانسية الفنية واستلهام





هكذا تبارى الفنانون العالميون فى رسم صورتها ..

تاريخ الحضارات والميثولوجيات القديمة ، وجدنا أن شخصية الملكة المصرية الفاتنة ، تحتل مكاناً بارزاً فى أعمال هؤلاء الفنانين العظام ..

قالوا عنها

ومن خلال هذه الروائع نقرأ التاريخ .. ونغوص بين صفحات الكتب والمراجع .. لنقدم المعلومة التى تساعدنا على قراءة اللوحات بذهن متقد وبصيرة متفتحة .

وصفها الشاعر العربى بقوله :

كم غرير بحسنها قال صفها
قلت:أمران هين وشديد
يسهل القول إنها أحسن الأشيـ
ـاء طرا ويصعب التحديد
أهى شىء لا تسأم العين منه
أم لها كل ساعة تجديد ؟!

وقال عنها فنان رومانى قديم :

إن جمال كليوباترا يكمن فى تناسق جسمها ، وطريقة مشيتها ، وتناغم صوتها وكأنها عزف شجى لموسيقى المعبد . أما جمال وجهها ، فهو السحر الذى يلهم الفنان بالأفكار العبقرية !

وقال عنها هوراس :

لقد أجمع كل من رأوها على أنها الفتنة بعينها تكمن فى شخصيتها ، ولم يتفق اثنان على تحديد موضع هذه الفتنة !

ووصفها شاعر يونانى فى عصرها بقوله :

إن سحر كليوباترا ينبعث من « نبرات » عينيها التى تتكلم وهى صامتة !

وقال عنها بلوتارك :

إن جاذبيتها تكمن فى شفتيها . فكل من سمع صوتها وهى تتحدث شعر بنداء الغواية والإغراء ، أما من

رآها فى حركاتها وسكناتها وهى تتمايل فى رشاقة ودلال ، انجذب إليها مسلوب الفؤاد لا يقوى على الحراك !

●● قال لها يوليوس قيصر كلمته المشهورة عندما وقع أسير غرامها :

« كنت أظن أننى أتيت ورأيت وغزوت » ! لأنها فوتت عليه ما كان يرمى إليه . فحققت هذا الحدث بنفسها عندما فاجأته بمغامرتها فاقتحمت مجلسه الخاص وليس معها من سلاح سوى سحر أنوثتها وشخصيتها الأسرة .. فأسرت قلبه من أول لقاء وغزت حواسه ، فكانت هى التى أتت ورأت وغزت !

فمن هى هذه الأنثى التى غيرت وجه التاريخ ؟ .

الاسم : كليوباترا . وألقابها كثيرة : ملكة مصر ، فاتنة الدنيا ، رقطاء النيل ، حسناء الزمان ، قاهرة الأباطرة والقياصرة ، ذات الأنف الذى لو قصر طولا لتغير وجه العالم (قال هذه العبارة الشهيرة الفيلسوف باسكال) .

... إلى غير ذلك من التعريفات والنعوت والأوصاف .

●● حمل اسمها من قبل ست أميرات من أسرة البطالسة فى مصر ، منذ أن دخلها الإسكندر المقدونى عام ٣٢٣ قبل الميلاد واستمرت فى حكم البلاد حتى عام ٣٠ ق . م . إلا أن هؤلاء الأميرات الست لم يكتب لواحدة منهن أن تخط سطراً واحداً فى تاريخ مصر .. ولكن السابعة ــ فاتنة الدنيا وحسناء الزمان ــ توجت ملكة على عرش مصر ، وبنهاية حكمها ، انتهى حكم أسرة البطالسة .

يتألف اسمها اليونانى من مقطعين (كليو) معناه : فخر . و (بترا) ومعناه : وطن ، أى أن اسمها فخر الوطن .

أما ألقابها التى ذكرناها ، فلكل منها مبرراته وتعريفه فى التاريخ :

● ملكة مصر : تؤكده الوثائق الرسمية ، فهى ابنة بطليموس الحادى عشر التى تربعت على عرش مصر .

● فاتنة الدنيا وحسناء الزمان : فهى صفة جرى بها كل لسان عرف سيرتها وحظها فى الجمع بين الجمال الأنثوى المثير والدهاء والذكاء وسعة المدارك والجاذبية .

● أما « رقطاء النيل » . فقد أطلق عليها هذه الصفة أعداؤها من الرومان بعد أن استحوذت على زعيمين من قادتهم ، ونفثت فيهما سموم سحرها فأحالتهما إلى أسيرين فى غرامها وفتنتها التى لا تقاوم .

● ونأتى إلى (طول أنفها) .. فقد جاء هذه الوصف ضمن أقوال (باسكال) فى القرن السابع عشر حينما لم يجد ما يشين جمالها الأخاذ إلا استقامة أنفها المائل إلى الطول قليلا !

وهكذا . فإن الاسم وما تبعه من صفات على ألسنة الفلاسفة والفنانين والشعراء ، جعل من كليوباترا معزوفة يترنم بها المبدعون على مر القرون !

التاج والمراهقة

كان والدها بطليموس الحادى عشر .. ملكاً ضعيف الشخصية . محدود الوعى والطموح .. منغمسًا فى ملذاته . يخالط الرقيق ويستهوى الغوانى . ويلذ له أن يعزف لهن على مزماره كأحد أبناء الرعاة .. حتى لقبه الشعب « بالزمار » .. وانتهى به المطاف إلى أن يفر من غضبة شعب مصر إلى سادته فى روما .. تاركاً وراءه ذرية من بنين وبنات يمزقهم الوهن والانقسام .. وكانت مصر مشدودة إلى ركاب روما .. حيث كانت الإمبراطورية الرومانية سيدة العالم آنذاك .

وانتقل التاج تلقائياً إلى ابنة بطليموس الكبرى .. التى سرعان ما هوى التاج من فوق رأسها ليستقر على جبين أختها الثانية .. كليوباترا .. وكانت الفاتنة الصغيرة فى السابعة عشرة من عمرها .. صبية نافذة





العينين ، يعلو محياها جمال وجاذبية وتدب فى جسدها أنوثة شهية مبكرة . وعندما صارت ملكة على مصر وهى على أعتاب الشباب .. وضعتها روما تحت وصايتها شريطة أن تتزوج من شقيقها بطليموس الثانى عشر الذى يصغرها بسنوات ! فكيف بهذه الصبية أن تتزوج طفلاً فى التاسعة ؟

بين لآلىء التاج وأنياب الأفعى

●● لم تقتنع الفاتنة المتفتحة لمباهج الدنيا بهذا الشقيق الطفل زوجا لها فأخذت تماطل فى تنفيذ الوثيقة الرومانية يوما بعد يوم ، كما زادها بريق التاج وسلطان الحكم جمالا وجاذبية فوجدها الكهنة والمستشارون فرصة سانحة لكى يلتفوا حول الزوج الطفل .. يوغرون صدره ضد الملكة التى اعتلت عرش مصر بوثيقة زواج لم تنفذ ! وتمادت كليوباترا فى استهانتها بأخيها الطفل الغرير .. واتخذت منه موقف الاستهانة والازدراء ! وسرعان ماتحولت القطيعة إلى صدام مسلح ، وألقت عصابة الزوج فى روع الشعب أن كليوباترا شابة مراهقة تمنح وفود روما من جسدها ماتضن به على زوجها الشرعى . واحتدم الصراع والاقتتال . وفضلت الملكة أن تهرب مع نفر قليل من أتباعها إلى شواطئ البحر الأحمر بعيدا عن الإسكندرية .. وتتحين الفرصة لتأديب الأخ الزوج الذى غلبت عليه رعونة الطفولة وطيش الصغار .. وكانت تصرفاته تنفيذا لمؤامرات الملتفين حوله من المغامرين والمستغلين والطامعين .. واستمرت المناوشات بين الفريقين فى غيبة من رقابة روما وقادتها الذين شغلتهم نزاعاتهم وحروبهم عن الأحداث فى مصر . وانتهى صراع السلطة الرومانية لصالح يوليوس قيصر . الذى بادر إلى الذهاب لمصر معلنا أنه ما جاء إلا ليضع حدا للنزاع بين كليوباترا وبطليموس بالطرق السلمية غير منحاز لأى منهما. وهنا وجدها الزوج المحروم فرصة لإعلان ولائه الكامل

عما قريب بعرش الإمبراطورية كلها للقيصر الصغير .. فعمل أوكتافيو « أو أوكتافيوس » جاهدا لتعبئة الشعور العام فى روما وحث قواتها لمحاربة أنطونيو قبل أن تؤول الإمبراطورية كلها لكليوبترا وابنها وزوجها الهائم بسحر الشرق على أرض الفراعنة ! وكان لابد من معركة فاصلة تحيل الحقد إلى لقيادة قيصر .. وعمل قدر طاقته على تملقه والتقرب إليه . ولم يكن أمام كليوباترا إلا أن تلجأ إلى الحيلة وسلطان الجمال وسحر الأنوثة والجاذبية . ولا سيما وقد عرفت عن قيصر أنه زير نساء ولا يستسلم إلا لهذه الشراك الناعمة . وخط التاريخ بين صفحاته حلقات تلك العلاقة القوية بين قائد الإمبراطورية الرومانية وحسناء الزمان ! لقد وقع فى غرامها بعد أحداث وأحداث لا يتسع المجال لسرد وقائعها ، وكان لا بد لقيصر من أن يثبت التاج فوق رأسها.. وأسقط فى يد زوجها المراهق بطليموس بعد أن تكشفت أمامه الحقائق المريرة ، فأعلن عصيانه على سلطة قيصر كما أعلن عليه وعلى كليوباترا حربا لاهوادة فيها . ولم يسع يوليوس قيصر إلا أن يتزوج من فاتنته وينجب منها طفلا جميلا سماه قيصر أيضا .. وما هى إلا جولات معدودة ، حتى صرع خصمه وخصمها .. بطليموس ، وهكذا انفردت هى بحكم مصر .. كما غيرت وجه التاريخ فى إحدى مراحله الحاسمة .

وأخذت كليوباترا تخطط لطموحاتها القادمة .. واستطاعت أن تقنع زوجها قيصر بأن يقتسم الإثنان حكم مصر وروما والعالم كله ، وأن يرث ابنهما الإمبراطورية من بعدهما .

ولكن الأمور سارت على غير ماتشتهى .. عندما اغتيل يوليوس قيصر على يد مناوئيه فى روما .. وتم تقسيم الإمبراطورية إلى شرق وغرب . وكان الشرق — بما فيه مصر — من نصيب أنطونيو ، وكان طبيعيا أن تصبح كليوباترا تحت سلطة السيد الجديد .. أنطونيو .. ولتفتح صفحة جديدة عن علاقة الملكة الفاتنة والقائد الجديد .. لتبدأ قصة أكثر إثارة تغير وجها آخر من وجوه التاريخ .

اللقاء

على سفينة فرعونية ذهبية مترفة ، أبحرت من الشواطئ المصرية .. وشراعها الأرجوانى يتهادى على صفحة الماء فى عرض البحر الأبيض المتوسط الذى يخضع بكل شواطئه وموانئه لسلطة روما . أبحرت كليوباترا للقاء أنطونيو على سواحل الشام .. وقفلت عائدة به إلى الإسكندرية وأعاد التاريخ نفسه ، بعد أن نضجت الملكة الفاتنة .. وعلمتها التجارب والأحداث من دروسها الكثير .. فها هو ذا سيد روما بيين يديها .. ومن السهولة أن تسيره كما تهوى وبما يتفق مع طموحاتها التى لاتحدها حدود ! وسار أنطونيو مترسما خطى سلفه قيصر .. وفعل كما فعل تماما .. لقد هام بحبها .. ثم تزوجها .. وصار مجنونا بها يخطط مايتراءى لها وماتشير به عليه . حتى إنه تخلى عن عزمه على غزو بلاد الفرس حتى يظل بجانب كليوباترا فى الإسكندرية .

ودارت الدائرة

وأسرعت عجلة التاريخ فى دورانها الدرامى .. وللمرة الأخيرة . تقف كليوباترا أمام الأحداث المأساوية الجسام .. لقد تعقدت الأمور فى روما .. فهذا هو « أوكتافيو » الذى يتربع على عرش روما — وقد نصب نفسه ابنا لقيصر بالتبنى — يناصب أنطونيو العداء . ويتفجر حقدا عليه .. فهو الوصى الشرعى على ابن قيصر من كليوباترا بتكليف من مجلس الشيوخ الرومانى .. وفى نفس الوقت ، يهيم حبا بزوجته الفاتنة ملكة مصر . وبالتالى سيطالب

وأبحرت على سفينتها الذهبية للقاء أنطونيو



نار تحرق أحد المعسكرين .. وفى موقعة « أكتيوم » بجنوب اليونان ، التقت الأساطيل المتحاربة للفريقين .. فريق الشرق وعلى رأسه أنطونيو وكليوباترا . وفريق الغرب بقيادة أوكتافيوس ..

وكانت الغلبة لمحاربى روما .. ولما أيقنت كليوباترا من هزيمة زوجها . انسلت بما بقى من أسطولها راجعة إلى الإسكندرية ! وجاءتها الأنباء الصاعقة عقب عودتها : لقد هرب زوجها وآثر أن ينتحر بسيفه الذى

أغمده فى صدره !! ولم يمهلها أوكتافيوس كى تلتقط أنفاسها .. لقد زحف بجيشة إلى سيناء فى طريقة إلى العاصمة « الإسكندرية » وأقسم على أن يوقع كليوباترا أسيرة يقودها إلى روما فى سلاسل من ذهب . بل صمم على أن تسير ضمن السبايا فى موكب انتصاره فى روما !

● ● ملكة مصر التى أوشكت على أن تحكم العالم بجوار زوجها أنطونيو .. فاتنة الدنيا وحسناء الزمان .. سليلة الملوك ، وريثة أمجاد الفراعنة العظام ، زوجة قائد الإمبراطورية التى سيطرت على أرجاء المعمورة يوليوس قيصر ، وأم ابنه قيصر الصغير المطالب بعرش روما ، وأسطورة الشموخ والذكاء والجمال والكبرياء .. تتوجس خيفة وترتعد فرقا وهى تتخيل نفسها أسيرة أوكتافيوس يسوقها فى ذلة وانكسار إلى روما !

وبعد أن اعتصرت قلبها هذه الصورة القاتمة الكئيبة .. عقدت العزم على شىء رهيب مروع : استرخت فوق مخدعها الذهبى الوثير .. وعلى أنغام الموسيقى الجنائزية الحزينة .. أمرت وصيفاتها بإحضار صندوق أفعى الكوبرا وأخرجتها فى غير تردد ولا وجل .. واسلمت جسدها المرمرى لأنياب الحية السامة وكانت لدغة النهاية .. انتهى معها حلم البطالسة فى مصر الذى بدأ بالإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق . م . وطويت صفحته فى السابع عشر من أغسطس عام ٣٠ قبل الميلاد .

وكانت كليوباترا قد أرسلت فى ١٢ أغسطس عام ٣٠ ق .م . خطابا مغلقا إلى أوكتافيوس . فلما فتحه ، وجده بمثابة وصية ترجوه تنفيذها . وكان أهم ماجاء فيها هو طلبها بأن تدفن بعد موتها بجوار مارك أنطونيو . وبمجرد أن فتح أوكتافيوس خطاب كليوباترا وقرأ وصيتها . أسرع فى إرسال رجاله إليها ليأتوه بأخبارها .

وما أن اقتحموا قصرها حتى وجدوها مستلقية . تحتضر على أريكتها الملكية المذهبة .. وكانت لم تزل بين الموت والحياة فى النزع الأخير .. فصاح أحد



الرجال مذعورا :

— كيف يحدث هذا لملكة عظيمة مثلك يا سيدتى ؟

فغمغمت بكلمات ناعسة تذوب حروفها على شفتيها الساحرتين :

— بل إن هذا ما يجب أن يحدث . وما يليق بكليوباترا فاتنة الدنيا وسليلة الأمجاد المصرية العريقة !

... وقد أمر أوكتافيوس بأن تدفن إلى جوار أنطونيو كما أرادت ! وهكذا قضت نحبها وهى فى ريعان شبابها فى التاسعة والثلاثين من عمرها !

وإذا كانت قصة الأفعى .. وكيف انتحرت كليوباترا بسمها الزعاف .. هى التى تثير خيال الفنانين والمؤرخين .. إلا أن أحدا لا يوقن الطريقة التى قتلت بها الملكة الفاتنة على وجه التحديد حتى الآن ..

وقد تضاربت أقوال المؤرخين حتى أضحت ضربا من التخمين والاجتهادات الشخصية .. فيقول « سترابو » إنها انتحرت بدهان جسدها بالسم .. ويقول « بلوتارخ » . لم يكن بجسم كليوباترا أية جروح خلفتها عضة الحية المزعومة .

وعند « فرجيل » لم تكن حية واحدة بل اثنتين . وعند « هوراس » كانت عدة حيات أدخلت إليها داخل باقة من الزهور !

وستظل قصة كليوباترا ملهمة للفنانين مهما تراكمت فوقها قرون الزمان .. ومهما تضاربت حولها أقوال المؤرخين والرواة والمبدعين .

الفارسة الحسناء .. الإمبراطورة أوجينى

إلى مصر .. أتت حسناء باريس وهى فى الثالثة والأربعين ، وكانت لم تزل ساحرة الحسن والجمال ، خلابة الفتنة ، رائعة القوام .. وكأنها لم تبلغ الثلاثين بعد من عمرها !

أتت إلينا بين مظاهر الأبهة الملكية الباذخة ، وعاشت ليالى أسطورية تنهل بين أضوائها المتلألئة وسهراتها المترفة من متع الحياة ما يتضاءل بجانبها مهرجانات ألف ليلة وليلة وعوالمها الحالمة !

تلك كانت غادة القصر الفرنسى .. الإمبراطورة أوجينى ، زوجة نابليون الثالث إمبراطور فرنسا .. والتى حضرت إلى مصر ، رئيسة للاحتفال الغارق فى السرف والترف والبذخ والخيلاء ، أقامه الخديوى إسماعيل عام ١٨٦٩ بمناسبة افتتاح قناة السويس .

وعندما دخلت أوجينى تتهادى بين الوصيفات والنبلاء ساحة الاحتفال للمرة الأولى .. ذهلت من فرط الروعة والإثارة .. وأخذت تصيح فيمن حولها : ما هذا ؟ .. أهو حلم أم حقيقة ؟ إننى لم أر أفخم ولا أجمل من هذا الحفل فى حياتى !

وكثيرا ما كانت تمتطى ظهر جوادها العربى المطهم ، وتنطلق إلى قصر الخديوى فى مدينة الإسماعيلية على شاطئ القناة ، ويستقبلها إسماعيل مفتونا بها إلى درجة الهيام ، مبالغا فى الاحتفاء بها مبالغة أعادت إلى مخيلتها فاتنات ألف ليلة وما كانت تنعم به ملكات مصر الفرعونية على ضفاف النهر الخالد .

وكانت تلك الاحتفالات فرصة لأنظار العالم .. ولقرائح الفنانين ، وعقول المفكرين والمؤرخين والمبدعين . لكى يتسابقوا فى تناول شخصية الإمبراطورة الفاتنة .. غادة باريس التى تدير أمور الدولة الأوربية بسلطان جمالها وجاذبيتها الطاغية !

.... وتدور الأيام بأهوائها وأنوائها وطفراتها وعثراتها .. وتتوالى الأحداث الجسام المروعة .. وتأتى أوجينى مرة أخرى إلى ديارنا فى مطلع هذا القرن (عام ١٩٠٥) وهى تخطو نحو الثمانين من عمرها .. بعد أن تخلى عنها المجد والتاج والشباب ، سعت إلى مصر مرة ثانية لتتنسم عبير الذكريات .. وترنو إلى الماضى تستعيد ذكرياتها فى ليالى الإسماعيلية .. ولكن زيارة الشيخوخة هذه كانت جافة موحشة كأوراق الخريف .

وشتان ما بين عام ١٨٦٩ ، يوم أن كانت الإمبراطورة الفاتنة محط أنظار العالم المفتون بجمالها وشخصيتها الفذة الآسرة ، وعام ١٩٠٥ ، يوم أن نزلت متنكرة فى فندق « سافوى » ببورسعيد كأى غريب يفد إلى المدينة دون إخطار أو إعلام ولا يعيره أحد أى اهتمام !

وعلم بوجودها الصحفيون والشعراء فى مصر .. فاجتمعوا .. واقترح عليهم الشيخ على يوسف أن يستلهموا هذا الحدث الدرامى اللاذع ، ويقارنوا بين الربيع اليانع والخريف الشاحب الواهن .. بين فاتنة العصر وطريدة الديار .. فهى فى كلتا الحالتين ملهمة للفنانين ومثيرة للخيال والقرائح .

فنظم شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدة جاء فيها :

أين يوم القنال ياربة التاج
ويا شمس ذلك المهرجان
إن أطافت بك الخطوب فهذى
سنة الكون من قديم الزمان
تلك حال الإيوان ياربة التاج
فما حال صاحب الإيوان !



قد طواه الردى ولو كان حيا
لمشى فى ركابك الثقلان
إن يكن غاب عن جبينك تاج
كان بالغرب أشرف التيجان
فلقد زانك المشيب بتاج
لايدانيه فى الجلال مدان
كنت بالأمس ضيفة عند ملك
فانزلى اليوم : ضيفة فى خان
واعذرينا على القصور كلانا
غيرته طوارئ الحدثان !

●● أوجينى .. الإمبراطور نابليون الثالث .. الخديوى إسماعيل .. الملكة فيكتوريا ملكة إنجلترا .. كلها أسماء كبيرة استقرت فى صفحات التاريخ وقاعات المتاحف ومجمعات التراث وعقول المفكرين وقرائح المبدعين ..

فلنستعرض معا قصة الإمبراطورة الفاتنة اللعوب الحسناء ، لتكون هى دائرة الضوء التى تلقى بإشعاعاتها على باقى الأسماء والأحداث .

المنشأ والجمال المبكر

لم تكن فرنسية الأصل ، فهى ابنة الكونت الأسبانى « دون سبريانو جوزمان » ولدت فى مدينة غرناطة عام ١٨٢٦ . قضت أوجينى طفولتها فى إسبانيا ثم انتقلت مع أمها وأختها إلى فرنسا وهى فى الثامنة من عمرها .

وكانت العائلة تتحدث فى حياتها اليومية بلغات ثلاث : الأسبانية لغة الأب ، والإنجليزية لغة الأم (فهى ابنة رجل اسكتلندى تجنس بالجنسية الأمريكية وعمل قنصلا أمريكيا فى مدينة ملقه الأسبانية) .

والفرنسية لغة البلد الذى هاجروا إليه وتلقت فيه أوجينى تعليمها .

وهكذا حرصت أوجينى على إجادة اللغات الثلاث بجانب الثقافات والمعارف الأخرى ، وكأى عائلة أرستقراطية نبيلة تعلمت الفروسية وفن الرسم وعزف الموسيقى .

●● وفى أحد أيام شهر نوفمبر من عام ١٨٥٢ ، دعيت العائلة إلى حفل فى مدينة فوتينبلو يحضره الإمبراطور نابليون الثالث ورجال الدولة



ووجهاؤها .

وفوجىء الحاضرون بفارسة رائعة الجمال تتهادى فوق جوادها الرشيق بمهارة استولت على أنظار الحضور واستحوذت على إعجابهم . ومن مقصورته الذهبية همس الإمبراطور إلى مستشاريه بأن يأتوه بمعلومات ضافية عن هذه الفارسة الحسناء .

ولاحظت الحاشية أن اهتمام نابليون بهذه الفارسة الفاتنة أخذ يزداد يوما بعد يوم .. وتحول التفكير فيها إلى تعارف بينهما .. ثم إلى لقاءات سامرة وحفلات ساهرة .. ثم اشتعلت جذوة الحب فى قلبيهما ، فتم زواجهما التاريخى فى شهر يناير من عام ١٨٥٣ .. فى حفل أسطورى رائع لم تشهد فرنسا مثيلا له من قبل ..

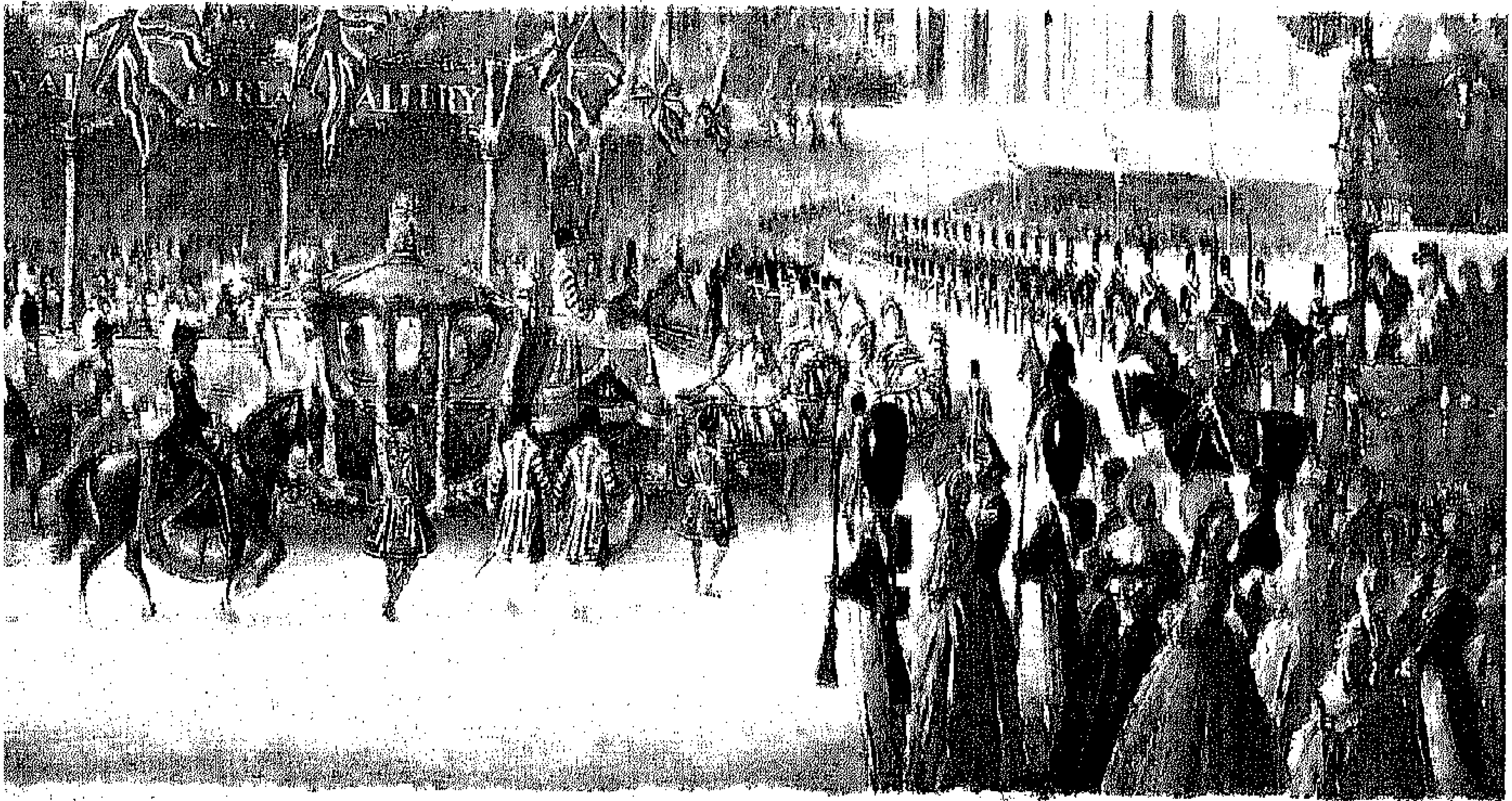
وأصبحت أوجينى إمبراطورة تتربع على عرش فرنسا وتقيم فى قصر الحكم وهو « قصر التويلرى » الشهير !

وهاهي ذى سيدة القصر الجديدة تحيط نفسها بمظاهر الأرستقراطية المترفة التى عرف بها البلاط الفرنسى ، وتحولت مراسم الفنانين العظام إلى خلايا دائبة النشاط والتفاعل والانفعال تستلهم سحر الفتنة فى شخصية الإمبراطورة الحسناء ..

..... وأفاق الشعب الفرنسى من هذه المفاجاة المبهرة المتعجلة ..

وتضاربت المشاعر نحو الإمبراطورة فالبعض يحبذ هذا الزواج لأن الإمبراطور قد تزوج امرأة أحبها .. وهذا يكفى . أما البعض الآخر — وهم العقلانيون وفلاسفة السياسة — يرى أن الواجب كان يفرض على الإمبراطور أن يختار زواجا سياسيا يقوى به مركز فرنسا بين جيرانها .

وتنبهت أوجينى إلى ضعف مكانتها بين بيوت الحكم العريقة فى أوربا .. وكان عليها أن تتصرف .. وهى لا تملك إلا أسلحتها الأنثوية وشراكها الناعمة ..





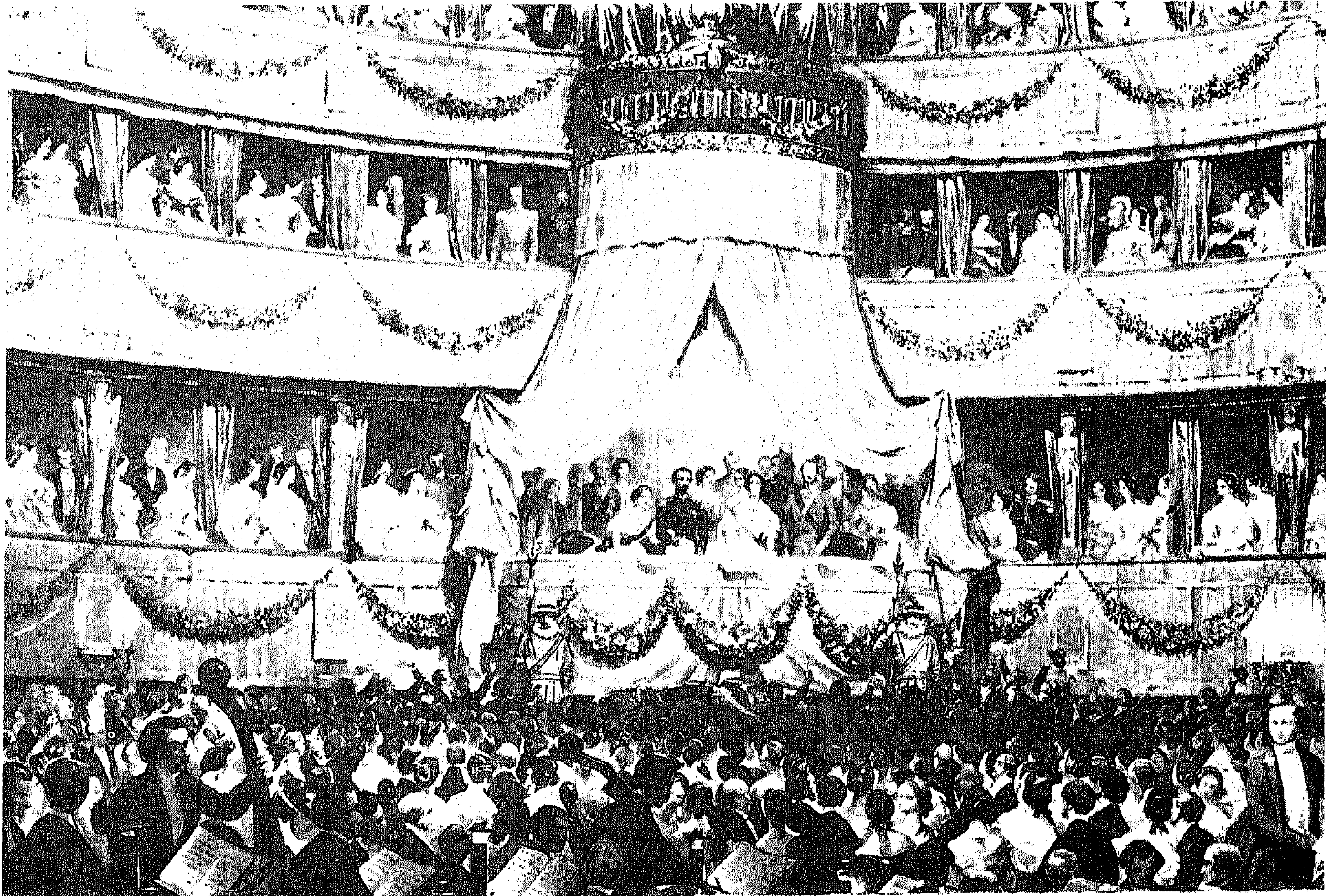
عندما تفيض الكأس وتنطلق النزوات

●● ومهما اختلفت الآراء حول بطلتنا الحسناء ، فقد تربعت على عرش الإمبراطورية إلى جانب نابليون الثالث.. وأثبتت الأيام أنها جديرة بأن تحيل المعارضين والحاسدين إلى مسحورين بجمالها يهتفون بجاذبيتها وشخصيتها الفذة الرائعة..

ونظرت الفاتنة حولها.. فأحست بالأعاصير والغيوم تملأ أفق الحياة السياسية وتكاد أن تعم أوروبا كلها.. فأعدت نفسها لمجابهة كل ما توقعته من متاعب وعقبات.. وكما نعلم فقد كان العداء مستحكما بين فرنسا وإنجلترا ، فأقدمت أوجينى على خطوة جريئة وجعلت نابليون يمحو كل أثر لهذا العداء التقليدى القديم ، بل ويذهب ألى أبعد من ذلك فيقيم تحالفا بين الدولتين.. وبذلك تغيرت موازين القوى فى أوروبا كلها.. ولكى توطد عرى الصداقة بينهما ، قامت عام ١٨٥٥ بزيارة إنجلترا مع الإمبراطور ، ضيوفا على الملكة فيكتوريا التى بالغت وزوجها (ألبرت) فى الاحتفاء بهما.. وأقاما لهما احتفالات أسطورية تحدث عنها العالم أجمع آنذاك.. ولم تمض مدة وجيزة ، حتى ردت فيكتوريا لهما الزيارة فى باريس.. لتزداد الصداقة رسوخا عند الشعبين الإنجليزى والفرنسى.. وبالفعل ، كان العالم وقتها لا حديث له إلا عن أعداء الأمس الألداء وكيف أصبحوا اليوم أوفى الأصدقاء!! ويشاء القدر أن تكون هذه الصداقة المتينة بين الأمبراطورة أوجينى والملكة فيكتوريا بمثابة حصن الأمان لأوجينى عندما دارت الدائرة عليها كما سنرى بعد قليل..

نعود إلى فاتنة القصر الفرنسى.. فنرى أنها قد ثبتت قدميها راسخة على عرش الإمبراطورية فى يوم ١٦ مارس ١٨٥٦ ، إذ وضعت ابنا أطلق عليه لقب (الأمير الإمبراطورى) ، كما لُقِّب كذلك (ابن فرنسا) . وبالرغم من الشعبية التى حظيت بها فى

فى مساء ١٩ إبريل ١٨٥٥ ــ الحفل الفخم الذى أقامته الملكة فيكتوريا للأمبراطورة أوجينى وزوجها نابليون الثالث فى دار الأوبرا الملكية بلندن بعد عرض أوبرا فيدليو





المجتمع الفرنسي ، إلا أن جمالها وهيمنتها قد جعلاها موضع حسد ، فصارت نهبا للطامعين فى الحكم والحاقدين على القصر والمتربصين بالأسرة الحاكمة!

وآتت هذه الأحقاد ثمارها المسمومة.. فقامت فى البلاد حركات مناهضة للإمبراطورة الحسناء وزوجها المفتون بجمالها..

وتحركت الأحقاد..

وحدث أن كانا يستقلان عربتهما الإمبراطورية فى طريقهما إلى دار الأوبرا فى ليلة من ليالى شهر يناير من عام ١٨٥٨ ، ففوجئا بهجوم عليها بالمفرقعات الحارقة.. إذ ألقيت على عربتهما ثلاث قنابل بقصد اغتيالهما ، ولكنها انفجرت تحت عجلات المركبة وذهبت بأرواح عدد من الحراس وأفراد الحاشية .. وقد وقف الإمبراطور فى البرلمان فى اليوم التالى يقول : «أشكر الله الذى منح الإمبراطورة ومنحني حمايته ورعايته ، وإن كنت فى حزن شديد لأن المؤامرة التى قصد بها اغتيال اثنين ، انتهت بإزهاق أرواح كثيرة من الأبرياء!!!

«إن هذه الوسائل الوضيعة تدل على ضعف وحقارة مدبريها ، ولو راجعوا التاريخ لوجدوا أن الجريمة لا تفيد مرتكبيها ، فلا من قتلوا قيصر ، ولا من ذبحوا هنرى الرابع أفادوا شيئا.. إن الله يميت العادلين والصالحين.. ولكنه لاينصر الأشرار والظالمين.. لذلك أرى فى هذه الإعتداءات شيئا خفيا يزعج حاضرنا و مستقبلنا.. إن سلامتى هى سلامة الشعب والإمبراطورية.. فلنواجه المستقبل بالثقة والاتحاد لما فيه مصلحة الوطن وهيبة فرنسا بين شعوب أوربا والعالم المتحضر» ..

..... ومرت الأيام ، وقد صهرت التجارب والأزمات وجدان الفاتنة الرقيقة الصامدة.. ولكنها قوت من جلدها وعزيمتها ، وفتحت عينيها على خفايا القصور وخبايا مراكز القوى المتصارعة من وراء

الستار! فزادت أوجينى من سطوتها ونفوذهـا.. واستأثرت بالأمر والنهى فى كل ما يتعلق بشئـون البلاد.. وبالتالى ، ضعف شأن الإمبراطور.. وكان من الواضح أنه أسلم لزوجته القياد والقيادة وصار ينفذ ما تمليه عليه مسلوب الإرادة .

وتألقت الفاتنة.. وأعادت إلى الأذهان شهرة مدام دى بمبادور فى عهد لويس الخامس عشر ، ومارى أنطوانيت فى عهد لويس السادس عشر ، وجوزفين فى عهد نابليون بونابرت .. وهاهى ذى تفوق الجميع سلطة وسلطانا.. وأصبحت مصدر الإلهام العبقرى لكل المبتكرات والمستحدثات الباريسية فى عـالم الجمال والأناقة !

... وأعادت اللعبة القديمة : الترف والبذخ والسفه والاستمتاع بمباهج الحياة حتى سكرت وفاض الكأس..

وجاء اليوم الموعود

ولندع الأمواج الهادرة فى بحار السياسة واشتعال الحروب .. لنعيش أياما هادئة هانئة وادعة هائمـة ولنسهر مع الساهرين والسامرين على شاطئ قنـاة السويس.. وعلى ضفاف النيل الخالد!

قناة السويس.. إسماعيل باشا خديـوى مصر ، قصور البذاخة المترفة.. حفلات القنال الأسطورية.. الإغراق فى الهيام بالتظاهر والتحضر والتجمـل.. والغرق فى الديون وإرهاق الشعب المصرى الصابر الكادح الصامد الذى يعيش فى ظلمات القـاع .. ولايدرى ماذا يدور فى ليالى التأنق والتبرج والسهرات السكرى والمتع الحمراء العابثة!

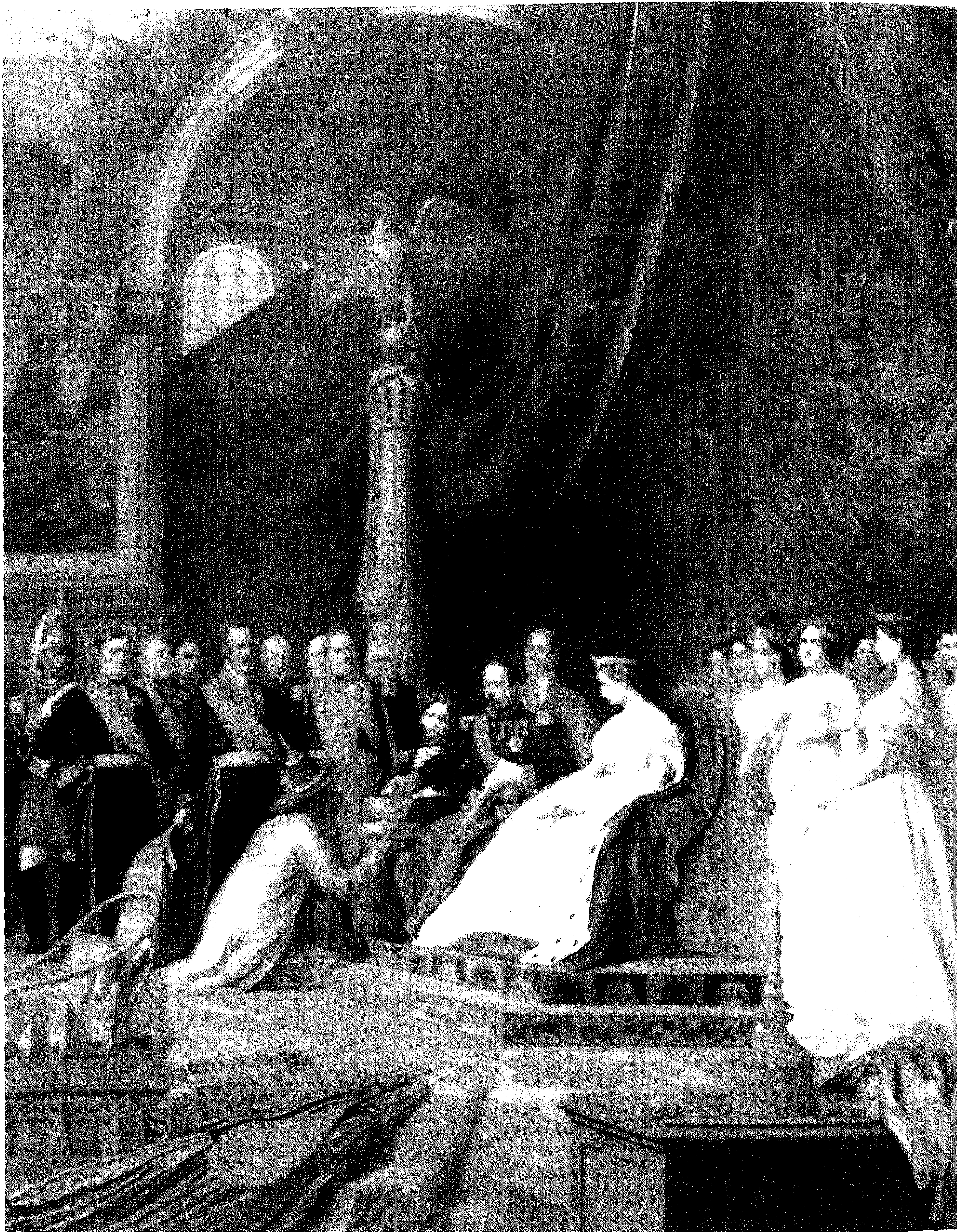
هكذا كانت الاحتفالات.. احتفاء بافتتاح قناة السويس فى ١٦ نوفمبر من عام ١٨٦٩ ، عندما دعى نابليون الثالث وزوجته الفاتنة الإمبراطورة أوجينى إلى هذه الاحتفالات التى تحدثت عنها كتب التاريخ ، ووصفتها بأنها فاقت فى بذخها ليالى ألف ليلـة الشهيرة.. ولبت الإمبراطورة دعوة الخديـوى.. وتخلف الإمبراطور فلم يحضر الاحتفال لانشغالـه بالأزمات والتقلبات والزلازل السياسية المروعة..

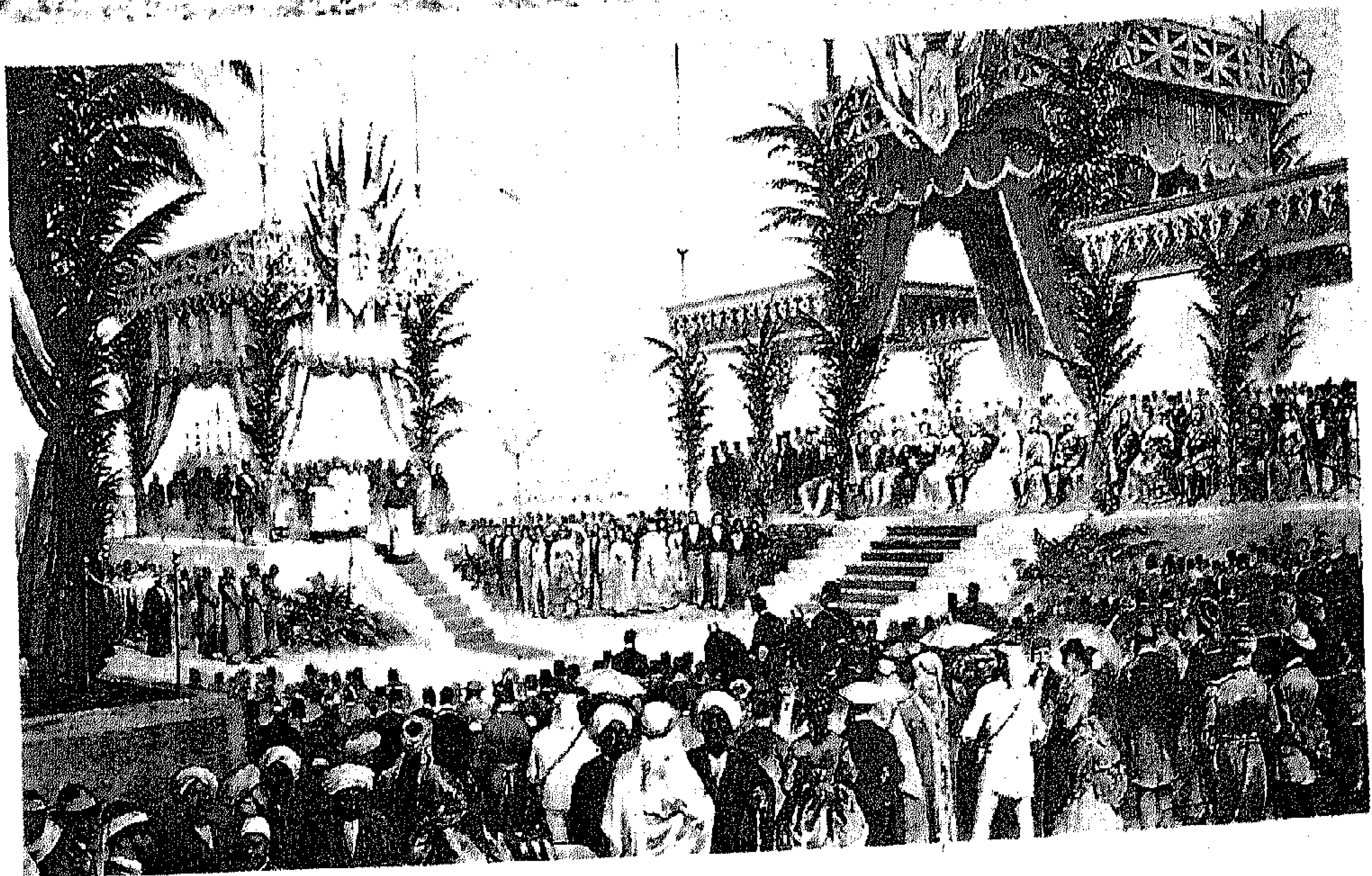
وقبل أن نوالى مسيرتنا فى ركب حسناء باريس ومضيفها الخديوى الذى كان يحكم مصر ويحلم بأن تكون عاصمتها قطعة من باريس ، أقول إن حفر قناة السويس ما هو إلا قصة طويلة ذات شئون وشجون وعثرات وطفرات.. أما كيف حصل (دى ليسبس) على امتياز شق القناة بين البحرين الأبيض والأحمر ، فذلك يرجع إلى العلاقة الخاصة بين مصر وفرنسا ، والصداقة الخاصة جدا بين سعيد باشا والمسيو دى ليسبس.. وليس هذا مجالا لسرد الوقائع والتفاصيل.. ولكنى أريد بذلك أن أصل إلى أن أوجينى عندما تعد العدة لحضور افتتاح القناة ، فإنما تأتى إلى أرض لها فيها أوثق الروابط وأرسخ الوشائج ، فكأنها تحضر لتبارك أحد الإنجازات الفرنسية على أرض صديقة .. وهاهو ذا إسماعيل باشا يجنى ثمار العلاقات الخاصة لوالـده سعيد باشا.. وفى غمرة التعاطف والعلاقات الحميمة والانبهار الهائم بالجمال الذى يحرك الوجدان ويطلق الغرائز.. بالغ إسماعيل فى الكرم والحفاوة التى جاوزت كل الحدود حتى فاقت الخيال!

وكأن حسناء فرنسا قد بدأت بنصب شباكها حول صيدها قبل أن تلقاه.. إنها فاتنة فرنسا.. بل وأوروبا كلها.. وستكون رئيسة للحفل المرتقب.. نجمة القمة بين جمع الملوك والأمراء والنبلاء والفنانين والمفكرين وأقطاب الأرستقراطية والرومانسية.. ولشىء فى نفسها.. عزمت على أن تجعل من الحفل مهرجانا للعواطف الدافئة!!

من أجل ذلك ، نراها وقد أتت قبل موعـد الاحتفال بثلاثة أسابيع.. وحدها بدون زوجها الذى أرهقته وأنهكت قواه وأحاطته بكل ألوان العقـد والمشاغل والمشاكل والهموم..

فكان موعد الاحتفال ـــ كما ذكرنا ـــ يوم





يوم افتتاح القناة

١٦ نوفمبر ١٨٦٩ .. ولكنها حضرت لزيارة خاصة جدا فى الأسبوع الثالث من شهر أكتوبر .. فالوقت كاف لأن يحلق العصفور كما يهوى فى أجواء الشاعرية بين الأستار الوردية فى قاعات المرمر بقصر الجزيرة الفخم الذى خصصه لها إسماعيل (فندق ماريوت حاليا) وكل يغنى على ليلاه ويهدف إلى غاياته ومرماه ! لنرقب تتمة الحديث — على استحياء — وكيف ينصهر الوجدان وتشتعل العواطف بين حرارة الترحيب واللقاءات الساخنة على أرضنا السمحة الطيبة !

● إنها أوجينى .. غادة باريس .. وفاتنة أوروبا كلها .. أتت إلينا وهى فى قمة جمالها وجاذبيتها وسلطانها .. كانت فى الثالثة والأربعين .. ولكنها تبدو فتاة حسناء فى ذروة شبابها وإناقتها وكأنها لم تبلغ الثلاثين من عمرها ! أتت فى هذه الزيارة الخاصة قبل موعد مهرجان القناة ، وقبل أن يتوالى حضور الضيوف الكبار وينشغل عنها إسماعيل المحب الولهان الباحث عن اللهو والمتعة ، الحالم دائما بأجواء الرومانسية والأرستقراطية الفرنسية .. إن إرضاء الإمبراطورة يعنى رضاها عنه .. وهذا الرضا الإمبراطورى من غادة فرنسا يعنى بالنسبة لحاكم مصر الشىء الكثير ، وهو الذى عرف فى التاريخ بأنه أراد أن يجعل مصر قطعة من فرنسا ، وأن يجعل من القاهرة جزءا من باريس .. !

وهكذا التقت الرغبات والنزوات : هى الباحثة عن دائرة الضوء والتألق .. ليشع بريق اللالئ من تاج الإمبراطورية فوق جبينها .. وهو المطبوع على حب التظاهر والبذخ والتأنق والتجمل والمغامرات العابثة ، وقد وجد كل منهما فى الآخر مجالا مناسبا لطموحاته وأهدافه ونزواته .. !

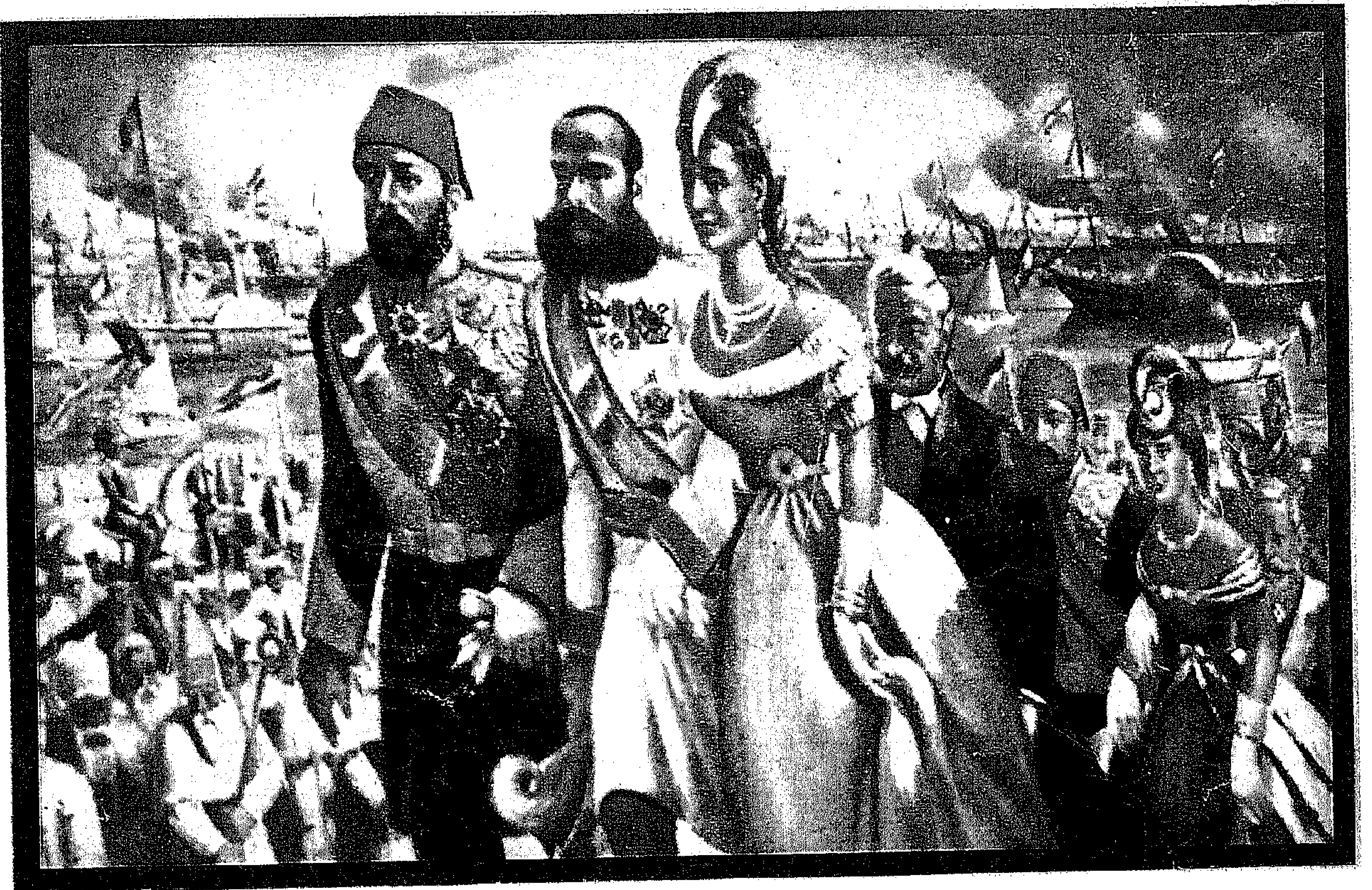
ليالى ألف ليلة :

بين أسباب الترف والبذخ وأجواء الشاعرية . عاشت أوجينى برفقة الخديوى المتيم أياما وليالى أسطورية لاتنسى ولا تمحى من ذاكرة التاريخ .. فكانت رغبات الإمبراطورة بمثابة أوامر يسهر حاكم مصر والشعب كله فى العمل على تحقيقها دون إبطاء .

أبدت رغبتها فى زيارة الأهرام وأبى الهول .. ولكن الطريق إليها غير ممهد لتسير فيه العربات المذهبة التى تجرها الخيول الملكية .. إنه طريق معبّد يؤدى الغرض لعامة الناس والزوار العاديين ولكن موكب أوجينى له شأن آخر .. لذلك ، فقد سارع إسماعيل بإصدار أوامره على الفور إلى وزير الأشغال ومدير الجيزة بجمع آلاف العمال والدواب ، وأن يعملوا ليلا ونهارا لكى يمهدوا الطريق على أجمل صورة ممكنة ، وأن يغرسوا على جانبيه الأشجار والأزهار .. وسخرت آلاف السواعد المعروقة المكدودة التى دأبت تعمل فى جلد واستكانة .. هى نفسها التى انتهت بالأمس القريب من حفر قناة السويس وهى تئن تحت السياط المسعورة .. إرضاء للأوامر الملكية ورغبات القصور الفرنسية !

وشهد الشعب المصرى كيف استعاد الخديوى سهرات ألف ليلة من جديد عام ١٨٦٩ على ضفاف النيل وهضبة الإهرام وقصر الجزيرة المترف الحالم .. كما أن أبا الهول الصامت الصامد القابع فى شموخ منذ الآف السنين ، قد ارتسمت على شفتيه ابتسامة صخرية ساخرة !

واستبد بها الشوق لإحياء أمجاد كليوباترا .. فأشارت على إسماعيل أن يقضيا بعضا من لياليهما الشاعرية بين الآثار الفرعونية فى الأقصر .. وحرصت الإمبراطورة فى هذه المرة على أن يصحبها رسامو البلاط الفرنسى ، ليسجلوا لها اللوحات المتحفية وهى بين أمجاد الفراعنة .. وأقام لها رفيقها الولهان مجلسا من المخمل والحرير والأرائك الذهبية وسط معبد الأقصر .. وكم حلمت بأطياف حتشبسوت ونفرتيتى وكليوباترا .. وهى ترنو نشوانة إلى آثار التاريخ السحيق .. سكرى برحيق التدليل والكرم الملكى المثير !!



المهرجان :

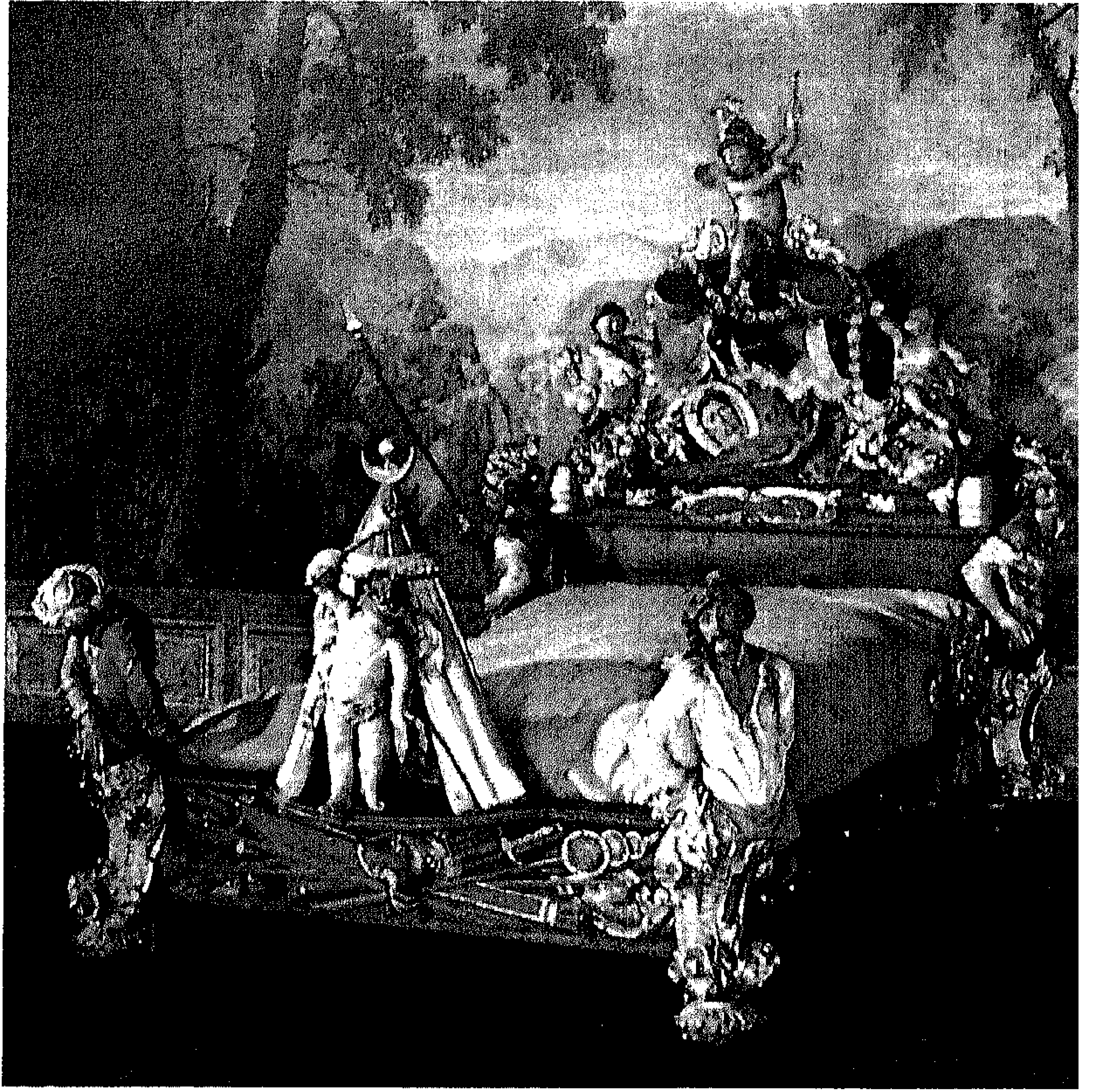
عادت الإمبراطورة من رحلة الجنوب وقد أصبح إسماعيل من أقرب الأقربين إليها وبذلك تحقق حلمه الكبير .. لقد حان يوم المهرجان الذى حدد له يوم ١٦ من نوفمبر عام ١٨٦٩ ، فرحل الخديوى إلى الإسكندرية ، واستقل يخته الملكى « المحروسة » إلى مدينة بورسعيد ليكون فى استقبال الملوك والأمراء والقادة والنبلاء .. ضيوف الحفل المنتظر ، وكان أول الوافدين أمير هولندا وأميرتها ، ثم إمبراطور النمسا والمجر ، ثم ولى عهد بروسيا .. وتوالى قدوم الوفود رفيعة المستوى من أنحاء العالم .. وكانت عينا إسماعيل تتركز على سفينة مقبلة تتهادى لترسو على الشاطئ فى أبهة وخيلاء .. إنها اليخت الإمبراطورى الفخم « إيجل » ، يقل رئيسة الاحتفال .. فاتنة المهرجان .. الإمبراطورة أوجينى ، يحف بها حرس الشرف والحاشية والوصيفات فى أبهى حلل وأجمل مظهر وأكمل زينة !

●● وشهد شاطئ القناة حفلا أسطوريا لم يشهد التاريخ — آنذاك — مثيلا له .. ولا يتسع مجالنا على هذه الصفحات لسرد وقائعه التى فاقت كل ما يتخيله الحالمون والشعراء والرومانسيون !

ولم يسع أوجينى إلا أن هتفت بين الجموع : بالله ! . لم أر فى حياتى أجمل ولا أروع من هذا الحفل الشرقى العظيم !

ودارت الأيام :

انتهى الحفل الذى بهر أنظار الضيوف وأعاد إلى مخيلتهم أجواء البذخ فى قصور ألف ليلة وحسن شهر زاد وسفه شهريار .. ولكن أوجينى أبحرت فى القناة



سرير أوجينى .. تحفة فنية من فن الباروك النمسوى



قصر الجزيرة من الداخل

جنوبا إلى مدينة الإسماعيلية ، حيث القصر الذى خصصه لها إسماعيل لتقضى فيه بقية الزيارة الخاصة جدا .. تلك التى بدأتها قبل الاحتفال بثلاثة أسابيع !

وفى حدائق القصر الكبير على ضفاف القناة .. مارست الفاتنة هوايتها فى رياضة الفروسية حيث أهدى إليها الخديوى أجمل الخيول العربية التى يعتز بامتلاكها ..

وبذلك أسدل الستار على ليالى الدفء والجمال فى الإسماعيلية .. وعادت الإمبراطورة بعد أن فاضت كئوسها بخمر السحر الشرقى الذى اغترفت منه بغير حساب ! عادت إلى معمعة الأحداث والمؤامرات والثورات الأوربية المستعرة فلم يمر عام ، حتى كانت الحرب السبعينية بين بروسيا وفرنسا قد أغرقت زوجها الإمبراطور نابليون الثالث فى بحر من الصراعات الدامية والهزائم المتوالية .. وكانت أصابع الاتهام من جموع الشعب الفرنسى تشير إلى الإمبراطورة العابثة المتسلطة وتدمغها بأنها أصل البلاء ! وقبعت ساهمة مكتئبة فى قصر التويلرى ، حيث تفجع بين ساعة وأخرى بأنباء الهزائم المتلاحقة .. لقد انقلبت الموازين الأوربية .. وتزلزل القصر الفرنسى من روع الفواجع فى الخارج ومن غضبة الشعب الثائر الهادر من حولها .. واكتظت ساحات القصر بالآلاف من جماعات الشعب المتحفز للانقضاض والانتقام . وفكرت أوجينى فى أن تنزل إليهم لاسترضائهم وتطلب إليهم الثبات والصمود فأمرت بإحضار جوادها .. وهمت بارتداء ملابس الفروسية التى اعتادت على ارتدائها خارج القصر .. وكانت المفاجأة الكبرى : لقد انتهز الخدم والعاملون فى القصر فرصة الهرج والمرج الذى ساد باريس وأطبق على القصر ، وفروا هاربين وقد سرقوا كل ملابسها ، ونهبوا كل المحتويات التى كانت فى متناول أيديهم !! ونظرت حولها مذهولة من هول ما يحدث .. وتهاوت كسيرة القلب مسلوبة العزيمة مشلولة التفكير ..

وأفاقت من ذهولها .. وتمالكت .. وعزمت على



أوجينى ووصيفاتها

أن تخرج إلى قاعة الاستقبال الكبرى وقد اكتظت بالمستشارين وبعض السفراء والمخلصين ..

وما أن رأها « السنيور نيجر » سفير إيطاليا فى باريس ، حتى أسرع إليها يستحثها على أن تتعجل وتخرج فورا من أبواب القصر الخلفية .. حيث أعدوا لها مركبة خاصة لتوصيلها إلى الشاطئ حيث تستقل اليخت الذى ينتظرها لتهرب به إلى إنجلترا.

وذهبت أوجينى إلى لندن .. فى حماية صديقتها فيكتوريا ملكة إنجلترا ، التى أكرمت وفادتها وأنزلتها فى أحد القصور الملكية ، حيث لحق بها زوجها وابنها لويس نابليون بعد ذلك .. وتوالت عليها الكوارث ، فقد لقى لويس حتفه بعد سنوات كئيبة وهو فى ريعان الشباب !! فقبعت فى منفاها تجتر آلامها دون أن تتدخل فى أمور السياسة من قريب أو بعيد !

..... ومرت السنوات ثقيلة متباطئة تطبع بصماتها على الجباه .. وتشعل الروس شيبا .. إلى أن أتى عام ١٩٠٥ ، فتحن الإمبراطورة العجوز إلى أرض الذكريات .. إلى أمجاد السويس .. إلى ليالى ألف ليلة وقصور الترف والبذخ والرفاهية .. وتأتى إلى مصر متنكرة .. وتنزل لعدة أيام فى فندق « سافوى » فى بورسعيد .. وما أن علم شعراء مصر بهذا الحدث الدرامى المثير .. حتى تباروا فى التعبير اللاذع عن مفارقات الأمس واليوم ..

.... وفى عام ١٩٢٠ كانت قد بلغت الرابعة والتسعين من عمرها .. ففكرت أن تنهى حياتها بزيارة أسبانيا مسقط رأسها ، وكانت تربطها بملكتها أواصر

أوجينى فى أواخر أيامها فى شهر مايو ١٩٢٠ بقصر (لاس دوناس) الذى يملكه دوق ألبا وكانت آخر زيارة فى حياتها

صداقة قديمة فذهبت إليها .. وما أن وصلت إلى مدريد حتى اشتد عليها المرض وثقلت على كاهلها وطأة الضعف والشيخوخة ، فقضت نحبها فى ١١ يوليو من نفس العام .. وهكذا رحلت إحدى فاتنات التاريخ !

●● ... وفى المتاحف العالمية الكبرى ، عندما تطالعنا صورها الرائعة التى أبدعتها العبقريات الفنية الملهمة .. لنتمثل فى خاطرنا .. غادة باريس التى تربعت على عرش الإمبراطورية الفرنسية وعلى قلوب الأباطرة والملوك فى عصرها .. وكم حدثنا التاريخ عن ملهماتـه الحسان عبر أحداثـه الجسام .. وتمضى الأحداث وتتوالى القرون .. وتبقى روائع الفـن الخالدة !



◁ أوجينى فى قمة تألقها !

شاعر العواطف الملتهبة والبحث عن ذاته



إنها عبثت واستمتعت وتمنعت وتدللت .. ولم تجد فى نهاية المطاف حبا حقيقيا تسكن هائمة فى أرجاء قلبه الكبير !

عندما نبذت المرأة مظاهر الأنوثة ، وسلكت مسلك الرجال .. اختلت موازين الطبيعة .. وهبت العواصف وعبثت بالجندول على مياه البندقية !

ألفريد دى موسيه ALFRED DE MUSSSET شاعر فرنسا العاطفى الكبير ، وجورج صاند George Sand تلك الروائية النابغة الشهيرة .. اسمان عبقريان فى عالم الفكر والإبداع ، يعرفهما جيدا كل مثقف فى العالم أجمع ..

وطالما التقينا بنماذج رائعة من الإلهامات الأنثوية التى كانت بمثابة القبس المتوهج الذى يضطرم فى عالم الفن ، فيثير قرائح المبدعين .. حبا واستمتاعا وسعادة .. أو معاناة ومأساة درامية مفجعة .. ولكنها العلاقات الوجدانية الإنسانية فى كلتا الحالتين عند العباقرة .. تتمخض عن عطاء فكرى خالد على مر العصور !

● كان ألفريد دى موسيه شاعرا خياليا حاد المزاج سريع التحول متوثب الأعصاب .. دائب التجوال متقلب العواطف .. ينتقل كالنحلة من زهرة إلى زهرة .. يرتشف رحيقها أو يعبث بوريقاتها ما طاب له العبث .. وقد أطلق لغرائزه العنان يلهو ويمرح فى صحبة نساء عابثات مستهترات يعشن حياتهن يوما بيوم .. وساعة بساعة ، لا يفكرن إلا فى المتع الجامحة العابرة .. ولكن شاعرنا الماجن العبقرى .. لم يكن يفرغ من إحدى هذه الشطحات .. حتى ينظر إلى قلبه .. فلايجد إلا فراغا عميقا يصيبه بالأسى والاكتئاب .. ويدفع به إلى اليأس ، فيباعد بينه وبين المجتمع وصفوة الكبار من الفنانين والمفكرين ! والحق إن إمعان ألفريد فى معاشرة الغوانى كان يزيده رغبة فى البحث عن الحب الحقيقى والعثور على المرأة الكاملة المنشودة التى طالما طاف خيالها بذهنه ووجدانه ، فاحتلت عقله ، وعكرت عليه صفو لياليه الحمراء !

كان يخشى أن تنطفئ جذوة ملكته الشعرية قبل أن يشعر بعاطفة الحب الصادقة التى تملأ عليه حياته ومشاعره .. ولا سيما وأن أشعاره فى تلك الفترة لا تعدو أكثر من قصائد عاطفية رنانة تتغنى بالنساء ومفاتنهن الأنثوية والمتع المثيرة .. وكانت خليطا من السذاجة والعاطفة الجامحة المشبوبة وحياة الليل الحافلة بالأسرار والعشق والهيام والضياع !

وما أشد رواج هذه البضاعة المبهرة بين جموع



الشباب .. ولذلك انتشرت أشعار ألفريد دى موسيه انتشار النار فى الهشيم ، وأصبحت تحظى بشهرة واسعة أجرتها على كل فم وبكل لسان .. وتغنى بها الساهرون والسامرون فى ليل باريس الطويل !

التقاء المحبين

عندئذ تنبهت الكاتبة الروائية النابغة جورج صاند إلى شخصية الشاعر الهائم الضائع ، وتبينت فى أشعاره جموح العاطفة وتفتح البصيرة وملكة الإبداع المتعطش إلى الحب الصادق الأصيل .. فأعجبت بالشعر والشاعر .. ولمست فيه سذاجته وصدق إيمانه بأحلام الحب ، وتلهفه على امرأة مثالية يتخذ منها إلهاما لعبقريته وعروسا لأشعاره .. فأحبته ! أحبت فيه الشاعر المغامر والعاشق الطموح الذى يريد أن يطوع الحياة لخياله .

وكانت جورج صاند امرأة ناضجة الأنوثة ، مضطربة الحواس ، حديدية الإرادة .. عاشت حياتها طولا وعرضا وخبرت الرجال وعرفت صفوة رائعة من عظماء عصرها ونخبة من نوابغ الأفذاذ .. وتحدثت أوروبا كلها عنها وعن قصص علاقاتها والمعجبين بها من الكبار !

وكما يقال : « إننا نشعر بالسأم والملل عندما نصل إلى أقصى أمانينا » .. فقد أصبحت جورج صاند كما كان ألفريد دى موسيه ملء الأسماع والأبصار .. ومل كل منهما حياته وأصبح يدور فى حلقة مفرغة يتكرر الدوران برتابة واستمرارية فى غير إثارة أو حدث عظيم .. وكانت المتعة والمغامرات العابثة والشهرة والتألق .. وإن بدت للبعض أنها أقصى الأمانى وغاية المراد .. إلا أنها بالنسبة لأصحابها من الفنانين دوران فى دائرة مغلقة .. متطلعين إلى الفكاك منها والسعى إلى قمة جديدة هى الأمل المنشود .. وكان هذا الأمل هو الحب الحقيقى !

حب صادق ينبع من قلب برئ .. فتوددت جورج صاند إلى موسيه ، وتقربت إليه بعد أن وجدت فيه بغيتها على أمل أن تروضه وتطبعه على حبها هى دون غيرها .. إنها عبقرية يتحدث الناس عنها فى كل مكان فى العالم .. كما يطرون محاسنها الأنثوية

ومفاتنها التى أوقعت فى حبائلها مشاهير عصرها .. ولكنها عبثت واستمتعت وتمنعت وتدللت .. ولم تجد فى نهاية المطاف حبا حقيقيا تستظل به وتسكن فى أرجاء قلبه الكبير ! .. وشاعرنا موسيه يبحث كذلك عن ضالته .. ولكنها أشد رغبة منه إلى فتاها لأن مشوارها كان أطول وأشق وخبرتها كانت أكثر وأشمل ، ولهذا تقربت إليه وتفننت فى استمالته وإغرائه .. وبهت الشاعر وازدهى ، وتملكته النشوة الكبرى ، نشوة الهائم بحثا عن ضالته المنشودة ، فيجدها ماثلة أمامه تتألق حسنا وجمالا !

شعر موسيه أن حلمه قد تحقق فجأة وأن المرأة التى طالما حلم بها تأتى إليه فى صورة شعرية ملهمة .. فاستجاب لها ، وانقاد لحبها ، وودع حياة العبث ولياليه الصاخبة .. وتبعها هى .. يرسم فى مخيلته أمانيه الكبار .. ويمنى نفسه بحياة حافلة بكل أنواع العطاء والاستمتاع الروحى الرفيع ! وهام بها حبا وحلق فى أجوائها العلوية وكأن الأرض لا تسعه وهو قرب ملهمته الأسطورية الرائعة ! .

وأرادت جورج صاند ألا ينازعها فى حبيبها إنسان .. وفى الوقت ذاته ، أراد موسيه أن يباعد بينها وبين مغريات ومفاتن باريس .. وأن ينتزعها انتزاعا من أيدى المعجبين بها فى كل مكان .. فاتفق مع حبيبته على هجر العاصمة الفرنسية والسفر إلى إيطاليا والاستقرار فى مدينة حالمة عائمة ساحرة هى مدينة البندقية .. ورحلا إلى مدينة الهوى .. حيث يتهادى بهما جندول الغرام على صفحة الماء الهائمة فى الأمسيات الدافئة يداعبهما نسيم وادع هامس .. وتتكسر شقائق الموج الفضى الناعس تحت قارب الأحلام فى رحلات الشعر والهيام !

وفى هذه الأجواء المفعمة بالحب والثقة والأمل والنعيم .. هبت العواصف فجأة .. ونشب صراع هائل بين العاشقين .. وكان لب هذا الصراع هو الوضع المعكوس لقوانين الطبيعة .. هو ضعف الرجل وقوة المرأة .. هو خيال المحب وواقعية الحبيبة ... هو أنثوية ألفريد دى موسيه ورجولة جورج صاند !!

عندما ينكشف المستور

كانت المرأة ـــ بحكم تجاربها وخبرتها ـــ تعيش بعقلها ، والرجل ـــ بحكم طيشه وسذاجته ـــ يعيش بعاطفته . هى تقدس الفكر وتنفذ إلى الأغوار .. وهو شاعر رومانسى يحلق فى الخيال والأحلام ! كانت جورج صاند تنفر من المجتمعات والأندية وحياة الليل والصخب .. على النقيض من ألفريد دى موسيه الذى يهوى هذه الأجواء الوردية ، هى تحب العزلة والتأمل .. وهو كالعصفور لا يحب الأقفاص الذهبية .. ويهوى التغريد والانطلاق .. نقيضان فكيف يجتمعان ؟

كانت المفكرة الجادة تقضى أكثر من أربع عشرة ساعة فى اليوم بين كتبها وأوراقها وأقلامها .. تقرأ وتفكر وتكتب ولا تغادر مكتبها إلا لتخرج باحثة عن حبيبها الشارد ، فلا تلتقى به إلا فى الحانات والملاهى الحمراء بين بائعات الهوى وشلل المجون ! وتحملت المحبة العاقلة .. وكبتت انفعالاتها وثورتها لعلها



جورج صاند



تستطيع أن تصلح من شأن حبيبها المدلل .. ولكنه كان أهوج طائشا نزقا ، يعد بشيء ثم ينساه ، يقتنع بفكرة ثم لا يلبث أن يقتنع بنقيضها ،يظهر إعجابه بحبيبته .. ثم يطرى أمامها محاسن نساء البندقية الجميلات !

وهكذا .. سارت الأيام .. يهجرها وحدها ، ويقضى وقته متسكعا فى أزقة المدينة مصطحبا معه فئة من الموسيقيين والبحارة وجمعا من المشاغبين والمترفين العاطلين ، وطائفة من حسان البندقية يرددون أشعاره ! ومن الغريب أنه كان يفسر هذا الإسراف فى اللهو والعبث ويرجعه إلى سبب غريب هو قوة حبه لمحبوبته جورج صاند .. وكان يقول إن حبه لها يدفعه إلى أن يعانق العالم كله ويغريه بالفرح والسرور والتسامح وعدم الاكتراث .. ويحوله إلى طفل فاز بما يشتهى ولذلك فهو يطرب ويهلل ويملأ الدنيا حبا وشعرا !!

ولكن المحبة الرصينة العاقلة .. كانت تراقب شاعرها بنظرات الملاحظ الصارم ، وتعد عليه هفواته ، وتدرس حقيقة أهوائه ، وتستجلى بواطن شخصيته كالمحلل النفسى أمام مريضه ذى الشخصية الغريبة المتقلبة ! وسرعان ما تقارن بين خيالها عنه وأملها فيه ،وبين ما هو عليه فى واقع الأمر ، وتتساءل عن المستقبل الذى ينتظرها معه !

... والأغرب من كل ذلك ، أن الفريد كتب فى مذاكرته بعد ذلك أنه بالرغم من حياة الصخب هذه .. لم يفكر فى خيانة حبيبته إطلاقا .. فكان يقضى لياليه المرحة بين نساء البندقية وغانياتها ،ولكنه لم ير فيهن من تستحق مجرد قبلة أو حتى نظرة ! وكان فى لهوه مثال الترفع والوفاء لجورج صاند لأنه فعلا قد أحبها من كل قلبه !! ولكن المرأة بغريزتها الأنثوية المحبة لا تنظر إلى الباطن بقدر ما تثيرها ظواهر الأمور .. فكانت تنظر إلى سلوك حبيبها .. فتصدم فى كبريائها بغض النظر عن احتوائها لعواطفه !



وهكذا شعرت أنها بإرادتها القوية وحبها الصادق ، وهدوء تفكيرها واتزان أعصابها ، تمثل فى هذه المأساة دور الرجل ، وأن موسيه برعونته واستهتاره واستجداء الإعجاب من الرجال والنساء معا .. يمثل دور المرأة !

وهى الحريصة دائما على نبذ مظاهر الأنوثة وتحاربها فى نفسها ما استطاعت .. ومن المعروف عنها أنها كانت تمجد دائما مظاهر الرجولة حتى إنها غالبا ما كانت تظهر بأزياء الرجال .. وحتى اسمها ظاهر للعيان بأنه اسم رجل !

وفاض الكيل :

ولم تعد تحتمل الحياة مع شاعرها المستهتر .. ونمت فى ذهنها فكرة الانفصال عنه .. ولكن شيئا ما فى داخلها يجعلها تتشبث به .. فهو كالطفل المتعلق

جورج صاند وألفريد دى موسيه فى إحدى الحفلات الشاعرية المترفة




● جورج صاند كما رسمها الفريد دي موسيه

بعنقها .. لقد استيقظ فى وجدانها شعور غـريب بالأمومة ممزوجة بحب عاطفى من نوع فريد ! فتريثت وراجعت نفسها .. وراودها أمل كبير فى إصلاحه للتمكن من الحياة بجواره والإخلاص له .. وعزمت على أن تبدأ معه مسلكا جديدا .. فبدأت تصارحه برأيها فيه ، وتنتقده باللين والحسنى حتى لاتفقده إلى الأبد . وأخذت تمده بالإرشادات والنصائح ، وتزين له حياة البيت ، وتبذر فى عقله بذور الإرادة والقوة والرجولة .. ولكن الشاعر المغرور استخـف بها وسخر منها ، ثم كبر عليه أن تجرؤ امرأة على اقتحام حرمه النفسى وهو الذى عاش بين المسحورات به ، والمفتونـات بأشعاره .. إنـه أحبها واستلهمهـا فى قصائده .. ولا يجب أن تتحول من ملهمة إلى قائدة !

ويجب إنصافا لجورج صاند أن نقول إنها أعادت الكرة مرات ومرات .. ووصلت فى غايتها إلى حد الاستعطاف والتوسل .. ولكن على غير جدوى !

حينئذ دب اليأس فى نفسها .. وتغير كل شىء .. وقصدت مكتبها ذات ليلة ساهمة تطيل النظر والإمعان إلى أعماقها المحبة الولهانة .. واستقر رأيها على فكرة بعينها .. وتعجبت كيف غابت عنها طوال هذه الفترة المريرة الماضية .

وبينما كانت جورج صاند تخطط لما ستفعله مع حبيبها المغرور المدلل كان موسيه يقبـع فى إحـدى النوادى الليلية ، وقد انتحى جانبا فى شرود وجدانى غريب ، وأمسك بقلمه ، لاليكتب قصيـدة هـذه المرة ، ولكن ، ليتحول إلى رسام مبدع ، يستعيد ملامح محبوبته ويخط ملامحها فى صورة فريدة نادرة يراها قراؤنا على هذه الصفحة .. لقد ألهمته بإيحاءاتها سيلا من الأشعار العاطفية الرقيقة .. وها هى ذى اليوم تفرض على عبقريته الفياضة نوعا جديدا من الإلهام .. لقد فجرت فيه ينابيع العطاء شعرا وفنا .. رغم مكابرته وتدلله على حبيبته المتحفزة إلى الانتقام !


جورج صاند

.. كان لابد أن تجرب معه أسلوبا أخر .. ينطوى على الدهاء والكبرياء والقوة المتعمدة .. وكم للمرأة من أسلحة تطوعها للأغراض والأوقات المناسبة !

أهملت الشاعر إهمالا خبيثا مدبرا بعناية لتختبر حبه وتثير غيرته .. فالتهبت كبرياؤه وكاد أن يُجن ! إنه يحبها حبا ملك عليه كل حياته ، وهى تعلم ذلك .. ولكنها فشلت فى تهذيبه بالحسنى .. فلتسلك هى أيضا نفس طريقه العابث المستهتر .. وتنتظر النتائج بعد ذلك !

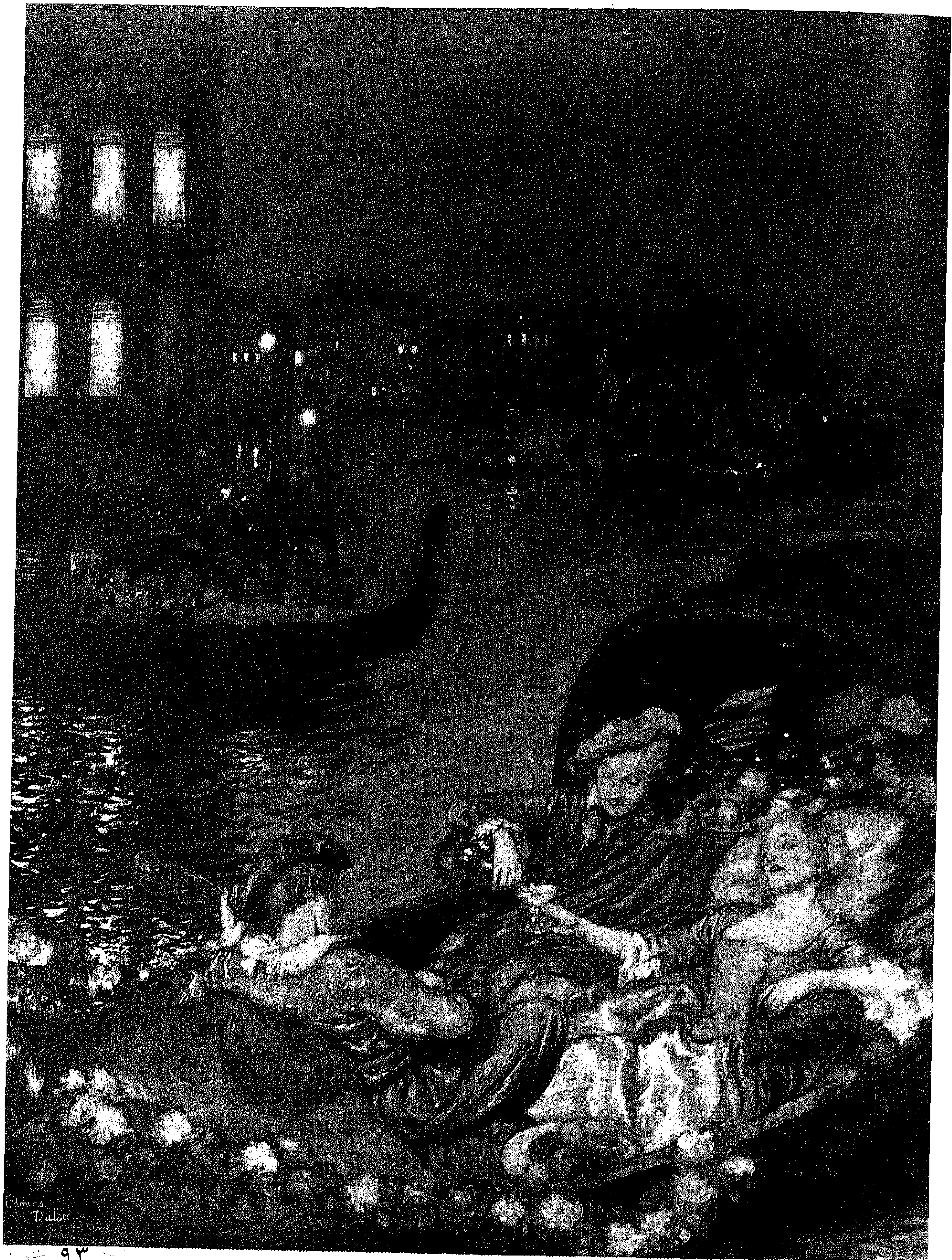
كيد المرأة .. والسقوط إلى الهاوية

لم تكترث به ، وشرعت ترافق غيره من الرجال وتقبل دعواتهم وتستمتع بسهراتهم المرحة السامرة الصاخبة .. وتتعمد أن تمكث فى هذه السهرات حتى ساعة متأخرة من الليل .. وليلة بعد أخرى .. جن جنونه .. ونفد صبره ولم يتمالك أعصابه المرهفة المكابرة .. وأخذ يغشى ملاهى ومجتمعات البندقية طوال الليل بحثا عن حبيبته المفقودة .. ولم يعد يطرب لأمسياته ورفاقه .. ولا يهتز قلبه لحسان البندقية كعادته .. واسودت الدنيا فى عينيه .. وتمثلت فى خاطره ووجدانه صورة واحدة .. هى صورة جورج صاند .. حبيبته التى طالما تدلل عليها وفر من سيطرتها الدافئة المتعقلة ! وأصبح الشاعر المهزوم .. يأوى إلى البيت بمفرده يقضى ليله الطويل البائس فى انتظارها متلهفا على لقائها واحتوائها بين ذراعيه ... وتطول الساعات الثقال .. والشك القاتل يكاد يودى بعقله وقلبه .. وأخذ يندب حظه ويقوم بدور المرأة المستضعفة المنبوذة فى ظلام النسيان !!

وعصفت به الغيرة المدمرة .. وبرح به العذاب .. غير أن فاتنته ومعذبته لم تشفق عليه .. ومضت فى خطتها القاسية توفق بين عملها ولهوها .. وكأن سلوكها هذا قد فتح لها آفاقا رحبة ممتعة طالما حرمت نفسها منها مقيدة بأغلال حبها لشاعرها الذى تمرد عليها وأهدر طاقاتها ، وكاد يودى بها إلى الضياع !

ولم يفهم موسيه أنها أرادت بمسلكها الجديد أن تحفظه من السقوط فى قاع الابتذال الذى كان مقدما عليه لامحالة .. ولم يفهم أنها أرادت أن تصعقه بتيار عنيف حتى يثوب إلى رشده .. ليشفى من عبثة أو يبرأ من حبها .. وفى كلا الحالتين تكون قد نفضت عن كاهلها مسئولية حب يائس لا فائدة فيه ولا أمل منه .. فشتان مابينها وبينه ، فهما كيانان متعارضان لابد أن يدمر أحدهما الآخر إذا استمرا فى الالتصاق والمجابهة . أما هى .. المرأة الحديدية الواثقة الصارمة .. فقد عزمت وصممت على نبذه والتخلص منه .. واعتبرته تجربة طارئة فى حياتها الطويلة المتخمة بالتجارب والأحداث .. ويكفى أنها قد اختزنت تجربتها معه .. لتفرزها أدبا وفكرا فى إبداعاتها الشهيرة !

ولكن شاعرنا المرهف الرقيق .. ما كاد يستشعر صدها ونفورها وتخلصها من حبه .. حتى ازداد تمسكا بها وتشبثا بحبها عن ذى قبل .. وأفاق الفتى على حقيقة مروعة : أنه يحبها حبا ملك عليه كل ذرة فى كيانه وهو بدونها هالك لا محالة ! لقد وقع فريسة فى


Edmund Dulac





هكذا استلهم الفنانون جورج صاند فى عشرات اللوحات

براثن غرامها وهو لا يدرى .. كان يعتقد أنها ستتغنى بأشعاره الماجنة وتتمايل طربا وإعجابا كغيرها من حسان أوروبا .. ولكنها نصبت له الشباك الحريرية الناعمة .. وحلقت به فى آفاقها الشاعرية العلوية .. وظن أنه ملك خزائن الأرض وأجواء الفضاء .. ولكنه أفاق على الحقيقة المفزعة .. إنها تتأهب لأن تهوى به إلى القاع .. وستكون النهاية !

ثارت ثائرته .. وأفلت الزمام من أعصابه .. وتحول إلى مجنون ينهال عليها سبا وتقريعا .. ومن ناحيتها .. قابلت الثورة بثورة مثلها وأشد .. وتحولت من غضب إلى بُغض .. ومن بُغض إلى كيد .. ومن كيد إلى رغبة واضحة صريحة فى الغدر والانتقام !

كان يضمهما بيت واحد .. وبدلا من أن يكون مسرحا للحب والتعاطف والإبداع كما كان من قبل .. أصبح ساحة لمعركة محتدمة يخطط فيها الطرفان لمعارك النزال وأسلحة الانتقام ..

الحبيبة القاتلة

و لم يقو ألفريد على الصمود .. فوهنت عزيمته ، وخارت قواه ، واستسلم فريسة لمرض عضال .. بعد أن استسلم من قبل فريسة مستكينة لحبيبته القاسية .. وهكذا دارت الدائرة .. وانقلبت الآية .. وها هو ذا اليوم يصارع المرض الذى يكاد أن يصرعه !

وحدثت حادثة غريبة كان لها وقع الصاعقة على الشاعر المريض ؛ ففى ذات يوم ، تصنعت جورج صاند الحنان ، وتظاهرت بالعطف على حبيبها المستسلم المستكين .. ووعدته بأن تأتى له بطبيب مشهور .. وظن ألفريد أن عواطف الحب وإلهاماته الخيرة ستنتصر على الشقاق والكيد والانتقام ..

وانتظر عودتها بصبر نافد وأمل فى الشفاء .. ولكنها عادت تتأبط ذراع طبيب يدعى « باجيلو » كانت البندقية تتحدث عن براعته فى مغامراته النسائية

كما تتحدث عن براعته فى الطب فى الوقت ذاته .. وتعمدت هى أن تطيل الحديث .. معه همسا .. وأن تمازحه فى ألفة واضحة قبل أن يدخلا حجرة المريض البائس المحموم ! ولم يكد ألفريد أن يبصر ذلك الطبيب الذى تعلو الابتسامة قسماته المشرقة .. حتى شعر بالحقيقة المروعة تنفذ إلى صدره كالسهام المسمومة .. أدرك والحمى تلهبه وتفتك به .. أنها جاءت بعشيقها الطبيب لكى تذهب بالبقية الباقية من عقله .. ولكى تقضى على ما بقى منه من حطام ! أدرك أنها أقدمت على هذه النذالة لتجهز على الضحية قبل الأوان .. إنها تتعجل الخلاص منه وهو فى أضعف وأسوأ حالة صحية ونفسية .. ولكنه الانتقام المروع الذى طالما لوحت به من قبل !!

أدرك موسيه أن كل شىء قد انتهى ، وتاق إلى الموت يتعجله ليشفيه من حبه ولكى يريحه من حمى المرض ، ومن حمى الغيرة القاتلة التى تسحق عظامه سحقا .. وهو لا يقوى على الحراك ! وخرج الطبيب .. وتبعته الحبيبة القاتلة.. وتركاه فى ظلام موحش رهيب .. وبعد وقت لا يدرى طال أم قصر .. انتابته رجفة مفاجئة من هول الهواجس التى جثمت على صدره .. وهنا لم يجد ملجأ له إلا أن يفكر فى الله .. شعور صوفى غريب استوعب كل حواسه ، فنهض من فوره تاركا فراشه وهو محموم يتلمس طريقه خارج البيت تحت جنح الظلام .. وقد عزم على أمر غريب !

الهروب .. والبحث :

ها هو ذا يستحث خطاه يتخبط بين ظلام نفسه وليل البندقية الموحش .. العاصف المطير . قاصدا دير المدينة العريق ، تبدو أسواره كقلاع كئيبة خلفتها عصور الصراع الغابرة .. ويحدق الشاعر المنبوذ إلى واجهة الدير ويردد همسا مأساويا يناجى به نفسه : كيف يمكن أن أحتمل الحياة بعد اليوم ؟ كيف يمكن أن أعيش بدونها ؟ إنها نهاية العالم .. لقد أودت بحياتى .. وهى لم تزل تحتل قلبى ولا يفارقنى طيفها اللعين ، ولا ملجأ لى إلا هذا الدير الصامت كصمت القبور ! يجب أن اختفى فيه حتى أموت !

وعند الباب .. تشجع موسيه وطرقه ودخل .. واستقبله الراهب بتعجب ودهشة ؛ إنه يترنح فى إعياء .. وماذا أتى به فى مثل هذا الوقت المتأخر من الليل ؟

وتأمله الراهب .. وعرف فيه الشاعر الفرنسى الذى حل بالمدينة .. وجعل الناس تتغنى بقصائدة الإباحية العابثة .. وكان الراهب شيخا وقورا رسمت السنون على وجهه أخاديد الفراسة والحكمة والتجارب الطويلة .. فتفرس فيه مليا وقال له : أنت حائر يابنى .. وأنا ألمح فيك صفاء السريرة وصدق العزيمة وعمق الإيمان ! لا يمكننى أن أقبلك هنا بين نزلاء الدير .. اذهب إلى الدنيا واعرف حقيقة نفسك .. ثم عد إلى بعد عام ، ومتى عدت ثابتا مستقرا .. كان قرارك صادقا .. وسأقبلك يومها بترحاب لتحيا بيننا حياة الزهد والاعتكاف بعيدا عن نوازع الشر ورغبات الغرائز والحاجات الدنيوية ومتاعها الزائل .. أنت متردد يابنى .. أخرج إلى حياتك .. طاب يومك !

● إن ما أقصه عليكم اليوم ليس من قبيل الأدب الروائى أو استعراضا لفظيا لأحداث خيالية .. ولكنها حقائق تاريخية قد حدثت بالفعل .. وجاءت فى مذكرات أبطالها الحقيقيين .. وقد جمعت هذه المادة من المذكرات الشخصية لألفريد دى موسيه التى نشرها بالفرنسية عام ١٨٦٥ م فى باريس ومن إعترافات جورج صاند التى نشرتها على هيئة مقالات متفرقة وجاء ذكرها على لسان السير جون سكواير John Squire فى مجلة The illusrated London News فى العدد الخاص الذى ظهر فى أوائل يونيو ١٩٥٣ م بمناسبة ذكرى وفاة جورج صاند ، حيث ماتت فى ٨ يونيو عام ١٨٧٦ م وما أفعله إزاء هذه الأحداث هو



اللوحة الشهيرة لجورج صاند من رسم الفنان بوترليه

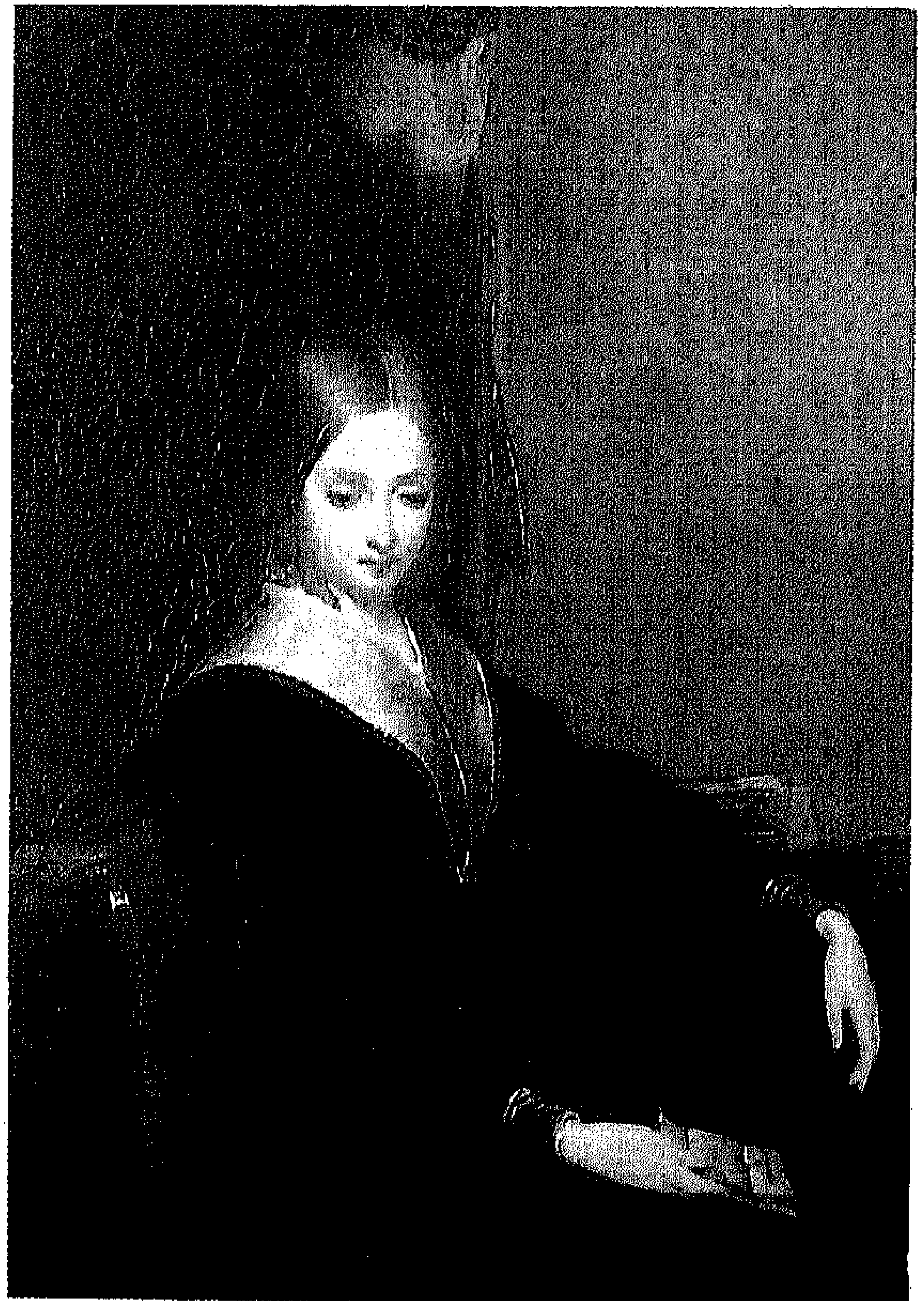
ترتيبها وإعادة بنائها بأسلوبنا الذى تعودنا عليه .

● نعود إلى الفريد وقد خرج هائما على وجهه مرة أخرى يتخبط كالمعتوه بين أزقة البندقية المبللة بمياه الأمطار .. وقد بدأت فى السماء أضواء الفجر الداكنة تحت طبقات السحب المتراكة .. وسار الشاعر رافعا بصره إلى السماء وقد انبعث من صدره أنين ممزق طويل .. وما أن وصل إلى بيته الموحش الكئيب ، حتى استجمع قواه وشتات فكره .. وأمسك بقلمه وشرع ينظم تلك العواطف المتضاربة فى قصيدة تسجل مأساة حبه .. وهى من أشهر قصائدة التى عرف بها فى تاريخ الشعر الفرنسى وأدبه الرفيع !

وبعد هذا الجهد المضنى .. استغرق الشاعر فى نوم عميق طوال اليوم وحتى منتصف الليل التالى .. وقام موسيه وقد شعر بنشاط طارئ غريب .. رغم إعيائه وهزاله .. فاستجمع قواه ، وحزم أمتعته .. وهمّ بالخروج تاركا بيته .. وتاركا مدينة البندقية بأسرها .. وقبل أن يخرج لاستئجار عربة ليبدأ رحيل

العودة إلى باريس .. ذهب إلى مخدع حبيبته ، حيث كانت جورج صاند مستغرقة فى نوم عميق .. فألقى عليها نظرة وداع طويلة .. استعاد خلالها قصة حبه الغارب الأليم .. والدرس الذى لقنته لـه العبقريـة القاسية وتمثل فى خاطره تلك الأيام الرائعة .. حيث كان هو المتدلل المترفع المتمنع .. وكانت المحبة الهائمة المستعطفة .. وكيف تحولت إلى جلاد يشهر سيفه فى قوة وانتقام مروع .. ويسلطه على قلبه وأحاسيسه المرهفة !!

ولكن قلبه ــ أبدا ــ لم يعرف الأحقاد .. ولم يفكر فى أن ينتقم منها يوما من الأيام .. إنه ما زال يحبها ، ومن يحب لا يعـرف الكراهيـة .. لقـد سامحها .. واتخذ من أحداث الأمس منطلقا لغـد أفضل .. لقد عزم وصمم على أن يعود إلى باريس بشخصية رجل ناضج مكتمل .. يستلهم عذاباته وذكرى محبوبته ..ويصوغ من أحاسيسه التى صقلتها الأحداث وصهرتها المأساة . فنا رفيعا وشعرا إنسانيا خالدا على مر السنين والأجيال .. وهكذا صار ألفريد دى موسيه .. لقد ذاب قلبه بين أشعاره العاطفية الدافئة ، فاستقرت كلماته العذبة الرقيقة فى قلوب الملايين !



وصارت « آلام موسيه » أنشودة درامية شاعرية يتغنى بها المحبون كأنات تذوب من رقتها على الشفاه الحارة المتعطشة للهمس والمناجاة !!

فلنستمع إلى زفراته وأناته فى إحدى قصائده التى أسماها « ليلة أكتوبر » موجها الحديث إلى ربـة الشعر ، وهو يرقب عودة حبيبته صاند ، منتظرا إياها فى حلكة الظلام بإحدى شرفات الفندق فى مدينـة البندقية .. وقد استبد به الشوق والقلق والشك ، واستسلم للآلام المبرحة تعتصر قلبه .. اعتصارا ! لقد كانت رحلتهما إلى البندقية رحلة غرام فى أولها .. ولكنها تحولت إلى رحلة عذاب وانتقام .. أفرزها موسيه فى أشعاره الخالدة ! قال :

●● **أذكر أننا كنا فى ليلة محزنة من ليـالى الخريف . وقد أخذت همسات الريح الشامتة تعبث** بعقلى المرهق الواهن وقلبى الجريح ــ وقفت بالنافذة أنتظر عودتها وكأنى أتقلب على جمر النار .. أرهفت السمع .. وزاغ منى البصر ، وضاع من فكـرى الصواب ــ وجثم على صدرى ضيق شديد . ينذرنى بخيانتها ، ورنوت إلى الطريق أمامى .. فبدا لى قاعا موحشا إلا من بعض الأشباح الكئيبة التى تمر مسرعة وبيدها مشاعل تلهث تحت صفعات الريح الباردة .. تلك الريح المتسللة إلى حجرتى تداعب بابى المنفـرج قليلا ، فيبعث إلى أذنى صوتا مكتوما كأنين البشر .. استسلمت للهواجس القاتلة وعبثا أحاول أن أستجمع قواى المتخاذلة .. ودقت الساعة .. وكأنها مطارق تضرب رأسى بقسوة .. ولكنها لم تعد !! حنيت رأسى فى انكسار أقلب البصر بين الطريق الموحش الرهيب وجدران البيوت الصامتة .. آه لو أطلعتك على النار المحرقة التى أضرمتها تلك المرأة القاسية بين جوانحى .. ولكننى أحبها وكم حاولت مرارا .. وبكل قواى المتهالكة أن أحطم أغلالى ، وأسترجـع فى خاطرى كل المحن التى أنزلتها بى حبيبتى المستبدة .. ولكن جمالها وحرارة حبها فى فؤادى .. يغرقنى دائما فى بحر من السكينة والاستسلام لتهدأ آلامى .. وأعود فأغفر لها !!!

حسناء باريس
بين
الحب والسياسة

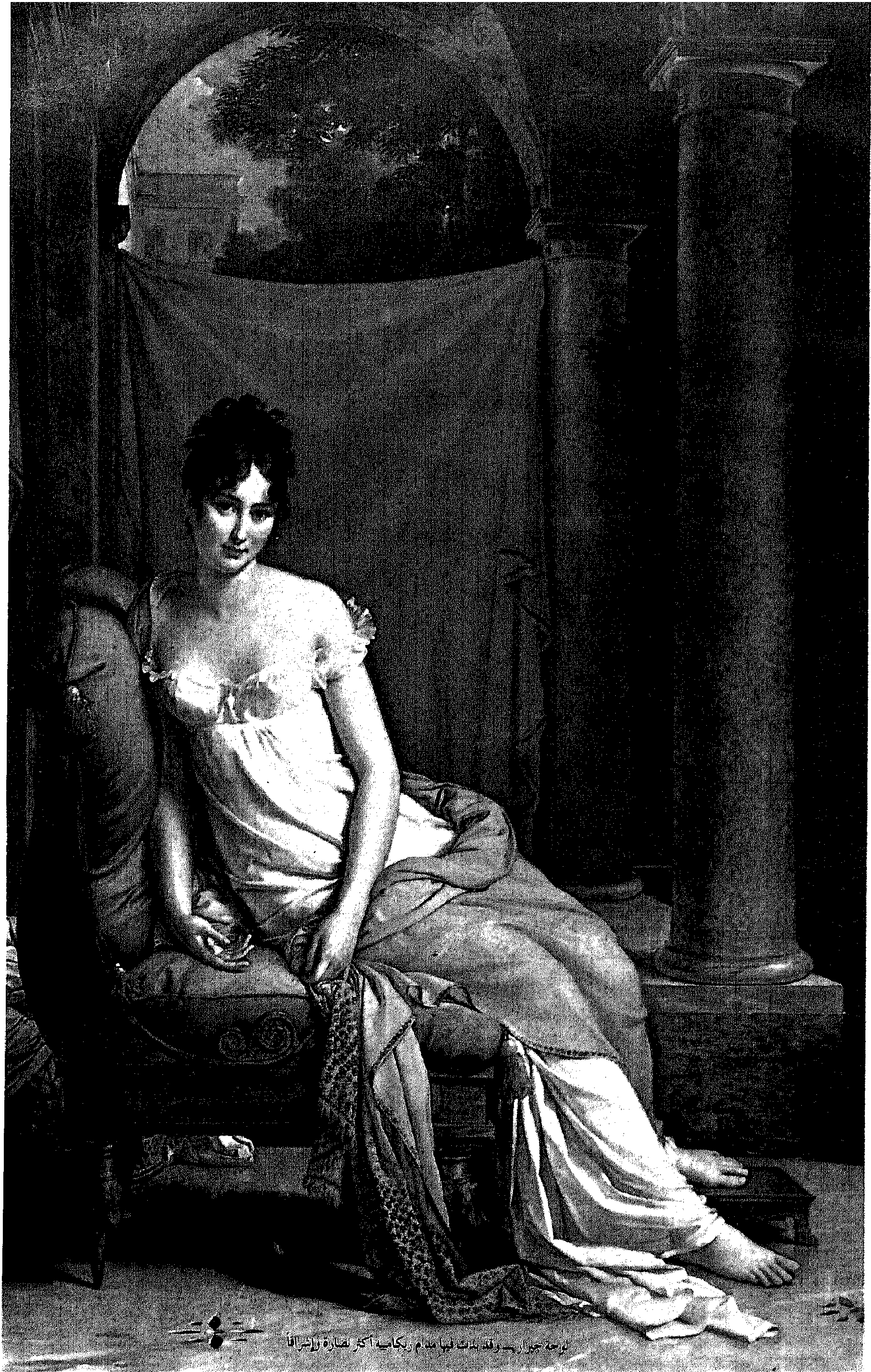
« كانت حسناء زمانها ، وفى صالونها نجوم العصر فى الأدب والفن والسياسة ، بينما كان الفنان يرسم صورتها لمح صورة أخرى لها ، قد رسمها تلميذه ، فجمع فرشاته وألوانه ، وترك لوحتها قبل أن تتم » .

* * *

باريس عاصمة فرنسا ومدينة النور .. لها تاريخ ذو شئون وشجون مع الفن والفنانين والثقافة الإنسانية بصفة عامة ، ولا يمكن لأى باحث فى مجال الفنون الجميلة إلا أن تكون باريس محورا لاهتماماته ، وذلك منذ أفول عصر النهضة الإيطالى بأساطينه العظام فى القرن السادس عشر ، لكن معظم الآثار الفنية القيمة التى ظهرت فى فرنسا خلال القرون الثلاثة التى سبقت الثورة الفرنسية كان إما مستوردا أو مسلوبا باعتباره من غنائم الحرب ومنذ أن استقدم فرنسيس الأول فى عام ١٥١٦ رسام عصر النهضة الإيطالى الأشهر ، « ليوناردو دافنشى » لتزيين البلاط الفرنسى بإبداعاته أصبح الاهتمام بالفن وإكبار شأنه من التقاليد المتوارثة بين رجال الحكم فى فرنسا ، فلما حل القرن الثامن عشر — وهو قرن الصحوة الفنية والوعى الثقافى فى عواصم العالم المتحضر آنذاك — وجدنا أن البلاط الفرنسى قد استقطب خيرة الرسامين الذين أنجبتهم البلاد ، فوجدوا أنفسهم منساقين إلى إرضاء تلك الطبقة الأرستقراطية المترفة ، فبالغوا فى إظهار الجماليات المثالية ، والإبهارات البصرية ، بكل ما تنطوى عليه من الانغماس فى البهرجة والرونق والبريق الزائف ، حتى صارت أعمالهم الناعمة الحالمة أقرب إلى الخيال الوردى من تجسيد الواقع ، وكانت تقوم أساليبهم على الزخارف والأقواس الملتفة فى انحناءات لينة ، كأنها قواقع تلتف حول بعضها ، ولذلك عرف هذا الأسلوب فى تاريخ الفن باسم « الروكوكو » Rococo ، وهو اسم مقتبس من الكلمة الفرنسية Rocaille ومعناها النقوش القوقعية الشكل ، كما أطلق على هذا النوع من الفن اسم « فن البلاط » .

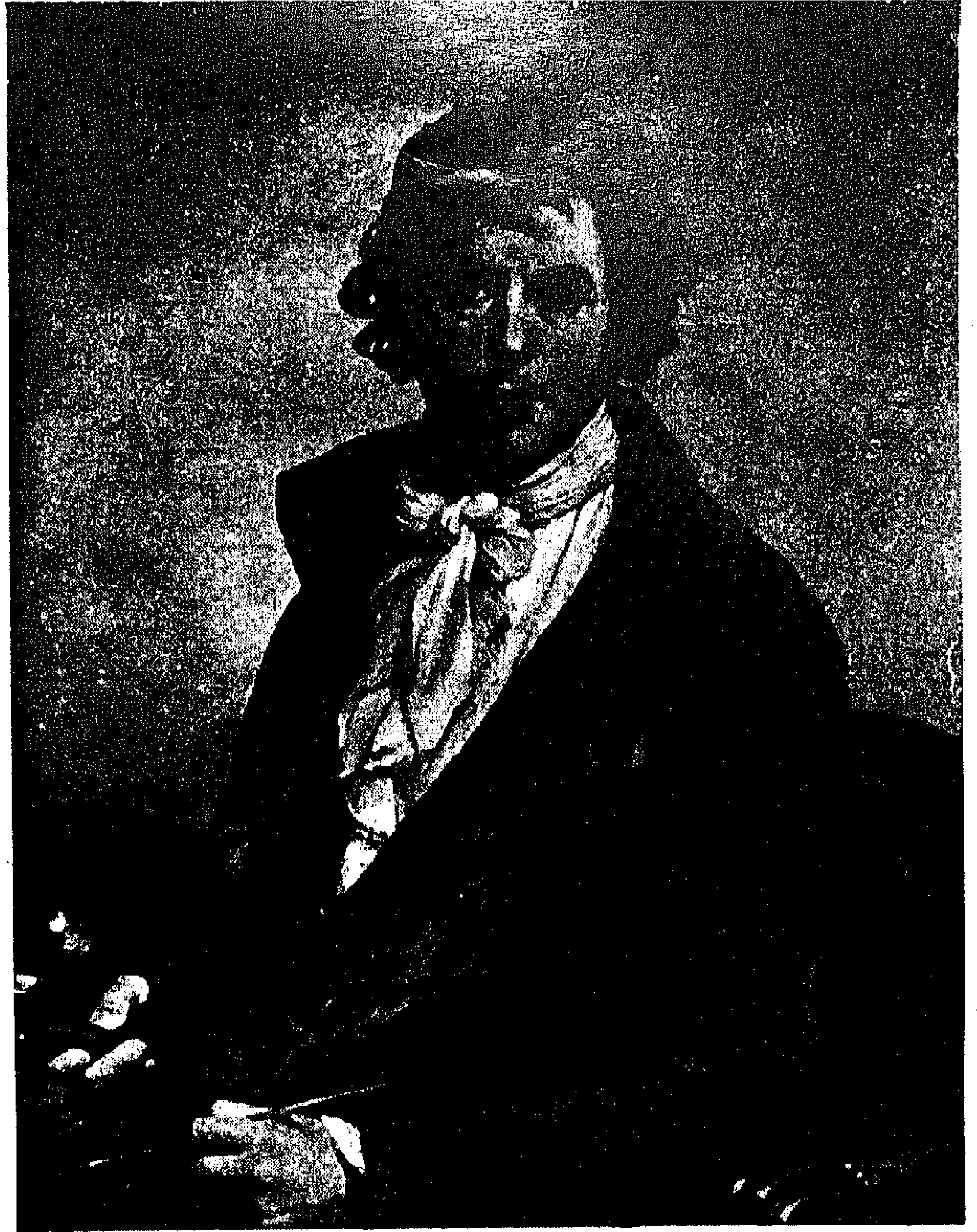
وهنا يختلف الأمر بين جدية الأبحاث الفنية والمضامين الرصينة التى رأيناها فى عصر النهضة الإيطالى فى القرن السادس عشر ، وبين هذه الإبهارات الشكلية المترفة التى غرق فيها فن البلاط « الروكوكو » الفرنسى فى القرن الثامن عشر .

فالأول فن عبقرى ، ذو قيم عبقرية مبدعة ، والثانى فن زخرفى ، يقوم على إرضاء متطلبات البذخ و « الأرستقراطية » وكما هو معروف ، فإن لكل فعل رد فعل ، وبقدر التطرف فى الأمور تكون ردود أفعالها متطرفة ، فقد حدث فى عهد لويس الخامس عشر أن كشفت الحفريات التى كانت جارية حينذاك فى إيطاليا عن أطلال وتماثيل وصور فنية رومانية ، تحاكى فى رصانتها الفن الإغريقى القديم (وهو أصل الفن الرومانى) ، فكانت هذه المكتشفات بمثابة بعث

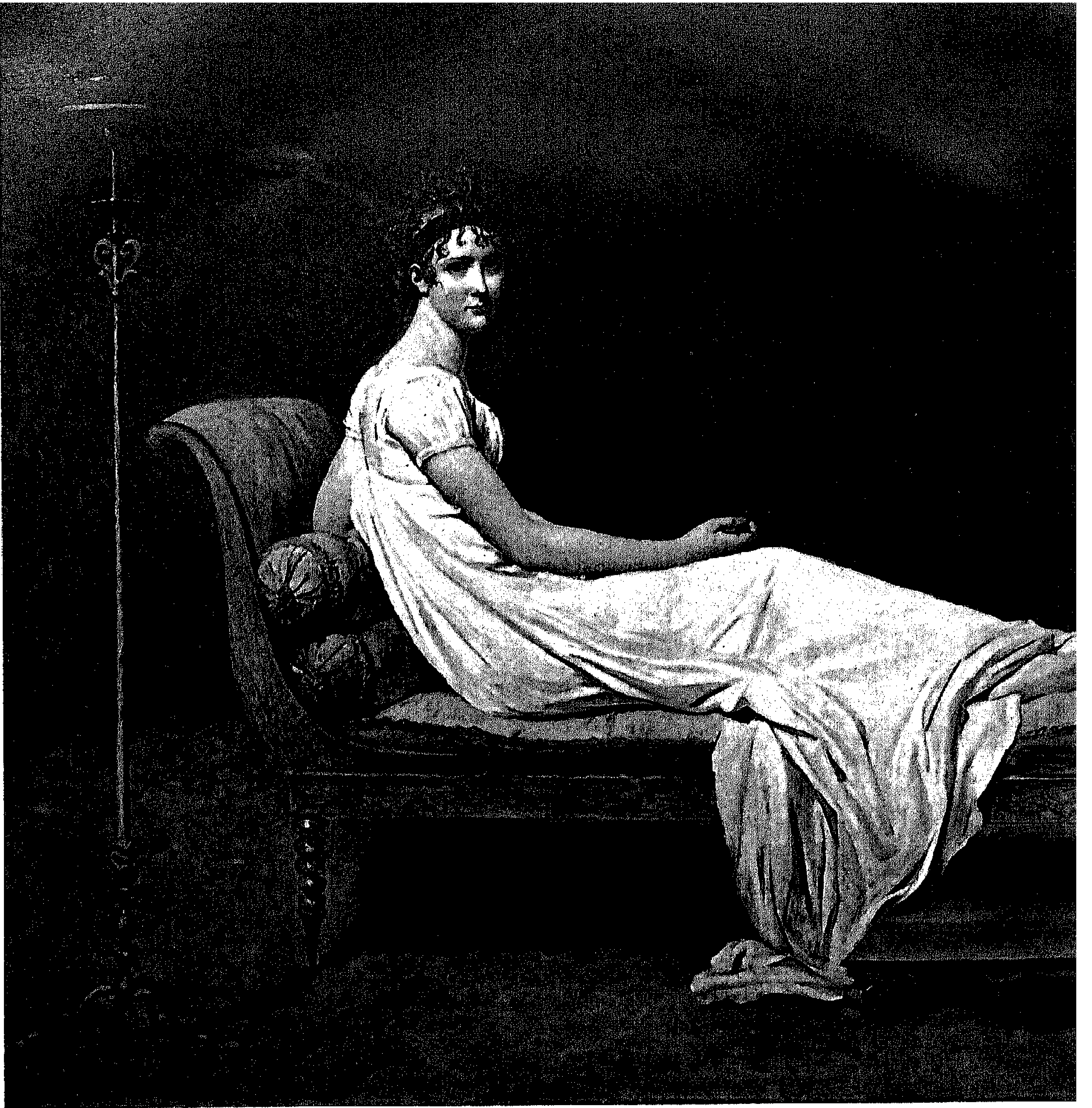


لوحة جيرار ـ وقد بدت فيها مدام ريكاميه أكثر نضارة وإشراقاً

جاك لويس دافيد ــ صورة رسمها لنفسه فى عام ١٧٩٤



جديد للروح الوطنية فى نفوس الشباب الأوروبى كله ، ووجد فيها الفنانون متنفسا للتحليق فى آفاق الأصالة والتراث العريق ، وتمردا ــ فى الوقت ذاته ــ على فن الرفاهية الزائف « الروكوكو » ، وأصبح هذا الشعور الدافق بالوطنية الشعبية يمثل حركة فنية مستعرة ، تزعمها رسام شاب ، قدر له ــ بعد ذلك ــ أن يصبح فنانا عظيم الشأن والنفوذ ، هو (جاك لويس دافيد) . كان نهج دافيد فى الفن هو الغوص فى التاريخ الرومانى ، لينتقى منه المواقف البطولية ، والموضوعات الوطنية ، ويصيغ منها لوحاته ، ولا سيما بعد قيام الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ ، والتهاب الشعور الفرنسى العام ، وتحوله إلى تيار جارف ، ينادى بالحرية فى الشعوب الأوروبية كلها ، وقد دعمت الثورة فنانها « دافيد » بانتخابه عام ١٧٩٢ عضوا بالجمعية الوطنية ، وعضوا بمحكمة الثورة الفرنسية كذلك ، فأصبح زعيم المصورين فى فرنسا ، يسير بأمره كل ما يتعلق بشئون الفن ، فقضى بقبضته الحديدية على كل أثر لمذهب « الروكوكو » ، وفرض مذهبه الجديد المرتكز ــ أساسا ــ على العودة إلى الجذور ، وإلى الكلاسيكية الإغريقية القديمة ، تلك التى تتميز بالجمال الهادئ ، وبالأسلوب الرصين البارد المتزن ، ذى الخطوط القوية المستقيمة ، وقد سمى هذا الاتجاه باسم الكلاسيكية الجديدة ، أو الكلاسيكية العائدة ، وإذا كان « دافيد » قد جعل الرسامين فى عصره يحسون بأن المقصلة فى انتظار رقابهم إذا لم يهتفوا فى لوحاتهم بسقوط « الروكوكو » ، وبحياة الكلاسيكية الجديدة ، فلا شك أن هذا هو السبب الرئيسى فى



انهيار مدرسته بعد أفول نجم الثورة الفرنسية التى نصبته حاكما للفن ، وبذلك ضرب مثلا صارخا للاستبداد الفكرى فى التاريخ .

نفى دافيد إلى بروكسل عام ١٨١٦ ، عقب انكسار نابليون ، ونفيه إلى « سانت هيلانه » ، وبقى دافيد فى منفاه حتى مات عام ١٨٢٥. وإن كانت أهدافه الفنية وطنية خالصة ، قد تم بها تحرير الفن الفرنسى من ميوعة الأداء ، والانغماس فى الزخرف السقيم ، إلا أن « دكتاتوريته » الطاغية لم تترك أدنى قسط للفنانين — فى عصره — من الاختيار ، أو الاقتناع بحرية ، بدلا من إلزامهم برهبة متسلط جبار . يذكر تاريخ الفن لدافيد نفسه — كفنان — أنه أحد العباقرة العظام عبر قرون التاريخ ، فله إبداعات رائعة كثيرة ، يزدان بها كثير من المتاحف داخل فرنسا وخارجها ، من أهمها رائعته الشهيرة « مدام ريكامييه » التى رسمها عام ١٨٠٠ ، وهى إحدى تحف متحف اللوفر المميزة يقف أمامها زوار المتحف الكبير مشدوهين ، يبحثون عن شىء ما ، ثم تتركز عيونهم على أسفل اللوحة من جانبها الأيمن ، فيدركون أنها لوحة لم تكتمل ، ولهذا قصة سنعرفها بعد أن نستعرض معا حياة صاحبة اللوحة ، الفاتنة الفرنسية مدام ريكامييه .



رائعة جرو GROS مدام ريكاميه

حسناء العصر بين الفن والسياسة :

كانت أجمل نساء ذلك العهد المليء بالمتغيرات والتحولات والحركة والحيوية والحروب والثورات ، كما كانت مصدر إلهام للفنانين فى عصرها من رسامين وشعراء وأدباء وسياسيين . يذكر التاريخ أنها قادت تحولا عظيما فى مفاهيم الطبقات المثقفة ، وارتدت بالذوق الفرنسى — فى وقت العنف والثورة — إلى سابق عهده من الرقة والشاعرية ، كان اسمها « برنار » ، وهى فتاة رائعة الحسن ، آسرة الجمال ، رشيقة القوام ، ساحرة اللحاظ ، وعلى الرغم من هذه الفتنة الصارخة التى ينبض بها جسدها الرشيق ظل أبوها لا يطمح إلا إلى زواجها من رجل مناسب ، من طبقته الوسطى التى ينتمى إليها ، وساق القدر إلى طريقها أحد الأثرياء البارزين فى المجتمع الفرنسى ، وهو « جاك ريكامييه » الذى ما أن وقع بصره عليها حتى أسرع إلى والدها الطبيب يطلب يدها ، ورغم أن فارق السن بين ريكامييه وبرنار كان كبيرا — كان أكبر من والدها — إلا أن سلطان المال قد أذاب كل الفوارق ، فهو أحد رجال المال والبنوك المرموقين فى باريس .

تم زواجهما وهى لم تزل فى الخامسة عشرة من عمرها ، وحملت الاسم الذى عرفت به فى التاريخ ، وهو مدام ريكامييه . كانت هذه الفاتنة متوقدة الذكاء ، ذات تطلعات طموحة ، وآمال عراض ، كرست فكرها وأعدت نفسها لبلوغ غايات كبيرة ، فأقبلت على الأطلاع ، وتعلم اللغات ، واكتساب الثقافة ، وقد أتاح لها ثراء زوجها أن تقيم صالونها الشهير لرجال الفن والأدب والسياسة ، يؤمونه كل مساء ، ملتفين حولها ، وكانت بينهم كالنجمة المتألقة ، تنتقل فى رشاقة من مكان إلى آخر ، كالفراشة المبهجة ، يتأملها الفنانون والشعراء ، فيبادرون إلى إفراز انطباعاتهم فنا وشعرا ، ينير وجه الحياة .

كان ريكامييه يعرف — تماما — أن زوجته فاتنة ساحرة آسرة ، وأنها مطمع لهذا الجمع الزاقى الذى يلتف حولها فى الليل والنهار ، لكنه كان يتباهى باقتنائها ، كما يتباهى باقتناء التحف النادرة والدرر الثمينة ، فهذا يكفيه . !

كان ذلك الجمع نخبة ممتازة من رجالات الدولة ومفكريها وفنانيها ، ومن العجب أننا رأينا مسيو ريكامييه يفخر فى أحاديثه بجمال زوجته وبعشاقها — أيضا — من هؤلاء الرجال العظام ، والمعروف أن المعايير فى أخلاقية العلاقات آنذاك لم تكن بنفس مقاييسنا التى تحكمها القيم والنخوة والفضيلة ، ومن هؤلاء الكبار الذين أوقعتهم فى حبائلها وهم من رواد صالونها الشهير لوسيان بونابرت ، والبرنس أوجسناس ، وشاتوبريان ، وقد حظى شاتوبريان (وهو من أعظم الساسة والأدباء فى فرنسا) بمنزلة خاصة لدى مدام ريكامييه ، فقد كان يقاربها فى السن ، حيث كان من مواليد عام ١٧٦٧ بينما كانت من مواليد عام ١٧٧٧ ، ولهذا أسفرت هذه العلاقة الوطيدة بينهما عن أعمال لشاتوبريان ، تعتبر من آيات الأدب العالمى .

وعلى الرغم من مآثر هذه الفاتنة على الفن والفنانين نجد الفنان أمامها بين شقى الرحى ، يبدع فنا ويحلق فى نور إلهامها ، أو يحترق بنارها فى بعض الأحيان ، كما حدثنا بذلك تاريخ الفن فى قصص كثيرة عن ضحايا الملهمات الفاتنات ، وإذا كان صالون مدام ريكامييه منتدى من أهم صالونات الفكر والفن فى باريس وكان يؤمه صفوة من العظماء فى جميع المجالات ، إلا أن الرجل هو الرجل فى كل مكان وزمان ، وليس من المعقول أن يرى امرأة فاتنة ذات جمال أخاذ ويستطيع أن يقاوم سحر أنوثتها الطاغية ، ولذلك وجدنا أن هذه الحسناء قد لعبت بعقول الكثيرين ، وعبثت ما طاب لها العبث بأفئدة الرجال ، حتى تألقت فى المجتمع الفرنسى ، وصار لها النفوذ السياسى


جيرار


شاتوبريان



مما جعل نابليون بونابرت يأمر بنفيها عن فرنسا . لأن طموحها قد دفعها إلى أن تتزعم أنصار الملكية المناهضين لسياسة نابليون ورجالات الثورة . وفى عام ١٨٠٥ نكب زوجها بخسائر مالية جسيمة أتت على ثروته ، وانفض الجميع من حولها ، ولم يبق منهم إلا صديقها المخلص أديب فرنسا المرموق شاتوبريان ، وقد كان — فى واقع الأمر — هو سيد القصر بلا منازع . عاشت مدام ريكاميبه حتى الثانية والسبعين من عمرها ، وماتت عام ١٨٤٩ ، بعد أن فارق الحياة رفيق عمرها شاتوبريان قبلها بعام واحد .

ولم تكتمل اللوحة

ذكرنا أن لوحة دافيد لملهمته الفاتنة لم تكتمل فى بعض جوانبها ، وقلنا إن لذلك قصة ، فقد أقبل الفنان (زعيم فنانى فرنسا) على رسم اللوحة مبهورا بجمال مدام ريكاميبه ، وشخصيتها ، وجاذبيتها ، وتوالت الجلسات ، حتى أشرفت اللوحة على الانتهاء ، لكن





الفنان اكتشف فى ركن قصى من أرجاء البهو الكبير الذى كان يرسم فيه أن هناك لوحة أخرى للفاتنة ، يرسمها لها تلميذه جيرار ، ولم يكن جيرار بالفنان السهل ، فقد شب عن الطوق ، وأخذ ينافس أستاذه فى رسم كبار الشخصيات ، بل لقد رسم نابليون نفسه ، وعندما فوجىء دافيد بمنافسة جيرار له فى رسم حسناء باريس ، وفى ذات الوقت الذى يرسم لها صورتها ، وفى نفس المكان من قصرها ، عزم أن يتوقف عن العمل عند هذا الحد ، وعندما أكملت الفاتنة زينتها ، ودخلت البهو لتأخذ جلستها أمام الفنان دافيد لم تجده ، بل وجدت ورقة قد كتب عليها : « إنى أعلم أن للغانيات هوى فى نفوسهن ، ولكن للفنان أيضا كرامته التى إذا تنازل عنها ضاع منه كل شيء — فاسمحى لى أن أتوقف عن العمل بلوحتك عند هذا الحد ، ويكفيك أن إحدى اللوحتين ستكون مكتملة تماما ، وأنا لا أنتظر منك شكراً » وبالرغم من أن لوحة دافيد قد حظيت بالنصيب الأوفر من الشهرة والتقييم الفنى كانت مدام ريكامييه تعتز أكثر بلوحة جيرار ، لأنه أضفى عليها جمالا وحيوية أكثر من لوحة أستاذه دافيد ، كما أنه قد اقتطع من سنها عدة سنوات ، فبدت فى لوحته (التى انتهى من رسمها عام ١٨٠٢) كأنها لم تبلغ العشرين بعد ، والمرأة هى المرأة دائما .

أما دافيد — وهو صاحب مذهب الكلاسيكية الجديدة ذات الجمال البارد الرزين — فقد افتقر فى تعبيره إلى السخونة ، والإثارة التى كانت أهم ما تحرص عليه حسناء باريس ! وعندما ننظر إلى الصورتين نرى أن جيرار قد نجح فى إضفاء هذه المعانى على ملهمته العابثة اللعوب !

هكذا كانت مدام ريكامييه ذات جمال وطموح وذكاء متقد ، ولذلك سيطرت على عقول الرجال وقلوبهم ، فليس بالجمال وحده ، ولا بالذكاء وحده ، تتربع حواء على عرش التألق فى دنيا الرجال .

لوحتا دافيد وجيرار ... والفرق الواضح بينهما

سلطان الجمال في مجتمع القمة

كانت العهود الأوروبية قد استأثرت بسيطرة الحياة العاطفية التى بلغت ذروتها فى القرن الثامن عشر .. فجعلت قضايا الجمال والحب فوق كل اعتبار ، وتبارى الفنانون العظام فى اتخاذ الفاتنات وسيدات القصور وحسان المجتمع مادة ملهمة لعبقرياتهم . وهكذا رأينا حكام باريس — مدينة النور والفن ومركز الحضارة العالمية آنذاك — يتهافتون على اتخاذ الخليلات والاستحواذ على أجمل النساء ، ويطلقون أيديهن فى كل ما يتعلق بمقاليد الحكم ورسم سياسة الدولة ! وكانت هؤلاء المحظيات يصدرن التعليمات والأوامر لتنفذ على الفور دون أى جدل أو تحفظ .. بعكس الملكات المتوجات (الزوجات) . فكانت توصياتهن قابلة للمناقشة والرفض فى أغلب الأحيان . وكانت نداءات الفيلسوف الفرنسى الشهير جان جاك روسو التى تحض على حياة الشاعرية والفطرة وإطلاق العواطف على سجيتها .. تؤجج تلك العلاقات الأوربية وتقلب موازين التعقل والاحتشام .

وظلت الحياة الفرنسية تسير فى سلاسة وتنساب فى رقة وشاعرية حالمة على هذا النحو . حتى انقضت عليها الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩ ، فزلزلت الأرض وقلبت كل الأوضاع والموازين ، إذ اختفى الحب العاطفى ، وتوارت الرومانسية ، وسيطرت غلظة الجنود وشراسة الأجواء العسكرية . وأصبحت الرغبات جامحة والنزوات خاطفة كالهجمات فى المعارك الحربية المستعرة .

وبذلك ، تحول الحب إلى دائرة الغريزة ، متجردا من أسباب الشاعرية ، واتخذ طابعا شعبيا يتسم بالخشونة واللامبالاة وعدم الاكتراث ، فلا وقت للرومانسية وسط السباق المحموم للسيطرة وسفك الدماء !

وكان نابليون يقر هذا السلوك شريطة أن يعرف الجندى كيف ومتى يترك رفيقته إذا دوى نفير الحرب ، ولا بأس من أن يقترن بها بعد عودته من ميدان القتال ليستولدها أكبر عدد من الأبناء لخدمة الوطن وخدمة الإمبراطور .

وهنا يحق لنا أن نتساءل : هل كان نابليون برضائه عن مثل هذه العلاقات التى تحكمها الغرائز الشرسة والمتع الجسدية العابرة ، يعتقد حقا بمنطقيتها ومناسبتها للحياة الفرنسية وطبيعة القيادة الباريسية التى طالما تغنت بمبادئ جان جاك روسو الشهيرة ؟ لقد انقلب الإمبراطور إلى داعية للعنف والصلف والخشونة ، وارتد إلى حب السيطرة الرومانية المتاصلة فى عروقه . وأخذ يناقض نفسه .. فبعد أن كان يقول : « إن الحب أسمى علاقة انطوت عليها نفوس البشر . وهنا فى باريس أجمل نساء العالم .. فلا غرو أن يصبحن شغلنا





نابليـون وجـوزفين

الشاغل » ! وبعد أن رسم له الفنانون عشرات من الصور في جو رومانسي بين حسان باريس وجدناه وقد ارتد إلى النقيض إذ يقول : « إن الحب لعبة الكسالى والعاطلين ، وهو مرض ينتاب النفس ويصيبها بالوهن والاستسلام » !

بل إنه قد تمادى فى تحوله هذا وطالب بأن يقتصر دور المرأة على أعمال البيت وإنجاب الأطفال وليس أكثر من ذلك !!

وكان وراء هذا التحول الغريب سر كبير ! .. ولنبدأ الحكاية :

عقدة الانطواء والشعور بالفشل

●● فى إحدى الحفلات الساهرة السامرة فى قصر رئيس الحكومة (حكومة الإدارة الثلاثية) التى تمخضت عنها الثورة الفرنسية ، وقف صاحب الدار « باراس » وبجانبه خليلته « تيريزيا تاليان » يرحبان بضيوفهما وقد غلب على الرجال طابع الجد والكبرياء والتأنق .. تلك المظاهر التى كانت من مستلزمات القادة الذين اهتز العالم كله لثورتهم التحولية الدامية ، كما كانت الأوسمة والنياشين التى تتألق على أزيائهم العسكرية ، تبهر الأبصار وتستحوذ على الاهتمام بقدر أكبر مما تثيره أناقة النساء وعطورهن النافذة ! وكانت عينا باراس عالقتين فى معظم الأحيان بفتاة رشيقة تتهادى مختالة بجمالها ورشاقتها كالفراشة التى تتنقل بين الزهور وتتألق تحت ثريات القصر المبهرة .. وبين الحين والآخر ، تنظر إليها تيريزيا نظرات صفراء تملؤها الغيرة التى تتوارى خلف الابتسامات المصطنعة الباهتة . وكانت هذه الفتاة الرشيقة هى نجمة الحفل التى سرقت أنظار الرجال فأصبحت موضع اهتمامهم .. بقدر ما كانت موضع الحسد والحقد من نسائهم !

إنها « جوزفين بوهارنيه » ذات الجمال والدلال والذكاء الطموح والدهاء والنزوات العابثة التى لاتحدها حدود ! كانت جوزفين بالأمس خليلة لأكبر قواد فرنسا وهو « الجنرال هوش » . وها هى ذى اليوم تستولى على قلب رئيس حكومة الثورة الفرنسية « باراس » .. كما أن صداقتها بغريمتها تيريزيا صداقة من نوع فريد : لقد اتفقتا على أن تتقاسما العلاقة مع باراس .. لأنه النفوذ والسلطة والحماية .. فكانت تيريزيا الواجهة الرسمية المعلنة .. وتركت لجوزفين أن تلعب من وراء الستار كما تشاء !

●● ودخل نابليون .. الشاب الخجول الذى يعانى من الشعور بالضآلة والانطواء .. وانبهر بهذه المظاهر الأرستقراطية الباذخة التى لم يألفها من قبل .. وأخذ ركنا قصيا من القاعة الفسيحة التى



جوزفين بوهارنيه (من رسم الفنان إيزابى عام ١٧٩٨)

يحتشد فيها الجمع الغفير من النساء والرجال .. وجلس يتسلى بإمعانه النظر فى فراشة الحفل الرشيقة جوزفين .. ولفت انطواؤه وصمته نظرها .. وهى التى لم تتعود أن ينظر إليها رجل دون إطراء جمالها ومفاتنها .. وطال نظره إليها .. كما طال تفكيرها فى هذا الضابط الصامت الخجول ! وقفزت إلى ذهنها على الفور فكرة شيطانية : ماذا لو ألقت بشباكها حول هذا الضابط الخجول .. لتلعب به فى تجربة عابثة فريدة ؟ إنه يتلمس طريقه إلى المجد فى ركاب الثورة التحولية الفتية .. وربما صار شيئا ذا قيمة فى المستقبل القريب .. وبدأت اللعبة لفورها فقد أخذت مكانها بجانبه فى مجلسه النائى بركنه القصى .. وأسبلت جفونها ، وبادرته بحديث الهمس وكأنها تناجيه !

— إنها أول مرة أراك فى حفلات الرئيس .

— سيدتى .. إننى مشغول دائما فى مهامى العسكرية التى أكلف بها .. كما أننى لم أتعود على حضور مثل هذه الحفلات .

— ولم لا ؟ .. إنك شاب وسيم ، وربما أصبحت قائدا مشهورا .. إن أى فتاة تتمنى أن تحظى بصداقتك .

ولكنى ألاحظ أنك تحب العزلة والانطواء .. وهذه من سمات الفنانين والمفكرين والعظماء .. ويجب أن تعتبرها من مميزاتك ، وأنا مثلك أحب التأمل والاعتكاف فى بعض الأوقات .. وقد تسمع — أيها الجنرال — ما يشاع عنى من علاقاتى برجال القمة .. وربما كان بعضه صحيحا .. إن الجميع يودون التقرب منى .. ولكن الأهم : من يروق فى نظرى ؟ أنا سعيدة بلقائك حقا .. وآمل أن أراك فى مناسبات كثيرة قادمة .

— سيدتى .. هذا كثير جدا من جوزفين التى يعجب الكثيرون بشخصيتها وجمالها وذكائها . إنه أكثر مما أستحق منك .. ولولا أن السيد باراس قد استدعانى ليكلفنى بمهمة رسمية ، لما حظيت بلقائك .. وكيف لى أن أحضر حفلات أخرى كهذه ؟

— لا بأس .. اترك هذه المهمة لى ، وسأتولى أمرك مستقبلا إذا سمحت لى ياجنرال .

— نابليون .. يا سيدتى ، اسمى نابليون بونابرت .

● ● وأفاق نابليون على يد باراس الخشنة تضرب كتفه ، وهو يقول فى لهجة آمرة ودود : تعال إلى غدا فى لجنة الأمن العام ، فعندى لك حديث من الأهمية بمكان .


باراس Barras

● ● فى طريق عودته إلى بيته .. كان نابليون لا يرى فى مخيلته غير طيف جوزفين ، وهمساتها تملأ مسامعه .. وكلماتها المشجعة الطموحة تداعب أحلامه فى المجد والتفوق .. إنه حتى تلك الليلة كان يحب « ديزيريه » أخت زوجة شقيقة الأكبر « جوزيف بونابرت » ، وطالما حلم بأن يتزوج منها . ولكن أهلها لم يجدوا فيه الصهر المناسب ، لظروفه المالية المتعثرة ، ولإحساسه الدائم بالضآلة والفشل والانطواء .. ولكنه الليلة .. قد حظى



برضاء جوزفين .. إنها آثرت الجلوس بجانبه والحديث معه .. بل لقد أثنت على وسامته وتوقعت له مستقبلا حافلا مشرقا .. لقد تمنت أن تراه .. وهى إذا أرادت فعلت .. إنها جوزفين .

وتحول الحلم إلى واقع ..

كانت المهمة الخطيرة التى كلف بها نابليون هى الدفاع عن الثورة والقضاء على التمرد فى داخل البلاد ، وأظهر نابليون كفاءة نادرة فى القيادة حتى استقرت أمور الثورة .. وتردد اسمه على كل لسان .. وقررت القيادة الثلاثية أن تكرم نابليون .. فأقامت له حفلا كبيرا للاحتفاء به .. وكانت جوزفين هذه المرة تحتل مكانها بجانب فارسها صاحب النصر الكبير .. وعلى غير العادة ، كان نابليون واثقا من نفسه لبقا طلقا أثبت وجوده من موقع الكبار ، بل لقد أصبح محور الاهتمام من النساء قبل الرجال .. وسبحان مغير الأحوال !

أما الفاتنة اللعوب ، فقد عقدت العزم على أن تقلب اللعبة من اللهو والتسلية والعبث ، إلى الجد والحقيقة والواقع ! ولا سيما وقد أيقنت من تحول باراس عن الاهتمام بها يوم بعد يوم .. وأيقنت فى الوقت ذاته بالمستقبل الباهر الذى ينتظر نابليون فى معمعة الثورة العارمة .

وما أن انفض الحفل .. حتى كان المحتفى به وفاتنته يهبطان الدرج فى الطريق إلى بيت القائد المنتصر وهكذا وقع نابليون فى الشراك الناعمة .. ونجحت جوزفين فى تحقيق أولى خطوات رحلتها الغرامية مع فارسها الجديد .. وعزمت على أن تكمل المسيرة كما خططت لها فى حساباتها الطموحة .

وكان لابد لها من لقاء المواجهة مع باراس .. وانتهت الصفقة بينهما بأن يهيئ الرئيس كل الظروف أمام نابليون .. لكى يتألق فى عالم القيادة .. حتى يكون أهلا للزواج منها .

وخرج كل منهما « باراس وجوزفين » من هذه الصفقة بالربح والقناعة والرضا : فقد تخلص باراس من أثقال مطالبها ونزواتها .. وتخلصت هى من تبعيته والدوران فى فلكه لكى تتفرغ لفارسها الجديد الذى تبنى عليه آمالها وأحلامها الكبار .

والزوج آخر من يعلم

وفى لقاء شاعرى معها ، وعلى مائدتها الشهية فى بيتها الأنيق .. طلب منها نابليون أن تكاشفه بماضيها فى مصارحة كاملة حتى يبدأ رحلة المستقبل بكل الثقة التى تدعم أواصر الحب بينهما ..

وحكت حكايتها كما أرادت هى أن تصوغها .. وأحكمت صناعة الأحداث فيها بحبكة درامية رائعة : لقد هجرها زوجها إسكندر بوهارنية متجنيا عليها وهى الزوجة المخلصة الوادعة المستكينة لجبروته .. (وبالطبع لم تقل الحقيقة : لقد هجرها بعد أن انتشرت فضائحها ومغامراتها الطائشة) .. وأكملت حديثها المنمق :

ــ ولكن الأقدار يا جنرال قد عوضتنى عن الظلم الذى حاق بى ، فساقت إلى أنبل إنسان عرفته فى حياتى .. قائدا شجاعا يذوب رقة وتهذيبا ، وتنم ملامحه عن كل معانى الرجولة والشهامة .. إنه أنت يابونابرت .. لقد أشاعوا أننى خليلة باراس . مع أن الرجل لم يكن بالنسبة لى أكثر من صديق وفىّ ، فلم يحاول يوما أن يمس شعرة منى .. وبالتالى لم تهتز له عواطفى للحظة واحدة .. وأقسم لك أن هذا القلب الذى أحبك الحب كله اليوم .. قد ظل بكرا لم يعرف سيدا له من قبل ، إلى أن أتيت فاستوليت عليه ، لك وحدك .. وإلى الأبد يا سيدى !

... وذابت الشمعة ــ أو كادت ــ فوق المائدة الصغيرة التى شهدت حكاية شهر زاد باريس ..

وارتسمت على ملامح قائدنا مظاهر الانفعال والتأثر والإشفاق على هذا الملاك الطاهر الذى ظلمـوه ولوثوه بافتراءاتهم الكاذبة !!

وهنا .. نهض نابليون متثاقلا إلى عربته التى أقلته إلى بيته ، وأجل التفكير فى فاتنته حتى الصباح .. وعلى فراشه .. لم يذق طعم النوم .. حتى ملأت أشعة الشمس المتسللة من النوافذ الزجاجية أرجـاء الحجرة .. وكان أول ما فعله فى صباحه . أن قصد مكتبة ليخط لها رسالة .

دوامة الحب

كتب لها : « حبيبتى .. لم يغمض النوم جفنى حتى الصباح .. لقد نهضت وأنا ممتلىء الوجـدان بصورتك الحلوة الساحرة ، وذكريات ليلة الأمس تسكر حواسى وأنفاسى ، يا جوزفين الرقيقة : ماذا ستفعل بى إلهاماتك الغامرة ؟ إن مجرد تصورك وأنت مهمومة ، أو ألمّ بك أى مكروه يطفئ ابتسامتك المشرقة ، يكفى لأن يحطم قلبى ويسلبنى أسبـاب الحياة ! لقد اكتشفت أن فتنتك الرائعة الدافئـة وجمالك الساحر .. ما هو إلا جزء من مواهـبك الكثيرة ، إن جاذبيتك التى أحالت قلبى إلى ألحان شجية كافية لأن تسعد الدنيا بأسرها ..

إن السعادة التى أحلق فى سمائها الآن ، تزيد حبى لك اشتعالا فى كل لحظة .. فماذا أفعل يا جوزفين .. إننى لم أعد أقوى على الصبر عنك !

ثم ختم الرسالـة بخاتمه .. واستدعـى يـاوره « جينو » ، وأمره بأن يبعث فورا بهذه الرسالة إلى جوزفين .. فانحنى جينو فى أدب أمام سيده وقال له : إن شقيقك جوزيف بونابرت يطلب مقابلتك يـا جنرال،ودخل جوزيف ، وعانق نابليون .. ثم جلس متجهما فى هدوء .. ولكنه الهدوء الـذى يسبـق العاصفة !

●● .. وأفاق جوزيف بونابرت من صمتـه



وشروده .. وسأل شقيقة الأصغر نابليون فى حدة وكأنه يعنفه :

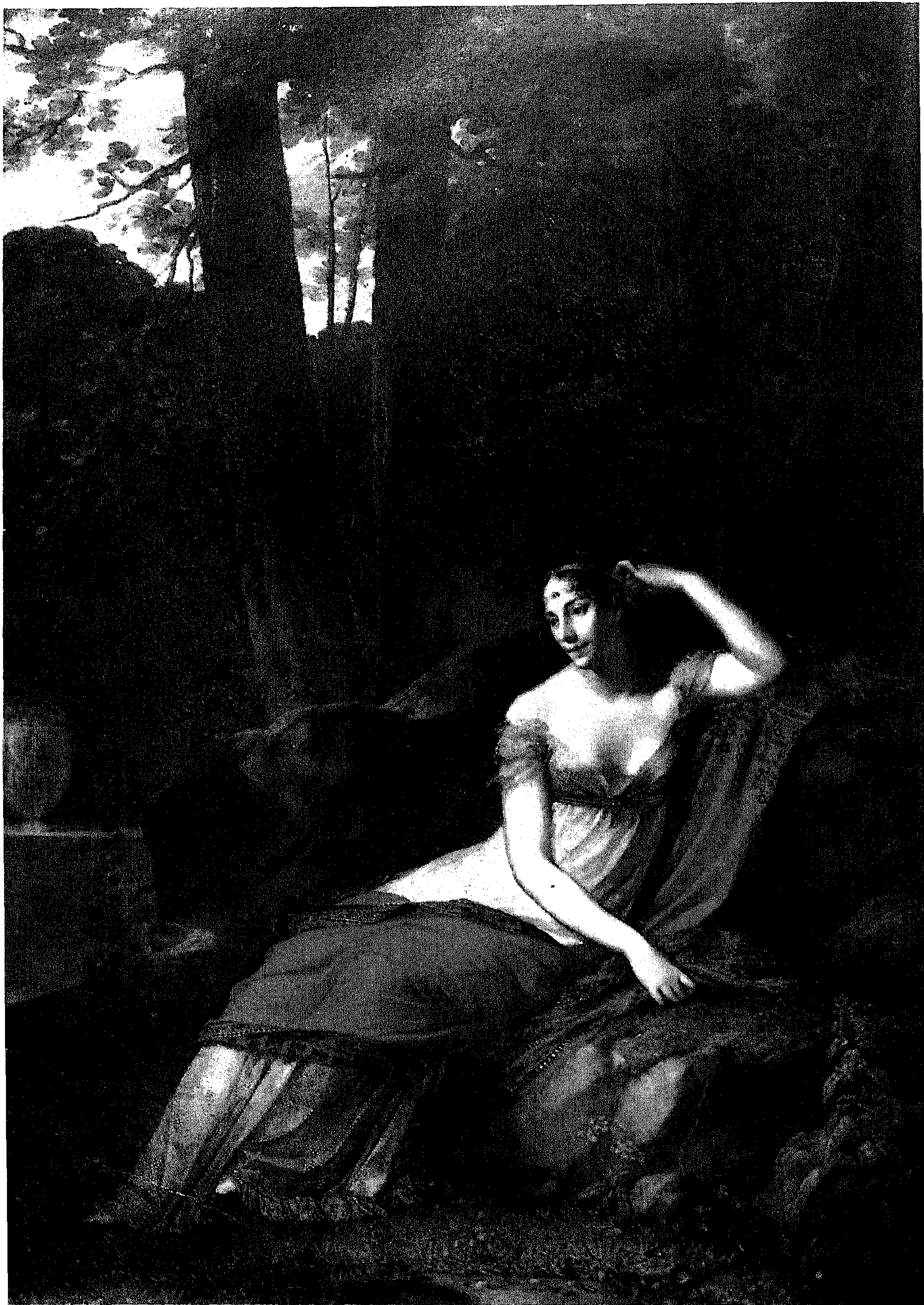
ـــ لماذا تقبل أن تتولى جيش إيطاليا ؟ ألست هنا فى قلب باريس وسط أحداثها وأضوائها المتألقة ؟

وأجاب نابليون برزانته المعهودة وكأنه يلقى درسا على تلميذ طائش :

ـــ يا جوزيف، لن تستطيع أن تفهم ما أهدف إليه، غدا ستتفهم مقصدى عندما يتردد اسمى على كل لسان فى فرنسا .. بل وفى العالم كله .. ويجب أن تتأكد من بعد نظرى وسلامة قراراتى ، ودعك من هـذا الانفعال !

وما كانت هذه المناقشة العابرة إلا مقدمة لما يضيق به صدر جوزيف من أخبار الغانية التى أوقعت شقيقه فى حبائلهـا .. وهنـا أثـار هـذا الموضوع الشائك مباشرة .. فنظر إلى نابليون وسأله :

ـــ لماذا لم تسألنى عن « ديزيريه » هذه المرة ، أنت تعرف أن أمرها يهمنى ، لا لأنها شقيقة زوجتى ، بل لأن العائلة جميعها تريد أن تضع نهاية لقصتك معها .. أم أنها لم تعد تناسب مقامك ؟ .. يبدو أن كل شىء قد تغير فى حياتك .. يا .. سعادة الجنرال !



جوزفين

وشعر نابليون بقسوة لهجته التي لم يعتدها من شقيقة من قبل .. لقد كان جوزيف ليس فقط الأخ الأكبر ، ولكنه بمثابة الوالد ورب العائلة .. ولذلك كان يفرض احترامه على جميع أفرادها .. وها هو ينظر إلى نابليون بنظرات ذات مغزى ويتحدث إليه ، وقد فاضت كلماته بسيل من اللمزات والغمزات والتجريح والمعانى المستترة .. و لم تغب هذه المعانى عن فطنة القائد المغامر .. فبادر جوزيف بقوله :

ــ أعتقد أنك ما جئت إلىّ هذا الصباح إلا لتحدثنى عن أمر خطير .. فقله وأرحنى .. ماذا يدور فى رأسك ؟

فأجاب جوزيف محتدا :

ــ سواء أردت أم أبيت .. فأنا شقيقك الأكبر .. وفى مكان والدنا الراحل ، وحكايتك مع هذه الغانية جوزفين ، تلوكها الألسن والصحف .. وسمعتها ليست بخافية إلا على البلهاء والأغبياء ..

ــ هذا كذب وافتراء .. إنهم يدنسون أجمل وأعظم شيء فى حياتى لغرض أو لمرض فى نفوسهم !

ــ أراك تتعامى عن الحقيقة يا نابليون ، وأود أن تتعقل بما يليق مع مكانتك كقائد مرموق فى البلاد .. إن الحقيقة التى لا تريد أن تصدقها أن هذه المرأة ليست فوق الشبهات ، وأن ثروتها ضئيلة مثل شرفها تماما !

.. وامتقع وجه نابليون وثارت ثورته العارمة فى عصبية ونفاد صبر ، وقال لجوزيف فى تحد وتطاول وإصرار :

ــ إننى لا أقبل منك المزيد من الإهانات ، ولو قاطعتنى الأسرة كلها .. فهم الخاسرون .. إنكم تعيشون من جهدى ومالى ، وتتباهون باسمى ومكانتى ، وتستكثرون علىّ أن أنعم بالحب والعائلة والأطفال ! ألست حرا فى اختيار من يهواها قلبى ؟!

ــ نحن لا ننكر أنك فعلت من أجلنا الكثير .. ولكن هذا ليس سببا كافيا لتدنيس شرفنا .. !

.. وخرج جوزيف غاضبا محتدا من حجرة الجنرال العاشق الذى يريد أن يصم أذنيه عن أى صوت عاقل وعن كل الحقائق إذا كانت تمس سمعة حبيبته أو تنال منها بسوء !

أمجاد إيطاليا

فى قصر جوزفين .. وفى أجوائه الشاعرية المعهودة .. سألها نابليون : سأحدثك من واقع غيرتى عليك فلا تغضبى ، لقد علمت أنك زرت باراس .. فقولى لى الحقيقة وسأصدقك ..

فابتسمت جوزفين وأجابت :

ــ ما دمت مصرا على أن تعرف كل شيء ، فاعلم أننى ما زرت باراس إلا من أجلك ، لقد حصلت منه على وعد بترشيحك لقيادة جيش إيطاليا .. وكان هذا أملا يراودك ، وأمنية تود تحقيقها .

ونهض نابليون وقبل يدها بحرارة تفيض بالشكر والامتنان ، وقال لها فى صوت خفيض مستكين :

ــ لن أسألك عن شيء بعد اليوم ، وخطوتنا التالية هى الزواج ، فاستعدى منذ هذه اللحظة لكى تكونى بجانبى أيتها الغالية المخلصة !

● ● برّ باراس بوعده ، وصار نابليون قائدا للجيش الفرنسى المتجه إلى إيطاليا .. وذهب الحبيبان إلى عمدة القسم الثانى بباريس ليسجل لهما عقد الزواج .. وكان شهود العقد .. باراس وتاليان ، ووكيل أعمال جوزفين .. واشترطت الزوجة الحسناء على نابليون أن يعيش معهما ولداها (إيجين وهورنتس) من زوجها السابق (مسيو بوهارنيه) .

.. وبعد أيام قلائل ، ودع القائد زوجته ، وسار فى عربته الرسمية مخترقا شوارع باريس وقد ازدانت بالأعلام وشارات النصر ، واحتشد الآلاف من جماهير الشعب الفرنسى على الجانبين لتحية القائد الذى عقدت عليه الآمال الكبار فى النصر الساحق على أعداء فرنسا .

وكان الحظ حليف نابليون .. فما هى إلا سبعة عشر يوما حتى فتحت له إيطاليا أبوابها .. وطلب ملك سردينيا الصلح معه ، وفرت فلول جيوش النمسا بعد أن أوقع نابليون معظم قواتها فى الأسر .. ويذكر التاريخ أن واحدا وعشرين لواء وقعت أسيرة فى يد القوات الفرنسية .

وأقام باراس حفلا كبيرا فى باريس احتفاء بالنصر العظيم .. ووقفت جوزفين بكل الفخر والكبرياء .. تتقبل التهانى .. وبين لحظة وأخرى تنظر إلى باراس نظرات ذات مغزى .. إن القائد المنتصر هناك على ربى إيطاليا .. منهمكا فى صولاته وجولاته وكره وفره .. وهى هنا فى باريس .. باراس يخطط لفرنسا ، ولجوزفين ونابليون .. حسب هواه .. وحسب رغبات ونزوات الغانية اللعوب .. أليست الصفقة تؤتى ثمارها على ما يرام ؟

وطال الفراق .. وألح نابليون فى طلب زوجته لتلحق به فى إيطاليا .. ولكن جوزفين قد ألفت باريس ، مسرح عبثها ومغامراتها ونزواتها .. وهى تخشى أن تتمادى فى رفضها فتثير غيرة زوجها وشكوكه إلى حد لا تحمد عقباه .. فالتمست النصيحة من صاحب الأفضال باراس .. فنصحها بالبقاء .. مع التحايل على التماس المعاذير التى تبرر بقاءها فى العاصمة .

الأسد الجريح ومأتم الحب الكبير

وأخذت جوزفين تتفنن فى حبك القصص واختلاق الأعذار .. بينما انطلقت فى الوقت ذاته — وقد أسكرتها نشوة النصر والفتوحات الأسطورية لزوجها — فى مغامرات هستيرية محمومة .. غير عابئة بسمعتها المشبوهة .. أو بسمعة نابليون .. وهو القائد الذى يرفع علم فرنسا على الأرجاء الأوربية فى إعزاز وشموخ .. وجن جنونه من ألم الفراق واشتعال الغرام وتمنع الحبيبة التى سلبته عقله وقلبه .. اشتعلت رسائله لها هياما وشوقا ، يتعجل حضورها فى صبر نافد ، ولكن ذهنها قد تفتق عن فكرة شيطانية تخدر بها أعصابه فأرسلت إليه توهمه بأنها حامل .. وأن آلامها تمنعها من المجازفة بالسفر إليه ، وهذه هى نصيحة الأطباء ! وصدّق نابليون .. وبعث إليها برسالة تفيض بالشوق والحنين .. وصلتها وهى تقضى ليلتها الحمراء فى قصر أحد أصدقائها .. وطاب لها أن تقرأ الرسالة بكل استخفاف على مسمع من الحضور :

« .. ما أشوقنى إلى رؤيتك ، وقد أضفى هذا الحمل عليك جمالا وأنوثة تذهب بالعقول ، وكل ما أتمناه ألا يسبب لك ألما أو مرضا ، فأنت أغلى ما فى الحياة ، ولا شك أن ابننا سيكون جميلا مثل أمه ، وسيحبك حبا عظيما مثل أبيه » .

نفاد الصبر والمكاشفة

كانت المجتمعات الباريسية كلها تهمس وتغمز وتشير بأصابع الاتهام إلى الزوجة المخادعة التى تسرق أمجاد زوجها وتسكر نشوانة بانتصاراته وجهده وعرقه ! إن الشرف العسكرى الذى يرفع لواءه نابليون وجنوده .. ومجد فرنسا الذى اقترن باسم القائد المظفر .. تعبث بهما الغانية على الموائد الحمراء وفى أحضان عشاقها الذين تختارهم حسب أهوائها الطائشة ونزواتها المجنونة !

.. وذات صباح ، وجدت جوزفين نفسها وجها لوجه أمام اتخاذ القرار المصيرى .. ذلك لأنها فوجئت بكبير العائلة (جوزيف بونابرت) يطرق بابها والشرر يتطاير من عينيه .. مبعوثا من شقيقه نابليون .. ومكلفا بأن يأتى بها إلى إيطاليا كقرار لا يقبل المناقشة .. وكان لابد من المكاشفة واستعراض الواقع الرهيب !

كان جوزيف يعلم تماما أن زوجة أخيه ليست أكثر

من غانية ، لم ولن تكف عن عبثها ومغامراتها وعلاقاتها المشينة ، ولكنه ـــ بحكم العقل والظروف ـــ لابد أن يكون حكيما يكبح جماح نفسه بقدر ما يستطيع ، ولاسيما فإنها فى نظر القائد المخدوع تعتبر أجمل وأنبل وأعظم نساء الدنيا ..

وأكملت جوزفين زينتها وهبطت الدرج للقاء جوزيف .. وهى تتوجس خيفة من ثورته وإهاناته المعهودة .. ولكنه رسم ابتسامة على شفتيه وقال لها فى حوار يحمل الكثير من التلميحات :

ـــ إننى سعيد بلقاء سيدتى وهى فى أجمل صورة وأحسن صحة .

ـــ مظهر خادع يا عزيزى جوزيف ، فمازلت أشعر بإعياء شديد .

ـــ إنه الإرهاق يا سيدتى .. فما من حفل يقام فى باريس إلا وتكونين كوكبه المتألق !

ـــ بالطبع .. إنها واجباتى أرعى فيها مصالح الجنرال ، دعنا من ذلك وأخبرنى لماذا تركت سفارتك فى الفاتيكان وأتيت إلى باريس ، أرجو أن يكون خيرا .

ـــ إنه خير بالتأكيد .. إن مهمتى هنا هى أن أكون فى شرف مرافقتك إلى أيطاليا فإن نابليون لم يستطع صبرا ، وهو قلق عليك وعلى صحتك (وغمز بعينه ساخرا) .. وعلى الجنرال الصغير القادم !

... وأسقط فى يدها ! ولكنها تمالكت وقالت فى غيظ مكبوت :

ـــ آه .. لقد تبين أنه حمل كاذب ولا أدرى ماذا سيكون وقع هذا الخبر على نابليون ؟ لكنى مازلت متعبة يا عزيزى جوزيف ، ويبدو أنك ستعود وحدك ، وسأحرم من رؤية زوجى فترة أخرى !

وهنا ، لم يقدر جوزيف على كبت انفعاله .. لقد فاض الكيل ! فنظر إليها فى غيظ وقال :

ـــ سيدتى ، دعينا من نابليون المسكين الذى يصدق منك أى شىء تتفوهين به .. ولكننى أعرف تماما ادعاءاتك وأكاذيبك .. إن الجميع يعرفون لماذا تفضلين البقاء هنا فى باريس .. الكل يعرف .. إلا هو ! أقول للمرة الأخيرة : لن أخرج من هنا إلا وأنت معى .. والعربة بانتظارنا لتقلنا إلى إيطاليا . أما إذا قررت الاستمرار فى هذه اللعبة السخيفة .. فأنذرك .. لن تلومى إلا نفسك !

ـــ جوزيف .. يجب أن تعرف حدودك .. إنك تسبنى وتهددنى فى بيتى .. إنك تملى علىّ شروطك !

ـــ افهمى ما شئت .. إنك تغوصين فى أوحال الرذيلة والخيانة .. والسفر وحده سينقذك من هذه السقطة المهينة .. أنا لم أتكلم حتى الآن .. وأرجو ألا تدفعينى دفعا لكى أحطم كل شىء على رأسك فور خروجى وحدى من هنا .. هل تفهمين ؟!

.. وسرعان ما طأطأت رأسها فى ذلة وانكسار وقالت فيما يشبه التوسل :

ـــ جوزيف .. إنك بالنسبة لى الشقيق الأكبر .. وقد آلمتنى كثيرا بانفعالك هذا ، ولكنى ألتمس لك العذر لفرط محبتك لشقيقك نابليون .. و لحرصك على سعادتنا الزوجية .. انتظرنى للحظات لكى أحزم حقائبى .. وسأسافر معك ! وأرجو أن تسمح بأن يرافقنى فى السفر وصيفتى و .. والملازم شارل ، فهو موضع ثقتى وثقة الجنرال .

... وهنا أحس جوزيف بأنه سيد الموقف فقال لها بصوت واثق وكأنه أمر واجب النفاذ :

ـــ سيدتى .. لقد تنازلنا عن أشياء كثيرة ، وليكن تنازلك عن هذا الملازم واحدا من هذه التضحيات .. كما يجب أن يكون آخر النزوات !

القصاص

استقبلها نابليون بلهفة العاشق الولهان .. واقتنص لحظات من وقته لقضائها برفقتها والاحتفاء بها .. فى قصرهما بمدينة ميلانو، وسرعان ماودعها وعاد أدراجه





على رأس جيشه فى مدينة (منتوا) حيث تدور المعارك الرئيسية ضد الحشود الإيطالية النمساوية .. وما أن استقر بها المقام .. حتى تاقت نفسها إلى أجواء العبث المعهودة .. وسرعان ماتعرفت على رجالات المدينة ومجتمعاتها الأرستقراطية .. وبدأت لعبة النزوات واستغلال النفوذ .. وكان من أهم ما حرصت عليه .. هو أن استدعت أبرز فنانى فرنسا من رسامى حروب نابليون .. ليرسموا لها الصور الرائعة فى كل الأوضاع ..

أما نابليون .. فقد علمته الحروب وصقلته الأحداث .. ففتحت بصره وبصيرته على الحقائق التى تدور من حوله ومن خلف ظهره .. وبدأ يجمع المعلومات عن زوجته بوسائله الخاصة ، بعد أن اتسعت دائرة الهمس واللمز .. حتى أضحت دويا يصم الآذان ، بل ويعلو فوق دوى المدافع فى معاركه المستمرة ! وجاءت المعلومات من مصادرها .. ساحقة ماحقه :

إن شارل الذى تحايلت وتوسلت حتى أمر نابليون باستدعائه إلى إيطاليا ليكون ياورا خاصا لزوجته ، ما هو إلا رفيقها المدلل .. وإنها استغلت مكانتها كزوجة للقائد .. وجمعت الجبايات والرشاوى من متعهدى المؤن ، كما عقدت الصفقات المريبة من كل لون .. ولم تعمل أى حساب لاسمه الذى مرغته فى الوحل فى إيطاليا وفى فرنسا من قبل ..

.. وذات مساء .. فوجئت جوزفين بقدوم نابليون وهو متجهم الوجه ثائر الأعصاب .. وقصد حجرة مكتبه .. وجلست أمامه مذهولة .. فتصنّع الرجل الثبات وقال لها :

ـــ جوزفين . لقد قبض على شارل متلبسا بتهمة الرشوة .. وثبتت ضده اتهامات أخرى بالسرقة والاختلاس واستغلال النفوذ .. وقد وقفت على حقائق قاطعة بأن له شركاء .. وعرفت شركاءه .. تماما مثلما تعرفينهم ! فهل تعترفين .. أم ستتركينه يساق غدا إلى ساحة الإعدام ؟

... واستجمعت جوزفين كل مؤهلاتها الأنثوية الفتاكة .. فبكت وانتحبت وتوسلت وتصنعت الذوبان فى حبه والإخلاص له .. وانتهت الجولة الساخنة بأن اكتفى نابليون بطرده من إيطاليا .. وقبل أن يتركها فى الصباح متوجها إلى مركز قيادته .. قال لها منذرا ومحذرا :

ـــ اعلمى ـــ مهما كان حبى لك أننى لن أصفح مرتين !

باريس .. مرة أخرى

كللت معارك نابليون بالنصر الأسطورى .. وصار حديث الدنيا بأسرها وعاد بين أكاليل الغار وأقواس النصر وأسباب التكريم إلى باريس .

ولكن جوزفين قد أحست وأيقنت أن جذوة الحب قد خبت وذهبت إلى غير رجعة !

وها هو نابليون يعد نفسه للحملة على مصر .. واستكمل عدته وذخائره .. وأبحر إلى الشرق .. بعد أن ودع زوجته وداعا باردا كتحيات الوداع الرسمية .

فانقلبت عقب رحيله .. أسيرة لنزواتها اللامبالية .. وكان الملازم شارل أهم ماحرصت على اقتنائه فى قصرها من جديد ! إنه قد أبعد من ميلانو لينتظرها هنا فى باريس !

وفاحت الروائح الكريهة حتى زكمت الأنوف .. واجتمع مجلس عائلة بونابرت وقرروا أن يبعثوا إلى نابليون وهو على رأس حملته فى مصر ، تقريرا مفصلا بكل فضائح زوجته .

... وما أن وصلت هذه الرسالة الصاعقة .. حتى نادى نابليون سكرتيره الخاص وأملى عليه رسالة ليبعث بها على الفور إلى شقيقه جوزيف فى باريس :

« جوزيف ، لقد قررت العودة إلى باريس خلسة فى أقرب وقت ، فقم بإعداد مايلزم لرفع دعوى الطلاق على عجل لكى تُعلن فور وصولى .. وهذا



حفل تتويج نابليون ، وقد رفع الإمبراطور بيديه تاج الإمبراطورية ليضعه على رأس جوزفين « للفنان دافيد »

قرار لارجعة فيه » !

... وبعد مغامرة خطيرة تسلل نابليون من بين سفن الأسطول البريطانى المتربص به فى مياه البحر الأبيض المتوسط .. ووصل إلى الشاطئ الفرنسى ومنه إلى العاصمة ..

وما أن علم الشعب بمقدمه .. حتى كانت الجموع الحاشدة وهتافاتها المدوية بحياته تملأ الآفاق .. إنه بطل فرنسا وأملها وقائد انتصاراتها المجيدة .

وتوالت الأحداث سريعة مزلزلة كنذر الصواعق ، وكانت أمامه إنجازات ومعارك مصيرية خطيرة .. فعزل حكومة الإدارة الثلاثية برئاسة باراس ، وأصبح هو إمبراطور فرنسا وحاكمها وقائدها ، وفى حفل مهيب عام ١٨٠٤ ، تم تتويجه .. ورفع التاج بيديه ووضعه على رأس جوزفين .. والله أعلم بما فى القلوب ! وعاش محطم الفؤاد مسحوق الوجدان .. فهل يقول لشعبه : إننى سأطلق زوجتى الخائنة ؟ وإن إمبراطوركم وقائدكم ملوث الشرف كسير القلب ، خدعته غانية عابثة تجاسر يوما ووضع بيديه تاج الإمبراطورية على رأسها الخبيث ؟! ولكنه اجتر ألمه فى صمت وطلقها ،



... وأخيرا ... أنجب نابليون ابنه الوحيد « ملك روما » « النسر الصغير » من زوجته الثانية مارى لويز

وتزوج غيرها ! وانغمس فى مسئولياته الجسام فليس هناك وقت للعواطف أو الانشغال بالنساء أو التغنى بالحب والهيام !!

●● وفى تلك الأوقات العصيبة صدر عن نابليون كثير من التصريحات التى يعادى فيها المرأة كقوله :

« أن الحب لعبة الكسالى ومصيدة الحكام ومفسدة الشعوب » !

« إن الأمة التى ينشغل رجالها بأمورهم العاطفية .. هالكة لامحالة » !

... ومن عجب أنه حتى آخر يوم فى حياته كان يردد دائما .

« ما أحببت طول حياتى إلا امرأة واحدة هى جوزفين » .

وحتى بعد أن تزوج ابنة إمبراطور النمسا « مارى لويز » وأنجبت له « النسر الصغير » ، كان لا يقوى على كبت عواطفه نحو جوزفين .. وهو يعلم أنها امرأة ساقطة تهاوت بسمعتها إلى الحضيض .. ولكنه الحب الدفين الذى يسرى فى عروقه وينبض دوما مع دقات قلبه الكسير !

بولين بونابرت .. فتنة الجمال والغواية وجموح الشباب

●● إذا كان هذا هو التقليد .. فكيف كان الأصل يا ترى ؟!

عبارة يقولها كل من وقف مبهورا أمام تمثال الفاتنة « بولين بونابرت » شقيقة نابليون الصغرى المدللة فى متحف « بورجيزى » فى العاصمة الإيطالية روما .. مدينة التاريخ والفن والعراقة والإبداعات الشاعرية الخالدة لأساطين الفن من العباقرة العظام .

كانت بولين بونابرت .. أو بولين بورجيزى زوجة الأمير « كميل بورجيزى » وهو الشريف الإيطالى أحد أقطاب الأسرة الرومانية الشهيرة بهذا الأسم .. وقد حكم ولاية « جاستالا » ثم ولاية « بيمونتى » .. ولذلك تعددت أسماء الفاتنة بولين .. فنقرأ أسماءها تحت صورها العديدة التى أبدعها لها فنانو التاريخ الكبار بهذه التعريفات : بولين بونابرت — أميرة بورجيز — دوقة جاستالا — أميرة بيمونتى ..

أما تمثالها الرائع المثير .. تحفة رخامية من آيات الفن الرفيع ، من أعمال المثال الشهير « كانوفا » .. وهو فى نفس الوقت بمثابة شهادة الامتياز التى أثبت بها الفنان



التمثال الذى حكم
عليه الزوج الغيور
بإيداعه مخازن القصر !

نبوغه وجدارته وموهبته المتألقة ! ففى موسوعة « هيستوار دى فرانس » نجد وصفا دقيقا لحياة بولين الحسناء ، كما نقرأ الكثير والمثير عن التمثال وصانعه وعن كميل بورجيزى .. الزوج الولهان الغيور ... لقد وصلت غيرته على زوجته إلى حد أنه نظر إلى التمثال بعد أن اكتمل بين أنامل الفنان .. ثم جثا على ركبتيه أمامه ، ونهض يغمره بالقبلات .. بل و لم يطق أن ينظر إليه أحد غيره ولو بمجرد نظرة عابرة ، فأصدر أوامره على الفور لحراس قصره بأن يخفوا التمثال عن الأعين فى أحد المخازن المغلقة ! وبلغت الغيرة ذروتها ، فمنع الفنان أيضا من رؤية تمثاله الذى صنعه بيديه !

قال لها نابليون يوما :

« أنا فخور بك يابولين ، ولكننى أخاف عليك من جمالك المفرط وجاذبيتك التى لا تقاوم » .

●● ولدت فى ٢٠ أكتوبر من عام ١٧٨٠ ، وكانت المولود العاشر لأبويها شارل بونابرت وليتسيا رامولينو . أما شقيقها نابليون فكان الرابع فى ترتيب المواليد العشرة . وكانت بولين أجمل بنات الأسرة وأكثرهن إخلاصا ووفاء وحبا لنابليون ، ولهذا أحبها أكثر من جميع أشقائه وشقيقاته ، ولم تكن الفتاة الجميلة معروفة بهذا الاسم .. إذ أن اسمها الأصلى هو « ماريا باوليتا » ونابليون نفسه هو الذى اختار لها اسم بولين بونابرت ، ولقربها منه وحبها له أحاطها بعناية ورعاية خاصة ، وبث فيها روح الأمل والثقة بالنفس والتفاؤل بمستقبل عظيم ، وصعد نابليون مدارج المجد والشهرة وبالتالى ، تزايد عدد المقربين والمنتفعين والمعجبين والمتزلفين من حوله ، وكثرت عروض الزواج من شقيقاته ، ولا سيما من الفاتنة بولين ، فاختار نابليون أحد مساعديه الأكفاء زوجا لها هو « الجنرال لوكلير » ، وبمواهبها الأنثوية والعقلية الفائقة ، اتخذت لنفسها مكانة مرموقة فى المجتمعات الباريسية الصاخبة . وفى تلك الفترة النابضة بالحيوية والمتفجرات والمتغيرات الثورية المتلاحقة ، تدانت طبقات وارتفعت طبقات أخرى ، وتتابعت حكومات واستحدثت أنظمة وتكتلات .. قادت فرنسا إلى سلسلة من التحولات التى أدت إلى إعلان الإمبراطورية .. وحدث كل ذلك فى سرعة جنونية لاهثة لا تزيد على عشر سنوات ..

وفى سنة ١٨٠١ ، كان نابليون يشغل منصب « القنصل الأول » عندما نشبت ثورة الزنوج على فرنسا فى جزيرة « سان دومنيك » بأمريكا .. فعهد نابليون إلى صهره الجنرال « لوكلير » بقيادة الحملة التى أعدها لإخماد الثورة فى تلك المستعمرة النائية ، ولما كان نابليون قد لاحظ على شقيقته أنها بدأت تنغمس فى السهرات ومجتمعات اللهو الأرستقراطى بنزواته الحمراء الماجنة .. وأن هناك خطرا يتهددها وينزلق بها إلى مالا يليق بسمعتها وسمعة آل بونابرت ، أرغمها على أن تذهب مع زوجها ، فسافرت على غير رغبتها إلى سان دومنيك تاركة أضواء الشهرة والليالى الباريسية الساهرة السامرة الساحرة ، ودارت المعارك الطاحنة ، وتعرض الجيش للكوارث والأوبئة والأمراض المعدية ، وفتكت الحمى الصفراء بالجنود ، وعلى غير ما كان متوقعا أظهرت بولين زوجة القائد العام لوكلير شجاعة وتفانيا وجلدا على النهوض بواجباتها خير قيام ، وتحدث الجميع فى عجب وإعجاب كيف يحدث كل ذلك من الفاتنة الرقيقة الناعمة !

الجزاء والوفاء

وانهالت التقارير من أرض المعارك على الحكومة الفرنسية تشيد بالجهد المثالى الذى أبدته زوجة القائد .. فكانت الساهرة على رعاية زوجها ، الخطيبة المحدثة اللبقة لنشر الأمل والوعى والحماس بين الجنود .. كما كانت لمسة الحنان وبلسم الشفاء للمرضى والجرحى



تقوم بخدمتهم وتمريضهم فى ميدان المعركة ..!

وأراد المسئولون فى باريس أن يقنعوها بسرعة العودة خشية عليها من تلك المخاطر .. ولكنها رفضت بشجاعة وإباء .. إذ قالت فى ردها :

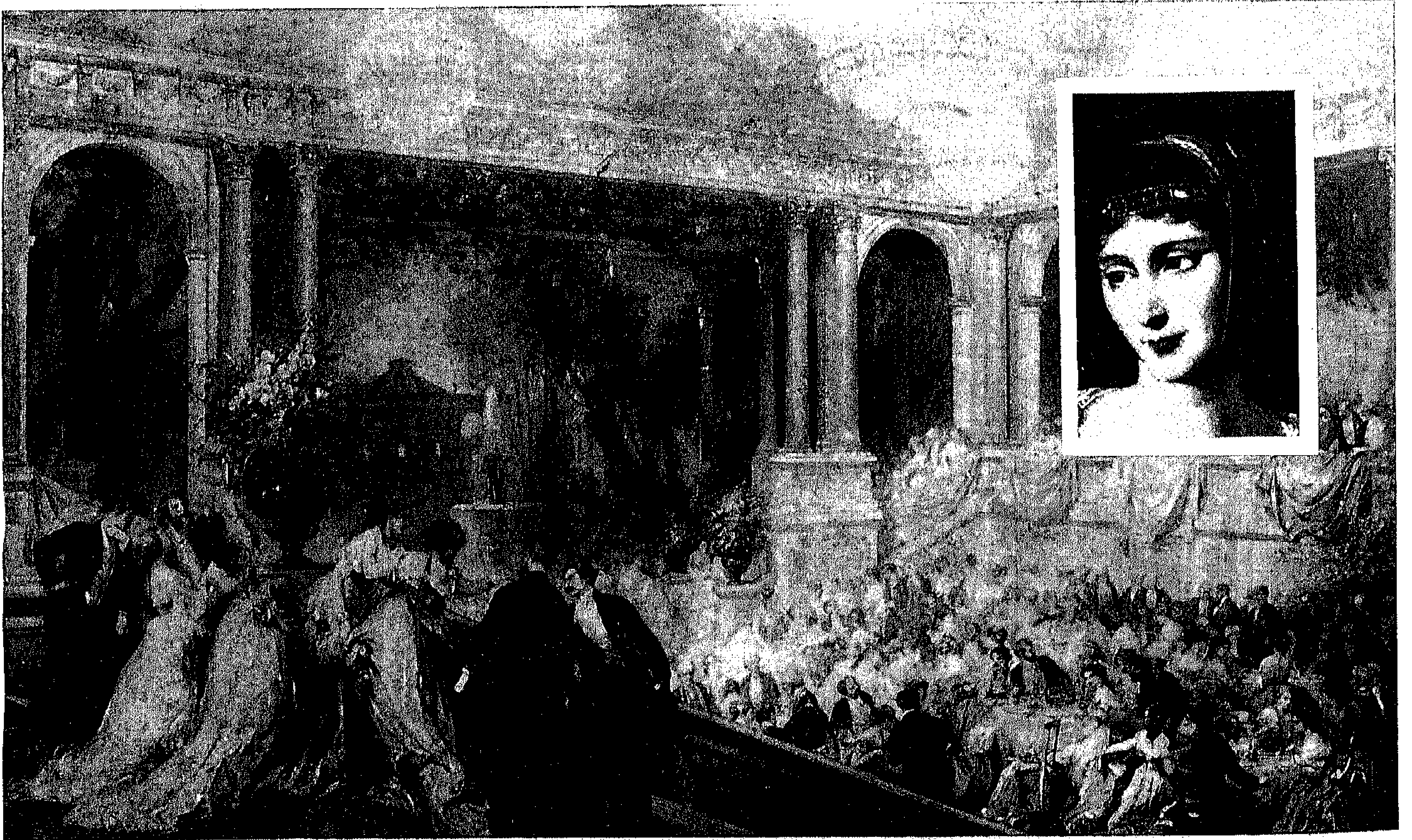
« إذا كنتم تخافون على من المرض أو الموت .. فمن أنا. إننى لا أرقى إلى عطاء القادة أو إلى تضحيات وشجاعة أحد جنودنا على أرض القتال .. إننى أتعلم منهم كل يوم .. بل كل لحظة .. كيف تهون الدماء والأرواح فى سبيل مجد الوطن .. ولا تنسوا يا سادة أننى شقيقة نابليون ! » واستمرت بولين فى أداء واجبها الوطنى على أرض الجزيرة النائية .. غير عابئة بالأوبئة والأمراض المعدية ، حتى كان أول يوم من شهر نوفمبر عام ١٨٠٢ ، حينما فتكت الحمى الصفراء بزوجها الجنرال لوكلير ، فروعت الزوجة المخلصة ، وقصت شعرها الحريرى الطويل ، ووضعت خصلاته على جثمان زوجها الذى راح ضحية الواجب المقدس ، ورافقت رفاته إلى أرض الوطن تبكيه بحرارة حتى مثواه الأخير !

كانت آنذاك فى الثانية والعشرين من عمرها .. وقد عكفت فى قصرها المطل على ميدان كونكورد

(وهو الآن مقر السفارة البريطانية فى باريس) . حزينة ساهمة ساكنة ترتدى ثوب الحداد .. ومرت عدة شهور وهى فى انزوائها وصمتها المهيب .. وأراد نابليون أن يخرجها من هذه الكآبة الرهيبة .. فقرر أن يختار لها زوجا جديدا من خارج فرنسا .. حتى يبعدها عن أرض الذكريات . ووقع اختياره على نبيل إيطالى من أسرة عريقة وهى أسرة بورجيزى ، صاحبة المركز الرفيع فى روما .

وكان كميل بورجيزى ــ الزوج المختار ــ شابا يمتاز بعلمه وثقافته وكرمه واستقامته ، وسرعان ما تم الزواج فى ٢٨ من شهر أغسطس عام ١٨٠٣ .. وأقيم حفل القران فى باريس ، ثم انتقل العروسان بعد شهور قليلة إلى روما .. وبدأت حياة جديدة لبطلتنا بولين بورجيزى تختلف تماما عن حياتها السابقة كزوجة للقائد لوكلير .. كما كانت الظروف تختلف كذلك بالنسبة لنابليون بونابرت .. فهو يرتقى سلم المجد والشهرة يوما بعد يوم ، وأصبح الحكم والعرش وكرسى الإمبراطورية تسعى إليه فى أفقه القريب .. أما الزوج المحب المبهور بجمال زوجته ، فقد طار صوابه بامتلاكه لهذه الفاتنة .. وأخذ ينفق بكرم وسخاء ويقيم الحفلات الأسطورية الباذخة فى روما احتفاء بعروسه الحسناء .. غير أن كل هذه المظاهر المترفة لم تنسها أجواء باريس ولياليها الشاعرية الحالمة .. لقد عصرتها فترة الكفاح فى سان دومنيك .. وصهرتها شهور الحداد .. وها هى ذى لا تطيق أيام الغربة بعيدة عن الأهل والأصدقاء ومرتع الصبا والشباب .. لقد هفا وجدانها إلى الاستمتاع بملذات الحياة بعد أن أرهقت أعصابها الأحداث الماضية .. وقد ألفت هذا الاستمتاع فى منتديات مدينة النور على ضفاف السين .. ومهما وجدت من حفاوة أهل روما وكرم زوجها الذى يبذل قصارى جهده لإسعادها .. إلا أنها تحس بالغربة يوما بعد يوم .. فأخذت تجمع حولها أصدقاء مقربين من القادة والسفراء وشخصيات المجتمع .. ولاحظ الجميع أن الفاتنة على وشك جولة جديدة من التمرد الناعم والنزوات الساخنة .. وصبر الزوج المحب الولهان .

.. وذات صباح .. فوجىء النبيل الإيطالى بزوجته تعد حقائبها استعدادا للعودة إلى باريس .. فجن جنونه .. ورفض الرجل المهذب أن يقر ذلك إلا بالرجوع إلى نابليون ! . وبعد أيام .. جاءه الرد العاقل من نابليون فى



الحفلات الأسطورية التى لم تشهد باريس مثيلا لها من قبل !




الأمير كامي بورجيز Camille Borghése والفاتنة ماري بولين بونابرت

صورة رسالة رقيقة كالنسمة الحانية .. حاسمة كحد السيف .. وكانت موجهة إلى شقيقته بولين يقول فيها :

« ... قيل لى إنك تتناسين من وقت لآخر أنك شقيقتى التى أحبك .. وأحب فيك — بصفة خاصة — وفاءك وإخلاصك .. كما تنسين أن لك زوجا له عليك حقوق . ويؤلمنى أشد الألم أن ينال سمعتك أى سوء وأن تلوكك الألسنة بالنقد . هل هذا ما عرفته فيك من قبل ؟ يجب عليك يا شقيقتى أن تحافظى على اسمك وسمعتك بقدر محافظتك على جمالك وصحتك ، فالجمال زائل ، والشباب لا يدوم ، وكما أن لنا حقوقا على الآخرين ، فلهم واجبات يجب أن تكون محل اعتبارنا ، والعظماء هم الذين يتفانون فى الإخلاص والعطاء ، وبقدر ما نعطى بكل التجرد والحب والوفاء بقدر ما نكسب احترام الآخرين . » !.. وسكنت الزوجة فى هدوء .. ولكنه كان الهدوء الذى يسبق العاصفة ..

.. وبعد نحو عشرة أشهر من زواج بولين والنبيل الإيطالى .. اعتلى نابليون عرش الإمبراطورية فى فرنسا ، وأصبحت الفاتنة المتمردة تحمل اللقب الكبير : صاحبة السمو الإمبراطورى بولين بورجيزى !

.. والمجد عندما يأتى بهذا السخاء فى مواكب الرفاهية والترف والسرف بغير حساب .. لا شك أنه يدير الرءوس ويقلب الموازين ويحول الثقة بالنفس إلى غرور وخيلاء !!

وفاتنتنا بولين يبدو أنها على وشك أن تترنح وقد وجدت نفسها فوق قمة شاهقة على مقعدها الوثير بين بريق اللآلىء ومظاهر الترف وتفجر الأنوثة وجموح الشباب ..

●● كان ذلك فى شهر مايو من عام ١٨٠٤ ، وقد حولت قصر بورجيزى إلى منتدى لا ينام من الحفلات الأسطورية الباذخة احتفالا بهذا الحدث الإمبراطورى العظيم .. واعتقدت صاحبة السمو أنها اعتلت قمة النفوذ والسلطان .. وكان سلطان جمالها الطاغى هو

ذروة هذه القمة ... ولكن ــ وهكذا تدور الأيام ــ ما إن انتهت الفاتنة من حفلاتها حتى عبست لها الأقدار فجأة .. فلم يمض شهران ، إلا وقد فجعت فى أعز ما لديها .. وهو ابنها « دارميد » من زوجها السابق « الجنرال لوكلير » وكان فى عمر الزهور اليانعة فى السابعة من عمره ! وتحولت أفراحها إلى أحزان من الأعماق ، وتبدلت الألوان الوردية فى أبهاء القصر الإيطالى الكبير إلى ألوان القتامة والكآبة والصمت والحداد ! وركنت الفاتنة إلى العزلة والانطواء من جديد .. وزهدت فى متع الحياة .. وحتى فى الحياة ذاتها ! وظن الكثيرون أن بولين بونابرت ، بكل ما حباها الله من جمال ورقة وشاعرية ، لن تقوى على تحمل هذا الحدث المروع .

ليالى الأنس فى باريس

وانشغل بال الإمبراطور نابليون إشفاقا على شقيقته التى يخصها بحبه ورعايته .. فعمل كل ما فى وسعه لكى يخفف عنها ، فاستدعاها إلى باريس مع زوجها كميل بورجيزى ليقيما فى العاصمة الفرنسية بعض الوقت ، وخصص لهما أحد القصور الملكية الفخمة . وبالغ نابليون فى إقامة السهرات الأرستقراطية الباذخة للترفيه عن صاحبة السمو الإمبراطورى .. كما أحاطها بسيل من الدعوات هنا وهناك لقضاء الأمسيات والرحلات والندوات وحضور المعارض الفنية والحفلات الموسيقية .. وكان الإمبراطور يطلب تقريرا يوميا عن حالة أخته النفسية ، ومدى استجابتها لإضفاء روح المرح والسعادة على حياتها الجديدة ... ومن عجب ، أن النتائج كانت بأسرع مما تصور .. فقد طوت بولين أحزانها ، وانغمست فى صخب الحياة الباريسية ولياليها التى لا تنام .. ويوما بعد يوم ، ألفت بولين حياة اللهو والسهر والسمر .. وأقامت ــ بدورها ــ سلسلة من الحفلات التى فاقت كل ما عرفته باريس من قبل !! واستمرأت هذه الحياة الناعمة المبهجة ... فجعلت من قصرها صالونا للتألق والتأنق والجمال وكأنه معرض دائم لفاتنات باريس وسيدات القصور ومحظيات المشاهير من رجال الفن والفكر والسياسة ! وخصصت مرسما فنيا فى إحدى قاعات القصر ، حيث تبارى كبار المبدعين فى استلهام جمالها فى روائعهم الخالدة التى مازالت تنبض بالفتنة والحياة حتى اليوم .

وكانت هذه الصحوة الاجتماعية ، بمثابة عودة الرومانسية الفرنسية إلى العاصمة الثائرة التى تموج بالأحداث التحولية وتتلاطم فيها التيارات السياسية الجارفة ..

واصطبغت باريس بألوان متألقة تشجيها الأنغام الموسيقية الدافئة .. وبذلك ، أعادت بولين روح الأرستقراطية الملكية المترفة من جديد ، وأضحت مثارا للحسد فى نفوس حسان باريس وفتيات عائلاتها العريقة .. وكان لا بد من أن تتناثر التقولات ، بل وتثار حولها الشبهات وتلوك سيرتها الألسن .. فقد أصبحت أسيرة لنزواتها التى لا تحدها حدود دون مراعاة لمركز شقيقها الإمبراطور ، أو زوجها الشريف الإيطالى صاحب الاسم النبيل والأصل العريق ! وانتشرت الاتهامات بأنها قد اتخذت من مساعديها وحراسها عشاقا لها ، وأن صاحبة السمو الإمبراطورى قد بلغ بها الاستهتار إلى حد أنها سقطت أسيرة لنزواتها ، وخرجت عن نطاق واجباتها الزوجية علانية دون أن تحاول أن تدفع عن نفسها هذه الشائعات التى وصلت إلى درجة الاتهام الصريح من الفرنسيين ، بل وفى أوروبا كلها !

المساءلة

وعلت أصداء الهمس حتى أصبحت ضجيجا يصم الآذان ، بل وطرقت مسامع نابليون وهو يعتلى كرسى الإمبراطورية التى تقود العالم كله إلى نفوذه

وسلطانه ، وانزعج القائد لهذه الاتهامات .. إنها شقيقته التى يعتز بها اعتزازا خاصا ، ويعتبرها مثالا للوداعة والوفاء ، وإن كان قد حذرها من قبل مرات عديدة من سطوة جمالها وفتنتها على قلوب الرجال !

وأمر باستدعائها ليستوضح منها الأمر ، فانبرت تدافع عن نفسها بثقة واعتزاز وخيلاء قالت لنابليون :

« لقد وضعت ثقتك فى ، وإنى لجديرة بهذه الثقة . ولكنك يا أعز الأحباب منغمس فى مهامك الكبرى ، ولا يسعفك وقتك لدراسة ميول البشر من رجالات القصر وذوى النفوذ والتحزبات التى أفرزتها ثورتك الشجاعة وقيادتك العبقرية .. وكان لزاما علىّ أن أعمل على جمع الشمل بأن أستميل أكبر عدد من هؤلاء وهؤلاء إلى زعامتك حتى لاتجابهك مشاكل التفرقة والتمرد .. إنهم جميعا يسلمون قيادهم لى إثر مجاملة أو ابتسامة عابرة .. وحرىّ بى أن أحرص على استرضائهم جميعا لكى نكسب ولاءهم ، وكما علمتنى : فكلما كانت أشجارنا مثمرة ، ازداد عدد الذين يقذفونها بالحجارة .. ولكل شىء ثمن .. وللأهداف الكبرى تضحيات .. فانتشرت الهمزات واللمزات ، وأنا أدرى بها ، ولكننى وضعت نفسى ومواهبى فى خدمة الإمبراطور ، وليس معنى ذلك أن السبل والوسائل تحط من قدرى وقدرك .. بل أستطيع أن أؤكد لشقيقى وإمبراطورى الحبيب أن سلوكى شريف بمعنى الكلمة فى وسائله وغاياته !

إن أحدًا من الرجال لم يحظ منى بأكثر من عبارات لطيفة وابتسامات ودودة أوزعها هنا وهناك .. لا تخفى وراءها أى معنى خاص أو أسرارا ذات مغزى إنهم يتقولون بوازع الغيرة والأحقاد النسائية .

ويعلم أخى قبل أى إنسان آخر أننى عاطفية شاعرية حالمة .. وقد قلتها لى مراراً بأننى خفيفة .. هذا صحيح ، ولكننى شريفة .. وهذا صحيح أيضا ! »

استمع إليها نابليون باهتمام وتعاطف شديدين ، وكلما أفاضت فى الشرح والتفصيل . انفرج عبوس وجهه .. وما أن انتهت من مرافعاتها الواثقة حتى تهللت أساريره فربت على رأسها بكل العطف والإعجاب .. وودعها بعبارته الحنونه : هذه أنت يابولين ، وثقتى فيك ليس لها حدود !

وسواء أكانت على صواب فى دفاعها عن نفسها ، أم أن نزواتها قد غلبتها على أمرها .. إلا أنها لم تكف يوما عن استقطاب الأضواء واجتذاب أنظار الرجال إلى مفاتنها فى حفلاتها الأسطورية الباذخة ..

.... وتمر السنوات بأمجادها وطفراتها وعثراتها .. وتموج فرنسا وأوروبا كلها بالبراكين والصواعق الثورية الدامية .. وتدور الدائرة لتهوى بالأسد الرابض على كرسى الإمبراطورية إلى قاع الحياة .. ففى يوم ١٥ من شهر أبريل عام ١٨١٤ ، تنازل نابليون عن العرش طواعية لإنقاذ البلاد من التطاحن والفتن .. ونفى نفسه إلى جزيرة « ألبا » .. وتخلى عنه الجميع هربا بحياتهم وتحسبًا للانتقام منهم إلا بولين .. أخلص الخلصاء ، وأوفى الأوفياء للإمبراطور وهو فى محنته القاسية .. فقد رحلت لتعيش معه فى منفاه على هذه الجزيرة الصغيرة ، وقالت عبارتها الشهيرة :

« أريد أن أبقى بجانبه حتى النهاية ، فما أحببته لأنه الإمبراطور صاحب النفوذ والسلطان .. ولكنى أحببته لأنه شقيقى الإنسان الحنون » !!

ولما عاد من المنفى كانت أيضا بجانبه لم تفارقه لحظة واحدة ، وشعرت بأنه يحتاج إلى المال ليجابه المسئولية الكبرى من جديد ، فألقت بين يديه كل مدخراتها ومجوهراتها قائلة له :



« إنها من فيض عطائك .. فهى منك وإليك » .

.... ولكن النهاية كانت أسرع من دقات قلبها المتعلق بشقيقها .. فقد تنازل عن العرش للمرة الثانية والأخيرة .. واقتاده الإنجليز منفيا إلى جزيرة « سانت هيلانه » .. وحرموه من أهله وأتباعه .. وحتى من رؤية ولده .. ولم تجد بولين بدا من أن ترحل حزينة حسيرة وحيدة إلى إيطاليا .. وكان زوجها النبيل الإيطالى كميل بورجيزى قد ابتعد عنها عندما وجد أن نجم نابليون فى طريقه إلى الأفول !

فأقامت الفاتنة المقهورة مع أمها تندبان الحظ وتتحرقان شوقا إلى لحظات من الأمجاد الغابرة .. وتوالت عليها الأيام كئيبة خاوية خالية إلا من آلام مبرحة تعتصر قلبها ووجدانها ..

وأورثتها هذه الهموم الثقال أمراضا جسدية ونفسية مرّيرة ، وعاشت سنواتها الأخيرة تترقب الموت وتنتظر الخلاص .. حتى لفظت آخر أنفاسها فى عام ١٨٢٥ .

●● وفى لحظاتها الأخيرة ، جلس الكاهن بجوارها يدعوها إلى التوبة وطلب الغفران عن ذنوبها .. فرمقته بنظرة ذابلة وهى تغالب سكرات الموت وقالت له :

« لست فى حاجة إلى التوبة يا سيدى .. فقد كنت أعرف تماما كل ما أقدم عليه من قول وعمل .. ولو عشت مرة أخرى لما فعلت غير ما فعلت ، ولما سلكت طريقا غير الذى سلكته .. » ! وذابت بقية الحروف على شفتيها الساحرتين ..

....

وعدت أستعيد فى ذاكرتى تمثالها الرخامى الرائع الذى أبدعته أنامل الفنان الإيطالى العظيم « كانوفا » فى متحف بورجيزى عند مدخل العاصمة الإيطالية .. روما ..

الأيدى الناعمة
عطاء الحب
وصراع الأبطال

فى أروقة المتاحف ، وفى بطون كتب التاريخ ، تطالعنا صورة فتاة شابة حسناء ، تنم ملامحها عن مسحة من الجمال الوقور ، وتتألق عيناها بوميض الذكاء والحيوية والتيقظ .. نراها بجانب صور القادة والزعماء والأحداث الجسام التى شهدتها الساحة الفرنسية فى سنوات الثورة العارمة .. لقد استلهمها الفنانون العظام فى إبداعاتهم كرمز حى من رموز العطاء الوجدانى الخالد .. وتناولها الكتاب والمؤرخون فى أعمالهم الملحمية المثيرة ، كما اتخذها الثوار شعارا للحرية والبذل والفداء !!

● ● إذا كنا قد اعتدنا فى لقاءاتنا حول الملهمات فى الفن والتاريخ أن تكون الملهمة زوجة أو حبيبة أو صديقة .. أو ملكة تقف من خلف الرجال ، أو شهيرة من شهيرات التاريخ اللائى أضفن صفحات أو سطورا فى سجل المسيرة الإنسانية .. فإن بطلتنا اليوم ثائرة حسناء ، أودت بحياتها وهى فى ربيع العمر، فداء لوطنها ، وإرضاء لصوت ضميرها وجموع شعبها التائه فى خضم الأحداث الدامية ! ومازالت كلماتها المدوية تهز وجدان الشعب الفرنسى وهو يتأمل صورها المعلقة فى قاعات المتاحف .. ويتمثلون فى خواطرهم قولها فى وجه جلاديها فى أثناء محاكمتها : « أى فرنسا : إن سعادتك رهن باحترام القانون ، ولكننى لا أخالف أى قانون وضعه البشر عندما أقتل « مارا » فإنه قد استحق سخط الشعب والعا لم أجمع ... وخرج من حظيرة القانون !! » إنها « شارلوت كورداى » .. ذات الخمسة والعشرين ربيعا يفيض قوامها بالشباب الفاتن والعاطفة الجياشة .. وقفت بكل شجاعة ، ناصبة قامتها فى غير تهيب ولا وجل .. تجيب على أسئلة المحكمة التى نصبتها الثورة الفرنسية الجامحة ، لكى تسوق الآلاف إلى المقصلة فى ساحات الإعدام الرهيبة ..

● سأل القاضى : ماذا كان الغرض من قدومك إلى باريس ؟

فأجابت : لم يكن لى سوى غرض واحد ، هو أن أقتل مارا .

ــ وماهى البواعث التى حملتك على ارتكاب هذه الجريمة البشعة ؟

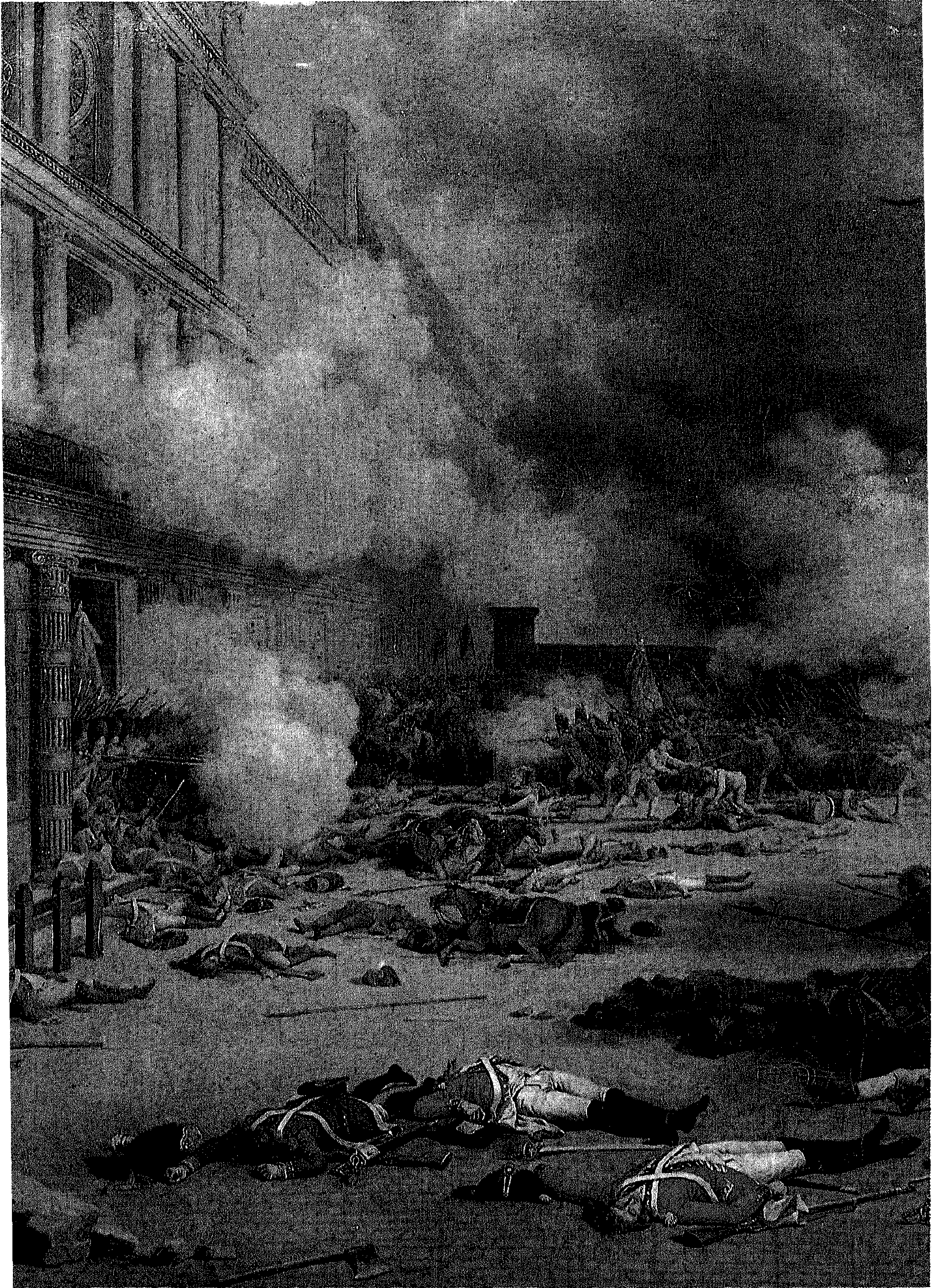
ــ جرائم أكثر بشاعة ارتكبها السفاح الذى قتلته .

ــ وماهى هذه الجرائم التى تنسبينها إليه ؟

ــ خراب فرنسا ، وسفك دماء الأبرياء ، والحرب الأهلية التى أشعل نارها فى أنحاء البلاد .

ــ على أى أساس تسوقين هذه الاتهامات ؟

ــ على أساس أن شخصيته المتسلطة وجرائمه المتتابعة فى الماضى والحاضر جعلت منه المتآمر على حرية الشعب ، والمحرض على مذابح شهر سبتمبر ، كما أنه أشعل الحرب الأهلية ، وحرص على بقائها مشتعلة طمعا فى أن يصبح دكتاتورا يتحكم فى الأمور حسب هواه ، إرضاء لشهوة التحكم والقهر وسفك الدماء





ملكة الأناقة ... ملكة فرنسا ماري أنطوانيت

.. تلك الأمور التى طبعت عليها نفسه اللئيمة .. ولا يجب أن ينسى أى مواطن فرنسى أن « مارا » تسبب فى القبض على نواب الشعب وسجنهم فى ٣١ مايو .

ــ وأى دليل لديك على أن مارا هو الذى ارتكب كل هذه الشرور التى تذكرينها ؟

ــ ليس لدى أى دليل مادى للمحكمة .. ولكن هذا هو الاعتقاد السائد فى فرنسا .. إنه صوت المواطن الفرنسى .. وفى كل يوم جديد ، تتكشف الحقائق عن هذا الاعتقاد ، بالرغم من إخفاء وجهه الحقيقى خلف قناع من الوطنية ، ولكننا لسنا قطيعا من الخراف ، نترك زمام أمورنا للذئاب من أمثاله !

ــ وهل قصدت قتله عندما سددت إليه ضربتك الغادرة ؟

ــ نعم ، كان هذا هو قصدى الأكيد !

ــ هل كنت تعلمين أن ضربتك ستقتل مارا ؟

ـــ كنت أعتقد ذلك .

ـــ إن تصرفا وحشيا كهذا ، ما كان ليصدر عن فتاة جميلة رقيقة فى مثل سنك الغضة دون أن يحرضك عليه أحد ، ودون أن تكونى واقعة تحت تأثير أفكار ومعلومات أملاها عليك بعض الناس ، فخير لك أن تعترفى ، لعل فى هذا الاعتراف ما يخفف الحكم عليك .

ـــ إننى لم أتلق توجيها من أحد ، كما لم أفض بخطتى لأى إنسان من قريب أو من بعيد ، وأؤكد لكم أننى عندما قررت أن أقتل مارا، كان اعتقادى منبعثا من ضميرى وقناعتى الشخصية ، ولم أعتقد أننى قتلت مخلوقا بشريا ، بل حيوانا ضاريا يلتهم فرنسا !

بهذا المنطق ، وبهذا الإيمان ، وبهذا الثبات الواثق الراسخ وقفت شارلوت كورداى ، التى أطلق عليها فى فرنسا اسم « الملاك القاتل » تجيب عن مثل هذه الأسئلة أمام المحققين فى محكمة الثورة . وكانت إجاباتها ممتلئة بشعور عجيب يمتزج فيه النصر بالقناعة والفخر بالإيمان ، والوطنية بالإنسانية ، والصدق والتضحية بالبساطة والتواضع !

ولنعد إلى الوراء قليلا لكى نبدأ الحكاية :

الفوضى والصراع على السلطة

عندما قامت الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ ، جرف تيارها الهادر أمامه كافة الاستحكامات الملكية والتقاليد المحافظة .. وكما عرفنا فى لقاءاتنا السابقة ، فقد كانت الرومانسية المترفة السابحة فى أطياف الحب والجمال والدلال والرفاهية ، يضفى على الحياة الباريسية ملامح الدعة والسكينة والهدوء الشاعرى ، ولكنه كان الهدوء الذى يسبق العاصفة .. وما أن هبت العاصفة جامحة عاتية ، حتى اجتاحت القصر الملكى وساقت لويس السادس عشر ومارى أنطوانيت فى مقدمة الصفوة المتربعة على قمم السياسة والفكر





شارلوت وراء القضبان أثناء المحاكمه

والفن فى عهد ما قبل الثورة إلى ساحات الإعدام . وساد الهرج والمرج ، وشهدت فرنسا أحداثا جسامًا زلزلت الأرض وقلبت المعايير . وككل ثورة تحولية خطيرة ، بزغت أسماء ، وظهرت قيادات تنطلق من طموحات متباينة ، ظاهرها الإخلاص والوطنية ، وباطنها التسلق والذاتية .

ولما كانت الشعارات الثورية تبدو مثالية براقة فى الشكل والمظهر ، انساقت الجماهير الفرنسية خلفها مندفعين كالموج الهادر وراء القادة الجدد ، مرددين شعاراتهم وأهدافهم المعلنة .

وكانت الثورة الفرنسية فى ذلك العام — عام ١٧٩٣ — قد بلغت مرحلة من العنف والتطاحن الشخصى واختلاط الأهداف بالأطماع ، حدا كادت تضيع فيه معالم تلك الثورة الرائعة التى زرع بذورها فى صدور الفرنسيين طغيان لويس الرابع عشر ، وفساد لويس الخامس عشر ، وسفه وبذخ لويس السادس عشر ، وروت شجرتها آراء وكتابات فولتير وديدرو روسو ، كما أشعلت أوارها لوحات لويس دافيد الملتهبة الزاخرة بالحماس والمواقف الوطنية ، تلك التى تتغنى بالفداء والحرية ! فلما نضجت الدوافع الثورية ، وهبت الثورة ، وحققت أهدافها الأولى فى القضاء على البلاط الفرنسى وأعوانه ، راح أبناء الشعب يتصارعون ويقتتلون ، وطفحت الأطماع الشخصية على السطح الملطخ بالدماء والدمار . وراح القادة الجدد يتبادلون التهم ، ويصمون بعضهم البعض بالخيانة والدكتاتورية والتسلط ، فسالت الدماء « الثورية » فى المحافل والأندية والطرقات !

وانقسم الفرقاء

وكان الصراع على أشده بين فريقين : الأول فريق المتطرفين الذى كان « مارا » من زعمائه .: وكانوا يسمون أنفسهم بحزب الجبل ، إشارة إلى مقاعد اليسار المرتفعة التى كانوا يحتلونها فى المجلس



△ الإعدام بالمقصلة الرهيبة !



▷ القبض على لويس السادس عشر



لوحة لرسام معاصر
شارلوت كورداى
تصرع مارا بطعنتها القاتلة

التشريعى . أما الفريق الثانى فكان : فريق المعتدلين ، ويضم رجال الطبقة الوسطى من صفوة المثقفين . وكان من الطبيعى أن يركز الفريق الأول « المتطرفون » نشاطه بين مراكز النفوذ من العاصمة فى قلب باريس ، بينما الفريق الثانى « المعتدلون » ، نرى أن معظم أتباعه من أهل الريف الفرنسى . وبالتالى ، فلم تكن الكفتان متكافئتين . فقد ارتكب فريق « مارا » أشنع المجازر الوحشية ضد خصومهم ، بالعشرات والمئات بلا تورع ولا حساب ، تؤازرهم قوى الردع المركزى الرهيبة فى العاصمة الفرنسية !

وقد اتهم المعتدلون « مارا » صراحة بتدبير المذابح فى السجون ، وحوكم بالفعل محاكمة صورية لتهدئة الخواطر على هذه التهمة ، ثم قضى ببراءته .. وكما كان متوقعا ، فقد انتقم مارا انتقاما رهيبا من فريق المعتدلين .. وحاك لهم سلسلة من الدسائس والاتهامات .. أسفرت عن إعدام تسعة وعشرين من نوابهم .. كما نكل بزعمائهم ما وسع له التنكيل ! فانهار حزبهم ، وانهارت معه عزيمتهم ومقاومتهم من هول ما حاق بهم من الكوارث والمؤامرات .. وخلا الجو لحزب الجبل ، وانفرد بمصائر الأمور !

وكان مارا « MARAT » شخصية فذة يتمتع بموهبة متألقة وذكاء عجيب ، فقد كان طبيبا مرموقا وكيميائيا وعالما فى شئون المغناطيسية والكهرباء والضوء والحراريات ولكنه لم يلبث أن خاض غمار السياسة وأصدر جريدة سماها « صديق الشعب » ، راح ينفث فيها أفتك السموم ، محرضًا على الثورة والقتل والتحولات الثورية المدمرة . وتعرف فى تلك الفترة على فتاة من أجمل فتيات باريس كانت على جانب كبير من الجمال والثراء فى الوقت ذاته ، تسمى « سيمون افرار » فاستغل ثروتها الطائلة فى إصدار جريدته وتصدير مبادئه وإحاطة نفسه بالأعوان والمؤيدين . ولم يشأ أن يتزوجها ، فاتخذ منها خليلة كعادة القادة والشخصيات البارزة فى مجتمع العاصمة آنذاك ، وظل كذلك حتى لقى حتفه على يد شارلوت

كورداى أمام نظر خليلته سيمون وهو فى حمامه عاريا لا يقوى على الإفلات أو الفرار !

الثقافة والحقد والتشرد

أما بطلتنا التى فرضت نفسها على إبداعات الفنانين .. واحتلت صورها أروقة المتاحف كما أفسحت لها صفحات التاريخ أرحب المجالات ، وتناول المفكرون والمحللون والمؤرخون شخصيتها الأبية الشجاعة بالتقييم والبحث والدراسة .. فقد ولدت من أسرة فقيرة فى ٢٧ يونيو من عام ١٧٦٨ .. وشبت الفتاة « مارى آن شارلوت » مولعة كأبيها بالقراءة والثقافة .. وكم كان والدها « فرانسوا دى كورداى » يتلو على مسامعها صباح مساء .. سخطه ونقمته وتبرمه بفقره وعلى الأنظمة الاجتماعية والسياسية التى سادت البلاد ، سواء فى أيام الملكية الأرستقراطية الماجنة .. أو فى عهود التطاحن والمؤامرات التى أتت بها الثورة .

وقد اضطرت شارلوت بحكم الحاجة القاسية — إلى العمل فى سن مبكرة للتخفيف عن كاهل والدها .. فعملت فى بيوت الأثرياء .. ثم عادت لترعى إخوتها بعد موت أمها .. وكانت الفتاة فى الثالثة عشرة من عمرها آنذاك ، وظلت فى هذا الكفاح .. تتكبد الحرمان والمعاناة الأليمة حتى بلغت العشرين .. ورق لها قلب عمتها العجوز ، ففتحت لها باب بيتها ، وعندها شعرت بنعيم الأسرة وراحة الجسد وهدوء الخاطر .. فكانت تقضى الساعات الطوال كل يوم فى مكتبة عمتها العامرة بالكتب والمخطوطات .. فقرأت مؤلفات فولتير ، وروسو ، ورينال وغيرهم من أعلام الفكر والحرية .. وعندما يأتى المساء .. تتوافد الزائرات على بيت العمة الحنون ، ولا حديث لهن إلا عن وحشية الغوغاء والسخط على عصابات الثورة واندلاع الفوضى فى البلاد .

وكتبت شارلوت وقتها لإحدى صديقاتها خطابا (هو الآن من محفوظات أرشيف الدولة فى باريس) تقول فيه : ... لن أكتب لك عن الحب وأطياف الغرام والقلوب المسهدة وتدلل المحبين .. ولكنى اليوم أقول لك انظرى إلى وطننا ، فرنسا المسكينة وقد سلمت أقدارها إلى أيدى أولئك الأوغاد الذين يسوموننا صنوف العذاب ، إن الله وحده يعلم متى ستنتهى هذه المآسى المتلاحقة .. إننى أتفجر حقدًا على هؤلاء الجلادين الذين وعدونا بالحرية ، فإذا هم يذبحونها ويستحلون دماء الأبرياء .. إنهم ليسوا إلا سفاحين .. فلنحزن على مصير فرنسا المسكينة التى نكبت بهم !..!!

... وهكذا أخذت شارلوت تتابع الأحداث والتطاحن والصراعات الدامية ..

●● وبدأت شارلوت تواصل الليل بالنهار فى تدبير خطتها .. بعزم وترتيب لاتعوزه الدقة ، تكتم سرها بمالا يتفق مع طبيعة النساء .. ولكنها كانت نوعا فريدا من بنات جنسها ، أوقفت كل أحلامها وطموحاتها وعواطفها على حبها الكبير ... حب وطنها ومواطنيها ! وأخذت تسطر مذكراتها وخواطرها وتصوراتها الدقيقة وهى بصدد الإقدام على مغامراتها الجسورة .. تلك المذكرات التى أصبحت بعد ذلك تاريخا يتلى على أسماع العالم .. وصفحات تدون فى تاريخ الفداء والحرية فى فرنسا . فكرت الفدائية الحسناء فى تنفيذ خطتها فى أول الأمر على أساس أن تنقض على فريستها فى حفل أو مكان عام ، ليكون مصرعه ومصرعها فى آن واحد مشهدا تاريخيا يحفر فى ذاكرة التاريخ .. ولكنها عدلت عن فكرتها هذه لصعوبة الوصول إليه وجها لوجه .. وهو المحاط بالأتباع والحراس المدججين بالسلاح ..

فأخذت شارلوت تنتهج خطة جديدة تحفل بالمناورات والمراوغات وسبل الخداع .. لا لشىء إلا لكى تنفرد بالمسئولية وحدها .. ولكى تجنب أهلها وأصدقاءها أى أذى قد يلحق بهم فى المستقبل ، فبدأت بالتنقل بين القرى المجاورة لتوديع صديقاتها

وأقاربها بدعوى اضطرارها للسفر فى رحلة طويلة لم تحدد وقتها أو مكانها .. وقصدت إلى بيت عمتها العجوز الحنون ، فجمعت مابها من صحف ومنشورات ثورية وأوراق وكتب هادفة .. وأحرقتها جميعها حتى لا تترك أية قرينة يستدل منها على أفكار بعينها . ثم واجهت أشق واجباتها .. وهو الاعتذار لوالدها الذى لم تستطع أن تجابهه بكلمة واحدة عما عزمت الإقدام عليه فى مهمتها المصيرية ! فخطت له رسالة تقول فيها :

« أبى الحنون .. أبى العظيم .. يامن أرهقتك سنوات العمر وصروف الأيام وشظف العيش وفواجع الوطن وقسوة الحياة .. إننى مدينة لك بالطاعة والحب والتقدير .. ولكنى راحلة دون أن أراك .. وتضطرنى ظروفى أن أسافر قبل أن تأذن لى .. وليس هذا التصرف عقوقا منى أو تمردا على سلطانك علىّ .. ولكنه تجنب لما يسببه لى ولك من ألم الفراق الذى لا أقوى على احتماله ، إننى ذاهبة إلى إنجلترا لأقيم فيها مؤقتا .. وأعتقد أنك ــ يا والدى العظيم ــ تشاركنى الرأى بأن أحدا لا يستطيع أن يعيش سعيدا هانئا فى فرنسا قبل أن تنقشع الغمامة القاتمة التى جثمت على صدورنا كشبح خرافى رهيب ! إننى أضع هذا الخطاب فى صندوق البريد فى اللحظة التى أرحل فيها .. وحين يصل إليك لتقرأ سطوره .. أكون قد غادرت وطنى الحبيب .. إن السماء قد أبت علينا متعة العيش معا .. كما حرمتنا الكثير من المتع التى ينشدها أى مواطن يتطلع إلى نعمة الأمن والأمان والحرية كما وهبها الله لنا وأوصى بها الأنبياء والرسل والكتب السماوية والقوانين ..

وداعا يا أبى العزيز .. قبّل أختى نيابة عنى .. وباركنى دائما بدعواتك !! »

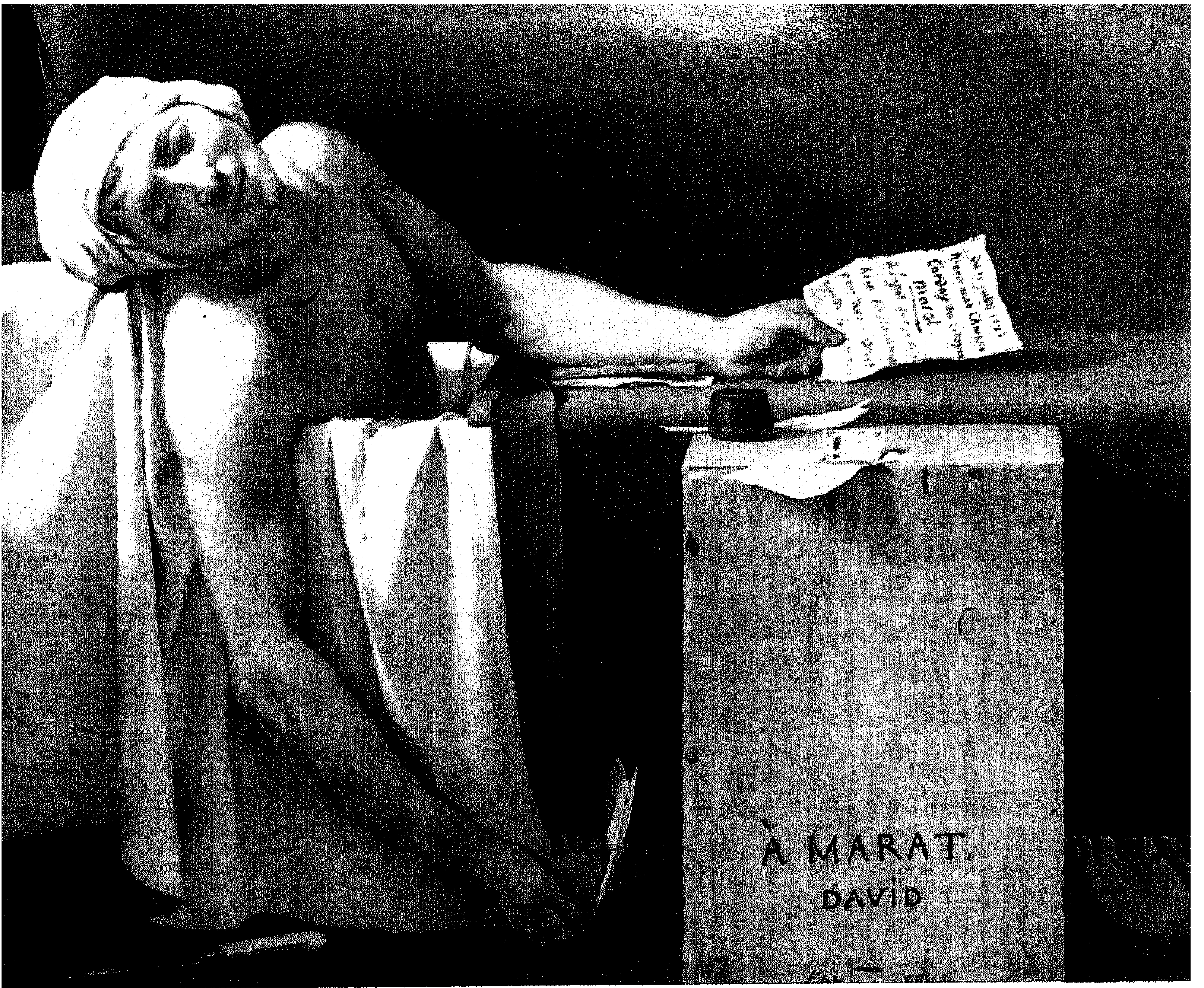
.. وبدأ العمل

وبعد ساعة أو بعض ساعة ، كانت شارلوت قد تأهبت لرحلة المصير .. لا إلى إنجلترا كما زعمت فى رسالة والدها .. ولكن إلى باريس !! إنها بغيتها حيث يكمن فى جحورها أشد الجوارح فتكا .. وقد حان وقت الانتقام ! وهناك أقامت بفندق متواضع لا يقصده إلا القرويون والبسطاء .. وعلى الفور بدأت فى إعداد نداء حار مؤثر إلى مواطنيها جاء فيه :

« إلى متى أيها الفرنسيون التعساء يستهويكم الشقاق والانقسام .. هل غاب عنكم أن هؤلاء الأوغاد الذين يطلقون على أنفسهم زعماء الثورة يؤثرون مصالحهم الشخصية وتحقيق أطماعهم على مصلحة الوطن والمواطنين ؟ ففيم إذن أيها الضحايا المساكين يقتل بعضكم بعضا لحسابهم ؟ وبذلك تساعدونهم على استفحال بغيهم فوق أشلاء وطننا المحطم ! »

« أى فرنسا .. إن سعادتك رهن باحترام القانون ، ولكنى لا أخالف القانون عندما أقتل « مارا » الطاغية ، إنه إذ استحق سخط العالم أجمع ، قد خرج من حظيرة القانون ! »

« أى وطنى العزيز .. إن الكوارث التى تنزل بك تمزق قلبى إربا إربا ، لست أملك إزاءها إلا أن أهبك حياتى .. وأشكر الله الذى وهبنى نعمة التصرف والسير فى طريق الصواب .. فليكن رأسى فى قبضتهم معلقا على أسنة الرماح فى شوارع باريس .. ليشهده الجميع .. ولتكن صحوة تؤذن بانطلاق العدالة وسيطرة الحق والقانون .. وليشهد حزب الجبل ... حزب السفاحين كيف يكتب بدمى وثيقة ترنحه وانهياره ونهايته .. فلأكن أنا آخر ضحاياهم وستكون نقمتهم على وسام بطولة ، وشهادة تقدير من عدالة الإنسانية ! »



لوحة دافيد الشهيرة « مارا قتيلاً فى حمامه »

●● وفى صبيحة السبت ١٣ يوليو سنة ١٧٩٣ ، قصدت شارلوت إلى بيت « مارا » وطلبت مقابلته ، وألحت فى لقائه مدعية أن فى حوزتها وثائق هامة ، وأنباء خطيرة تريد إبلاغها إليه .. وأنها من أنصاره ومن الحريصين على زعامته ... و ... و ...!! ولكن حراسه صدوها فى خشونة بالغة .. وعندما احست خليلته « سيمون أفرار » بحدة النقاش على باب البيت .. خرجت مسرعة لتقف على حقيقة الأمر ... ولكنها عندما اكتشفت أن طالب المقابلة .. فتاة جميلة .. وليس رجلا ... أمرت بانصرافها على الفور !

وعادت شارلوت أدراجها إلى فندقها الصغير .. وكتبت إلى مارا الخطاب التالى :

« لقد وصلت لتوي من « كايان » ، وإننى على يقين من أنك أيها الزعيم المخلص لوطنك ستتلهف على سماع ما عندى من أخبار وأحداث وقعت فى ذلك الجزء من الجمهورية .. فعلت كل ذلك من واقع حبى لك .. وغيرتى على وطنى بقيادة زعيمى « مارا » .. ولهذا ساحضر إلى منزلك فى الساعة الواحدة بعد الظهر .. فأرجو التفضل باستقبالى والإذن لى بمقابلتك ولو لدقيقة واحدة .. حيث سأهيىء لكم الطريق لتقديم خدمة كبرى إلى فرنسا » .

ولم تذهب شارلوت فى الموعد الذى حددته ، بل تأخرت إلى المساء .. فارتدت ثوبا بسيطا أضافت إليه « شالا » من الحرير غطت به صدرها وعقدته من الخلف عند وسطها ، وأخفت بين ثناياه الخنجر

والنداء الموجه إلى مواطنيها .

وسلمت خطابها الذى طلبت فيه مقابلة الزعيم إلى ياوره الخاص ، وبينما كان يقرأه مارا ، كانت شارلوت تكافح عند الباب للسماح لها بالدخول .. وفى هذه المرة ، استقر رأى مارا ورفيقته سيمون أفرار على أن تدخل الفتاة فورا لسماع ما عندها من أخبار .. وكان يأخذ حمامه ليستعد لاجتماع مع أعضاء حزبه .

وقادت سيمون الزائرة الغريبة « شارلوت » إلى حجرة مارا .. وتأملت الفتاة ما بها من أثاث مبعثر جعل من الحجرة مكانا أشبه ما يكون بالأوكار البوهيمية الرثة ..

وقد تناثرت على أرضيتها بعض أعداد الجريدة التى كان يصدرها مارا وسماها « صديق الشعب » ، ويتوسطها الحمام الذى ثبتت بجانبه قطعة من الخشب تقوم بعمل المنضدة ، وعليها محبرة وزجاجة دواء ..

واقتربت شارلوت من الحمام ، حيث كان مارا يجلس فيه مستمتعا بمائه الدافىء .. وصارت بطلتنا وجها لوجه أمام صيدها الذى تكبدت من أجل اقتناصه الأهوال والصعاب .. وتظاهرت بأنها تريد إطلاعه على المعلومات الهامة والوثائق التى تحملها .. وبدأت بالفعل تروى على مسامعه قصة مختلقة ، قائلة له وهى تغض من بصرها :

« سيدى .. قامت فى « كايان » حركة عصيان مدنى يتزعمها سبعة عشر نائبا ، وأخذوا ينظمون قوة من الجيش تنوى الزحف على باريس .. ولدّى أسماء هؤلاء النواب المتمردين » ...

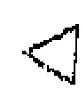
فأسرع مارا إلى قلمه وتناول ورقة .. يكتب عليها الأسماء .. وكان يقول كلما كتب اسما منها : إلى المقصلة ! وعندما يكتب اسما آخر .. يعلق : حسنا سيكون عبرة لغيره من العصاة !... وهكذا ..

وفى هذه اللحظات .. بلغ الاشمئزاز والاستفزاز مداهما فى نفس شارلوت ، فاستجمعت كل ما فى نفسها من حقد وشجاعة .. وأخرجت خنجرها فى طرفة عين وانقضت عليه .. حتى انغمس النصل فى صدره .. وكانت الطعنة القاتلة القاضية ، وسالت دماؤه الغزيرة التى أحالت مياه حمامه إلى اللون الأحمر القانى .. وكأنه يستجمع دماء ضحاياه ليغرق فيها جثة هامدة !

● ● وطال استجواب شارلوت .. وقضت المحكمة بإعدامها .. بعد أن دافع عنها محاميها « ديلاجارد » ببلاغة وإسهاب وحماس وطنى رائع ...

وكما ذكرنا فى المقدمة ، فقد كانت طوال محاكمتها مثالا للشجاعة والصمود والثبات .. وعندما سمعت الحكم بإعدامها ومصادرة أملاكها ... ابتسمت ساخرة .. والتفتت إلى محاميها تخاطبه فى رقة وعذوبة وكأنها تناجيه : « أيها المحامى الشجاع .. لقد قمت بواجبك نحوى ، كما قمت أنا بواجبى نحو وطنى ! سيدى : لا أستطيع أن أوفيك حقك بكلمات .. لقد كنت مخلصا شجاعا فى دفاعك ... إنه صرخة حق تطلقها لتصم آذان الجلادين .. إن هؤلاء السادة [illegible] إلى التضحية [illegible] حكموا بمصادرة أملاكى [illegible] لك [illegible] دليل




عنفوان المشاعر الثورية !



جماهير حزب مارا تنادى بإعدام القاتلة

على عرفانى بالجميل ، فأطلب منك أيها المحامى الكريم أن تسدد الديون المستحقة علىّ للسجن .. وإننى واثقة من كرمك ، وكنت أتمنى أن يجدوا عندى أملاكا يصادرونها حتى لا أموت وفى ذمتى أى دين لهم » !!

●● وقد نفذ المحامى هذه الوصية بأمانة تامة ، وسدد للسجن ستة وثلاثين فرنكا فى اليوم التالى لإعدامها !

... ودارت عجلة الأحداث ... وتغيرت موازين القوى فى فرنسا ..

وتوارى الجميع تحت الثرى وطويت صفحاتهم .. ولم يبق إلا روائع الفنانين العظام .. تتألق فى المتاحف ومجمعات التراث وكتب الفن والتاريخ ، تطالعنا وتصافح عيوننا كلما بحثنا فى مكنوناتها عن أسرار العبقرية والعطاء والفداء .. إنها قصة الإنسان عبر مسيرة الحياة .. تبعثها الملكات الملهمة حية نابضة من خلال الإبداعات العبقرية .. وهكذا صارت البطولة والحرية .. والفداء .. قيما ملهمة ومناهل سائغة للفن والفكر الرفيع .

حسناء نجد بين شاعر العرب وتقاليد القبيلة


قال « ابن رشيق » فى كتابه « العمدة » الذى ظهر فى القرن الحادى عشر ، وهو يصف العرب الأقدمين :

« ... وكانوا لا يهنئون أنفسهم إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم .... » !

فقد كان للشعر والشعراء منزلة سامية ومكانة لاتدانيها مكانة .. وعندما جاء الإسلام بمثله العليا وأخلاقياته وكتابه المبين ليؤسس مجتمعا جديدا وليحدث ثورة عالمية بما يتصل بها من سبل التنوير والجهاد والنضال ، كان للشعر والشعراء دور فى بناء صرح الرسالة .. ولكنه دور ذو ملامح وسمات خاصة لا تعتمد على المدح والهجاء كما كان متبعا من قبل .. وإنما ينبع من قرائح شعراء أحرار ، لا تستعبدهم مطالب الحياة ومقاصد المال ووسائل النفاق .. ولذلك ، كان لا بد من دعاة متجردين ، يتسامون إلى مستوى الأهداف النبيلة التى تتوخاها الثورات التاريخية الكبرى وتطوير الحياة ونضح الضمير البشرى فى وجدان الفنان الإنسان !...

ولذلك رأينا جماعة من الشعراء العرب وقد اعتصموا بالحرية وتغلبت ضمائرهم اليقظة على النمطية وسلطان الوراثة .. فأسهموا بمواهبهم وعبقرياتهم الشعرية مع بناة الإسلام وأبطال انتصاراته ، وكان أعلام هذه الجماعة هم أبطال من الشعراء .. أو شعراء من الأبطال .. وهم :





طرفة وعنترة ولبيد .. ولعل أبرزهم جميعا فى هذا الميدان هو عنترة بن شداد بن عمرو حيث توالت أخباره .. وعمت سيرته الشرق والغرب .. وقد كرمته السنة الشريفة عندما روى فى حديث مسند أن رسول الله ﷺ أنشد قول عنترة :

ولقد أبيت على الطوى وأظله
حتى أنال به كريم المأكل

وقال عليه الصلاة والسلام : « ما وصف لى أعرابى قط ، فاحببت أن أراه إلا عنترة ! » .

كما روى عن عمر بن الخطاب أنه سأل الحطيئة :

ـــ كيف كنتم فى حربكم ؟

فأجابه :

ـــ « كنا ألف فارس حازم ، وكان فارسنا عنترة . فكنا نحمل إذا حمل ، ونحجم إذا احجم ! » .

فقال عمر : « صدقت » !

وقد عرف عن عنترة أنه قال عن نفسه يصف كره وفره :

« كنت أقدم إذا رأيت الإقدام عزما . وأحجم إذا رأيت الإحجام حزما . ولا أدخل موضعا قبل أن أرى لى فيه مخرجا .... »

●● ولد فارسنا عبدا من جارية حبشية تدعى زبيبة . كان أبوه قد سباها فى إحدى غاراته على القبائل المتصارعة ، وكان ميلاده بنجد فى الربع الأول من القرن السادس الميلادى . وكانت تقاليد الجاهلية الحاكمة تقضى باستعباد أولاد الإماء ... ولا يعتقون ولا ينالون حريتهم إلا بعد أن يظهروا نجابة أو بطولة أو مواهب خارقة ، وحينئذ يكون الابن جديرا بالحرية والانتساب إلى أبيه ..

فبينما نرى أن أباه شريف من أشراف قبيلة عبس المضرية ، نرى أن عنترة وقد نشأ نشأة العبيد يرعى الإبل والخيل الضاربة فى شعاب نجد .. وظهرت على الفتى نوازع العبقرية والفصاحة والشجاعة والفتوة .. لقد استمد من عادات النجديين وما طبعوا عليه من البلاغة والفصاحة والفروسية . كما ورث عن أبيه الاعتداد بالنفس وكرم العرب ونبل الأشراف ..



الأب .. اعتداد بالنفس ونخوة العروبة ونبل الأشراف

وبين حين وآخر ، يتحدث الناس عما ينعم به العبد من هذه الصفات .. ولكنه ما زال عبدا تكبل قيود الرق عزيمته وانطلاقته المتوثبة ! وانسابت أشعاره شجية متدفقة يمنى بها نفسه ، وفيها يقول :

إن كنت فى عدد العبيد فهمتى
فوق الثريا والسماك الأعزل !

وواتته الفرصة لكى ينال حريته وينتسب إلى أبيه .. عندما أغارت قبيلة طىء على قبيلته « عبس » ، وألحقت بها هزيمة نكراء ، وكان ذلك فى غيبة من عنترة ورفاقه الشباب ، حيث كانوا ضاربين مع إبلهم وخيولهم فى شعاب نجد بعيدا عن مضارب قبيلتهم . وانتهت هذه الهجمة غير المتكافئة بأن أسرت طىء أبناء عبس وبناتها ضمن ما نهبوه من الإبل والمؤن والمتاع .. فاتجهت القبيلة بأنظارها إلى فارسها الناشىء عنترة .. فأمره أبوه شداد بالكر على طىء واستخلاص السبايا والغنائم .. ولكن الفتى وجدها فرصته السانحة لكى



يمنحه أبوه الحرية وينسبه إليه ..

وكانت صفقة رابحة لكل منهما .. فقد انتصر عنترة انتصارا جعله بطلا لقبيلته دون منازع .. وبذلك ، أصبح عنترة بن شداد حامى حمى عبس وبطلها المغوار وحامل لوائها المظفر وشاعرها الملهم .. بل وشاعر العروبة فى عصره !..

واستمرأ النصر والشهرة والبطولة ، فأخذ يقود كتائبه فى غزوات متصلة على طيء وغطفان وحنيفة وغيرها من أعداء قبيلته .. وكانت قيادته الجسورة لا تعنى إلا النصر ! وأخذ الناس فى كل مكان .. يتغنون بانتصاراته الرائعة كما يتغنون فى الوقت ذاته بأشعاره الحماسية الملهمة ! وكانت أشعاره كبطولاته .. مليئة بالقوة زاخرة بأسباب الثقة والبأس والحكمة كقوله :

إنى امرؤ من خير عبس منصبا
شطرى . وأحمى سائرى بالمنصل
والخيل تعلم والفوارس أننى
فرقت جمعهم بضربة فيصل
ولقد أبيت على الطوى وأظله
حتى أنال به كريم المأكل

الحب الكبير

وبالرغم من حريته وانتسابه لأبيه ، إلا أنه كان يعانى من آلام نفسية مبرحة .. ليس مصدرها حساده والواشون به والحاقدون عليه .. ولكن مصدرها الأساسى هو حبه لابنة عمه عبلة .. لقد هام بها الفارس الشاعر هياما فاق كل هيام .. وكان حبا يائسا من طرف واحد .. فعبلة وأبوها — وقد تغلبت عليهما عنصرية اللون وقبلية التفاخر بالنسب وتقاليد النبش فى أصل الأم والخال .. وكل هذه الاعتبارات المتوارثة — ولذلك نراهما ينفران من الحبيب بطل الأبطال



عنترة فارس العرب

وأشعر الشعراء .. لسواد بشرته ونقص نسبه من ناحية أمه . وظن الفتى أن أمجاده البطولية وعبقريته الفنية كفيلة بأن تلين له القلوب المتحجرة .. وظل يسترضى عبلة وأباها ، ويقدم لهما ولقبيلته النصر تلو النصر .. ويحرم على قلبه أن يخفق بحب غير حب ابنة عمه .. وكانت كلما افتر ثغرها عن بسمة وضاءة له .. ركب من أجلها الصعاب ، وانهمرت أشعاره على خاطره بالأبيات العبقرية البليغة ..

●● وكانت عبلة فى قومها تحظى بملاحة نادرة .. تمشى مختالة بين رفيقاتها وكأن الأرض لم تسعها ، وبخاصة عندما تتهاوى إلى مسامعها أبيات الغزل المشبوب الذى نظمه فيها حبيبها الولهان ويتغنى به فتيات القبيلة وفتيانها .. ولكن همسات العذارى وغمزاتهن ولمزاتهن حول سواد وجهه وشق بشفته ونسب أمه تبدد أحلامها .. وتطبع على جبينها مسحة من الألم .. وتعمل جاهدة على أن تغلق دونه قلبها .. فكانت تعيش فى صراع نفسى مرير بين عاطفتها المتفتحة المتطلعة إلى سلطان البطولة والأطياف الوردية الشاعرية وبين الميراث الثقيل المتراكم عبر القرون من تلك التقاليد التى تحكم الحياة القبلية ولا سبيل إلى تجاهلها أو الفكاك منها .. غير أن الفتاة سواء أكانت قد بادلت فارسها حبا بحب أو كانت تنفر منه كما تذكر بعض الروايات .. لا تملك من أمرها شيئا إلا من خلال ما يراه أبوها .. بل وأمها كذلك .. وهل تستوى الأنساب التى هى مدعاة للتفاخر والتسامى فى ذلك الوقت بهذه السهولة ؟. وإذا تجاوز عنها الأب بحكمته ورجاحة عقله .. فماذا يبقى للأم لكى تحوك حوله الروايات نحو الجارية زبيبة التى لا تتمتع بأى حصانة عائلية .. ولا تنظر نساء القبيلة إليها إلا بنظرات الاحتقار التى تستحقها السبايا من الخدم والعبيد ؟!

وكلما ضاقت الدنيا بالشاعر الهائم .. وجثم اليأس على أنفاسه ، لجأ إلى قريحته الشعرية يستنطقها ،


فرسان العرب (للفنان فرومنتان ١٨٦٥)

ويتغنى بغزله النابع من قلبه المتيم ، يؤكد فيه أن عبلة ذاتها تعلم مقدار حبه لها :

ولئـن سألت بـذاك عبلـة خبرت
أن لا أريـد مـن النساء سواهـا

ويغامر الرجل بحياته ويخوض المعارك الضارية ، ولا يصرفه عن ذكرها وتخيل صورتها أمامه شواغل الحرب ، بل لقد اتخذ من السيوف حتى وهى تصيب جسده وتسيل دمه ، ومن لمعانها وبريقها وبياضها وحمرتها .. اتخذ من هذا كله صورة لثغر عبلة الباسم ، فيود تقبيل سيوف الأعداء :

ولقـد ذكـرتك والرمـاح نواهـل
منى وبيض الهند تقطر من دمـى
فـوددت تقبيـل السيـوف لأنها
لمعت كبـارق ثغـرك المتـبسم

ويعود من غزواته .. ويحاول أن يسترضى عمه .. ويرق قلب والده شداد .. فينضم إلى ابنه فى طلب الفتاة .. ولكن العم .. ومن خلفه زوجته المعتدة بحسبها ونسبها يزدادان إصرارا على الرفض والعناد .. ويخفف الأب من عذاب ولده ... ويعده بانفراج الأزمة غدا أو بعد غد ويزداد الغد طولا وبعدا .. وتضطرم النار فى قلب المحب المتعجل للقاء حبيبته .. وينشد قائلا :

قالـوا : اللقـاء غدا بمنعـرج اللـوى
ويطـول شوق المستهام إلى غـد !

وينفد صبره .. ويتحول يأسه إلى نار يكتوى بها قلبه .. وتستعر أنفاسه حتى يخيل إليه أن أنفاسه المستعرة تذيب الحديد إذا نفثها فى المبرد الصلب :

وتخال أنفاسى إذا رددتها
بين الطلول محت نقوش المبرد !

وعندما تصل المفاوضات العائلية إلى طريق مسدود .. يصاب الحبيب باليأس ، ويتخيل نفسه فى أرض قفرة موحشة ليس بها حياة .. إنها العزلة القاتلة بعيدا عن المحبوب :

وقد أبعدونى عن حبيب أحبه
فأصبحت فى قفر عن الأنس نازح
أعاتب دهرا لا يلين لناصح
وأخفى الجوى فى القلب والدمع فاضحى

ويبدو أن حوارا لم نعرف تفاصيله .. أو مناقشات أو مناجاة ... كانت دائرة بين الحبيبين ، وإن كانت لم تتعد النصيحة الموجهة منها إليه بأن يحرص على حياته وأن يكف عن خوض المعارك الجسورة حفاظا على سلامته .. فنراه يسمع النصيحة ولكنه لا يعمل بها .. لعله أصيب باللامبالاة بعد أن سيطر عليه اليأس القاتل .. فأخذ يتغنى بالنبل والشجاعة والإقدام لأنها كل ما تبقى له فى حياته الخاوية .. فنراه فى أشعاره يقول :

بكرت تخوفنى الحتوف كأننى
أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها إن المنية منهل
لا بد أن أسقى بكأس المنهل
فاقنى حياءك لا أبالك واعلمى
أنى امرؤ سأموت إن لم أقتل

وظل البطل الشاعر يرقى إلى أسمى المنازل فى الفصاحة والفروسية .. ولكنه كسير القلب حسير النفس محطم الوجدان ... وطال به العمر حتى بلغ التسعين .. إلى أن مات فى عام ٦٠٠ ميلادية (وفى رواية أخرى مات عام ٦١٥ م) قبل بعث الرسول عليه الصلاة والسلام بخمسة أعوام (أو بعد البعث بعشرة أعوام فى الرواية الأخرى) .. وإن لم تبلغه دعوة الإسلام على أية حال .. وقيل إنه قتل بسهم فى إحدى المعارك .. وقيل فى بعض الروايات إنه مات مع الكثيرين من أفراد قبيلته على أثر ريح رملية عاتية طمرتهم تحتها .

ولكن قصته مع ملهمته وحبيبته صارت مضرب الأمثال .. وقد أطلق على ملاحمه البطولية الشعرية : « إلياذة العرب » ... تشبها بإلياذة هوميروس الإغريقية .. وترك لنا من الشعر العذب الرقيق قرابة عشرة آلاف بيت من عيون الشعر العربى السهل المرسل .. وقد وضعه الشعراء والفلاسفة الغربيون فى مصاف أبطال الملاحم العالمية الكبرى .

وأصبحت سيرة « عنترة وعبلة » أنشودة حب وهمسة مناجاة على شفاه المحبين فى كل زمان ومكان ، ليس فى عالمنا العربى فحسب ، بل ترجمت إلى اللغات العالمية منذ أوائل القرن الثامن عشر .

● ● وإن كانت ملهماتنا . ينعمن بالقرب من المحبين ، كما ينعم المحبون بقربهن .. إلا أن ملهمتنا هذه المرة كانت فى منازل الأفلاك العلوية بعيدا عن حبيبها . إنها وإن تعالت على حسبه ونسبه ، إلا أنها ألهمته البطولة الفذة والشاعرية العبقرية حتى ارتفع قدره فى قومه .. وكان أمله أن يكون جديرا بأن يرقى إلى مكانته الفوقية .. ولكنه عاش مكبلا بقيود اللون والأصل وأدران العنصرية .. ولم يكف يوما عن الشوق إليها والتغنى بحبها حتى بلغ من السن عتيا ، وأخيرا ، أذابت عواطفه المستعرة عمره اليائس ، وأحالته إلى أطلال تهتف حتى الرمق الأخير بنداء حبيبته الملهمة .

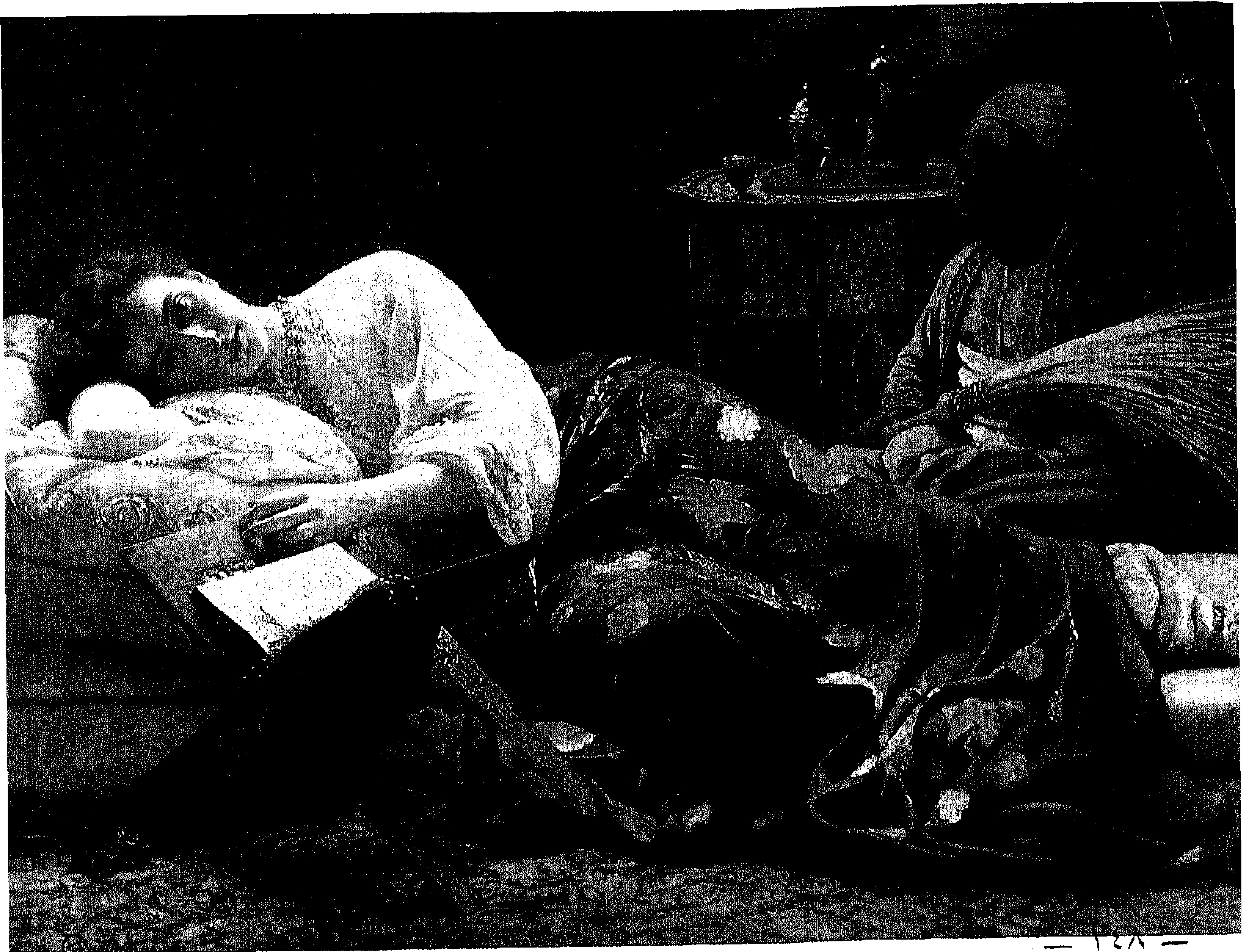


الأميرة الشاعرة والتباكى على الأطلال

منارة الإسلام على بحر الظلمات ، وإشراقة النور على جبين التراث الحضارى ، وبسمة الأمل على شفاه الفكر والإبداع الإنسانى .. تلك كانت الأندلس !

صارت أيامها تاريخا فى طى التناسى .. وأطلالا لانملك إلا التباكى عليها .

●● منذ سنوات — أى فى عام ١٩٧٩ — فكرت الجامعة العربية واتحاد المؤرخين العرب ، أن يقيموا بقرطبة مهرجانا عالميا للتراث الإسلامى بالأندلس على غرار مهرجان العالم الإسلامى الذى أقيم فى لندن فى صيف عام ١٩٧٦ .. فعقدوا الاجتماعات ، وأعدوا البرامج والأبحاث .. ثم أجلوا المشروع إلى العام التالى .. وعقدوا المزيد من الاجتماعات على أرض عاصمة عربية خليجية هى « الدوحة » وعلى الأرض الإسبانية كذلك فى نفس الوقت .. وقامت الوفود المتحمسة بزيارة مجمعات التراث الإسلامى فى أشبيلية وقرطبة وغرناطة .. ثم .. تأجل المشروع مرة أخرى إلى عام ١٩٨١ .. وتحمس لنا الأسبان وأخذوا يعدون القاعات ، ويجهزون التحف والنفائس وكنوز الآثار الأندلسية .. ويرسمون خطط الدعاية .. بل وعرضوا أن يفتتح ملك أسبانيا هذا المهرجان العالمى الإسلامى



الأميرة الشاعرة للفنان آنج تيسييه (١٨٦٠)

الكبير .. وانتظروا منا — نحن العرب — أن نبعث بما تتطلبه نفقات المهرجان التي قدرت يومها بنحو ثمانية ملايين دولار .. ولكن ، تقرر أخيرا تأجيل المشروع إلى أجل غير مسمى .. أي : ألغيت الفكرة من أساسها .. وكان العائق هو المال !

ولنصدق أو لا نصدق : إن كل ما أمكن تحصيله من جميع بلادنا العربية آنذاك لم يصل إلى المليون !

وكان دورى أنا — كاتب هذه السطور — دورا فنيا بحتا — بحكم عملي خبيرا للفنون هناك .. لقد كلفت بجولة (من إحدى المؤسسات السياحية) في ربوع الأندلس ، أعيش فيها بين الأمجاد والأطلال ، محلقا بخيالي ووجداني بين أطياف ثمانية قرون من أيام الإسلام في الأندلس ، لأتمثل الماضي وأتفاعل معه ثم أفرز انفعالاتي على صورة مجموعة من اللوحات الفنية ، يضمها معرض خاص محاط بشتى وسائل الإعلام ليطوف العواصم العالمية .. كوسيلة فعالة للدعاية عن الحدث العظيم .

فأخذت أدرس كل ما أتيح لي من معلومات واطلاعات في هذا المجال .. وخرجت من هذه الجولة الممتعة بحصيلة رائعة كمّا وكيفا عن أمجاد الأندلس : التاريخ بأحداثه المتلاحقة .. التحولات الاجتماعية والفكرية المثيرة .. طابع العلاقات الوجدانية في ليالي السهر والسمر والسرف والترف والبذخ .. الطبيعة الخلابة بأنهارها السائغة وخمائلها الفيحاء الساحرة التي تغنى بها ابن خفاجة قائلا :

يا أهل أندلس لله دركم
ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم
ولو تخيرت هذا كنت أختار

وتمثلت الأندلس في خاطري حيث منتديات الفن والأدب والشعر .. وسكنة الليل الحالم .. تتردد في أجوائه الألحان الشجية والموشحات الأندلسية الشهيرة وفي إحداها يقول (ابن اللبانة) :

في نرجس الأحداق ..
وسوسن الأجياد
نبت الهوى المغروس
بين القنا المياد
وفي نقا الكافور
والمندل الرطب
والهودج الموزور
بالوشي والعصب
قضب من البللور
حمين بالقضب
نادى بها المهجور
من شدة الحب
أذابت الأشواق
روحي على أجساد
أعارها الطاووس
من ريشه أبراد !

.. صور رائعة مثيرة تنقب في خيال الفنان ، وتلح على بصيرته أن يجسدها بين أنامله إبداعا متألقا ولمسات حانية مرهفة !

إن قصة الأندلس بما تزخر به من جسام الأحداث وآيات العطاء .. طويلة .. طويلة !

والباحث بين ثنايا هذه الأحداث المذهلة الممتعة .. لابد له من وقفة متأنية يرنو فيها إلى المرأة الأندلسية الملهمة .. فيقول لسان الدين بن الخطيب (شاعر الأندلس ومؤرخها) في كتابه الجامع المسمى (اللمحة البدرية في الأخبار النصرية) :

« ... والأندلسيات جميلات فاتنات ، موصوفات باعتدال السِّمن وتنعم الجسوم واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وطيب الشذا ، وخفة الحركات ، ونبل الكلام وحسن المحاورة . وقد بلغن من التفنن في الزينة ، والتظاهر بين المصبغات والتنافس في الذهبيات والديباجيات والتماجن في أشكال الحلى .. إلى غاية بعيدة . فتبصرهن أيام الجمع كأنهن

الأزهار المتفتحة فى البطاح الكريمة تحت الأهوية المعتدلة » !!

●● كما تبرز النصوص القديمة مدى تحرر المرأة الغرناطية ، أما بنات الأمراء وكبار القوم فكن يتميزن بثقافاتهن الواسعة .. وكانت الجاريات المغنيات آية من الجمال والجاذبية .. يتنافسن فى اجتذاب كبار الشعراء والفنانين ورجال الفكر والسياسة .. وكثيرا ما كان ملوك غرناطة يتزوجون بجاريات شقراوات ذوات عيون زرقاء وشعور صفراء .. ويرجع ذلك إلى شغف الحكام (من العرب أو البربر) بالفتيات الأوربيات .. ولذلك رأينا أمهات معظم ملوك غرناطة من أصل أوروبى مسيحى . كما أن القادة والمشاهير من أهل الأندلس .. كانوا يسبغون على الجميلات من صنوف الكرم والتدليل ، ماجعل للمرأة الأندلسية مكانا مرموقا ومكانة سامية فى القلوب وفى مسيرة الأحداث وتألق الإبداع والفكر الرفيع .

الشاعرة .. فاتنة القلوب

ومن شهيرات النساء الشاعرات : ولادة التى تغنى بها ابن زيدون فى مساجلاته الشعرية ، وهى بنت المستكفى بالله الخليفة الذى لم يدم حكمه إلا عامين .. وقد نسبت إليها الأبيات التالية التى طرزتها بالذهب على أحد عاتقى ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالى
وأمشى مشيتى وأتيه تيها

وكتبت على الآخر :

وأمكن عاشقى من صحن خدى
وأعطى قبلتى من يشتهيها !!

أما ابن زيدون فهو الشاعر الوزير الذى اكتوى بنار حبها ، وصارت أشعاره الملتهبة الشهيرة تساؤلات ومناجاة وردودا على أشعارها ، فى مساجلات وجدانية رائعة أضافت ثراء وآفاقا جديدة على حركة الفكر الأندلسى فى أواخر العهد الأموى وعصر ملوك



ولادة .. كما تخيلها فنان أوروبى فى القرن الماضى



الشاعر الوزير ابن زيدون

الطوائف هناك .. إنه أحمد بن عبد الله بن أحمد بن غالب بن زيدون المخزومى . وكان بطلنا شخصية تتسم بسمات خاصة ، فهو مهيب الطلعة وسيم الخلقة ذكى العقل مرهف القلب .. بالإضافة إلى موهبته الشعرية الفذة وقدرته الأدبية الفائقة ، وكانت بطلتنا الشاعرة الأميرة الفارسة ولادة بنت الخليفة الأموى الأندلسى محمد بن عبد الرحمن ، الملقب بالمستكفى بالله .. أحد الخلفاء الضعاف الذين توالوا على حكم الأندلس خلال الفترة المضطربة التى شهدت انهيار العهد الأموى ، ثم قيام عصر الطوائف على أنقاضه ، وقد ورثت الأميرة الشاعرة ثراء الأميرات وبذخهن ، إلى جانب ما يتميزن به — عادة — من كبرياء لا يقهرها إلا الحب ! وقد أضافت ولادة إلى تحرر عصرها ألوانا جديدة من التحرر أتاحتها لها ظروفها الخاصة ، فجعلت من قصرها ملتقى أدبيا . تستقبل فيه كل ليلة جموع الشعراء والفنانين والكتاب والنقاد .. حيث تدور المساجلات والمناقشات المحتدمة يتخللها الاستمتاع بألوان شهية من فنون الموسيقى والرقص والطرب والغناء .. ولا شك أن هذا الملتقى الفنى الرائع كان ميدانا مناسبا لإثارة العواطف ومجالا رحبا لانطلاقة الخلجات الجياشة من قلوب المعجبين بها الملتفين حولها كل مساء .. كدرة تأخذ بالقلوب والأبصار .. تتربع على عرشها المتألق فى هذا « الصالون » الأدبى الرفيع .. وكان أهم محصلتها هو ظفرها بالحب والتقدير ، وتنافس الجميع فى إرضائها والتقرب منها والتغنى بها . وقد ذكر المؤرخ الأندلسى ابن بسام :

« كانت درة يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلو نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب .. »

ومما قالته ولادة عن نفسها ، وقاله عنها غيرها ، يغلب على الظن أنها كانت مصونة عن التبذل والإسفاف .. مكتفية ومستمتعة بسيطرتها العاطفية على جموع الحضور فى صالونها الأدبى .. ومما تحدثت به عن نفسها :

إنى وإن نظر الأنام لبهجتى
كظباء مكة صيدهن حرام
يحسبن من لين الكلام فواحشا
ويصدهن عن الخنا الإسلام

ومن خلال هذا الإطار نستطيع أن نتصور ولادة .. الأميرة الفارسة الشاعرة المحبة الجسورة .. ولا يجب أن نتجاوز هذا التصور المعقول فنذهب إلى حيث ذهب بعض الباحثين المتطرفين فصوروها وكأنها إحدى فتيات الليل ، تبيع الهوى فى غير تحفظ ، وتتلذذ فى تعذيب الآخرين !

وإذا كانت هناك بعض النصوص التى انحدرت فى الانحدار بها إلى ذلك المستوى الوضيع من الابتذال ، فإن كثيرا من الباحثين الجادين يرجعون هذا إلى الأشعار المدسوسة والأساطير المختلفة التى تثار — عادة — حول غانيات التاريخ وشهيراته الفاتنات .. وتجد هذه الشائعات رواجا مذهلا عند عشاق السمر والمغامرات ، ويتناقلها الناس .. على أنها تاريخ يصل إلى حد الحقيقة والاعتقاد !

●● نعود إلى ابن زيدون ، فنراه يتردد على « صالونها » الأدبى ، وهو يحظى بمكانة مرموقة فى المجتمع ، فهو شاعر شهير ووزير خطير .. فأعجبت به ولادة كما أعجب بها .. وتحول الإعجاب من خلال اللقاءات الساهرة والأشعار الثائرة إلى حب جارف بينهما . وقد بلغ هذا الهيام حدا جعلها هى التى تطلب اللقاء وتتعجله تحت جنح الظلام ، ومن ذلك قولها :

ترقب إذا جن الظلام زيارتى
فإنى رأيت الليل أكتم للسر
وبى منك ما لو كان بالشمس لم تلح
والبدر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وكان ابن زيدون — بدوره — أمينا على سرها ، يحوطها بكل حنان وصون ، ومن ذلك قوله :

أصونك من لحظات الظنون
وأعليك من خطرات الفكر
وأحذر من لحظات الرقيب
وقد يستدام الهوى بالحذر

بهذه الثقة المتبادلة .. وبالحب والإخلاص بينهما ، عاش المحبان فى وصال معطاء وود واشتياق . إلا أن هذه الأجواء العاطفية النقية ، لم تلبث أن عكر صفوها الحساد والحاقدون كما هى عادة البشر فى كل زمان ومكان ، وكان أشد الحساد الناقمين على ابن زيدون هو ابن عبدوس .. لقد وقع فى حب ولادة .. وكان لابد له من أن يكيد لمنافسه ابن زيدون صاحب الحظوة فى نفس الأميرة الفاتنة . فنجح فى الإيقاع به عند الملك (أبى الحزم بن جهور) ـــ أول ملوك الطوائف فى حكم الأندلس فأقصاه من الوزارة ، واشتد من تأليبه عليه حتى زج به فى غياهب السجن ، وبذلك خلا الجو لابن عبدوس . وبعد أحداث متتالية لاهثة كثيرة ، فر ابن زيدون من السجن فى قرطبة ولجأ إلى أشبيلية التى كان ملكها المعتضد بن عباد .. حيث أكرم ابن زيدون وقربه إليه .. وهنا نجد أن السجن والقهر الذى عاناه الشاعر المحب ، قد صقل نفسه فرق وجدانه وعمق إحساسه بالأسى ، وفى الوقت ذاته ، صرفت عنه ولادة أنظارها وعواطفها.. وكما يقال : البعيد عن العين .. بعيد عن القلب ! ولكنه مازال على عهده فى حبها .. فبعث بقصيدته الشهيرة من أشبيلية إلى خبيبته فى قرطبة .. وفيها يقول :

أضحى التنائى بديلا عن تدانينا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا
شوقا إليكم ولا جفت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا
يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت
سودا ، وكانت بكم بيضا ليالينا

.. إلى آخر هذه الأبيات الشاكية الحاسرة المناجية المعاتبة ...

ولكن هذه الأشعار المستعطفة ، لم تلق قبولا ولا استجابة فى قلب ولادة ، فقد تحطم حبها له لعوامل كثيرة .. لعل أهمها أن ابن زيدون لم يتخذ من فتاته المرهفة ملهمة محبة رقيقة أبية مصونة .. ولكنه فى كثير من الأوقات ، اتخذ منها منافسة خطيرة ، يتطاول عليها ، وهو الأكثر شاعرية وأعظم شهرة .. فأصبحت العلاقة بينهما مجابهة وليست تكاملا بين رجل وامرأة .. رجل يتيه خيلاء .. وامرأة تفيض أنوثة وجاذبية !

ومن هنا .. كانت النهاية .. مع الفارق بين ماخلفه هذا الحب العنيف من أثر فى نفسيهما ..

لقد نجح الوشاة والحساد فى أن يوغروا صدرها على ابن زيدون مما جعلها تنهى قصة حبهما بهدوء ليصبح ذكرى جامدة لا تحرك شجنا . على حين استعر الحب فى قلب المحب حتى صار لهيبا تؤججه أية نسمة تهب من مسرح الذكريات .. بل لقد تحول فى نفس الشاعر البائس إلى رمز لمأساة حياته وأشلاء قلبه المحطم ..

ولذلك نقول إنه حب فريد صادق .. بقى حتى النزع الأخير لأحد طرفيه .. حتى إنه كان يؤرخ حياته بذلك الحب الطاغى ... فيصف فراغ حياته بأنها قبل حبه لولادة .. ويصف سعادته وهناءه وأمجاده السياسية والفكرية .. بأنها فى أثناء حبه لحبيبته وامتلاكه لقلبها .. كما يتحدث عن مأساته وتعثر حظه وأيامه الكئيبة وعذابه المرير من بعدها ، مؤرخا لهذا الصراع النفسى القاتل بأنه مقترن بالخلاف والشقاق والتباعد بينهما وإعراضها عنه .. وهكذا هوت به إلى قاع الحياة !



الأنثى المتمردة ورحلة الصعود إلى الهاوية

عصر رائع مستنير .. تفتقت فيه الأذهان العبقرية والبصائر المبدعة ، كما تفتح فيه وجدان الشعوب الأوربية .. فظهر الموهوبون الأفذاذ فى شتى فروع الفن والمعرفة .. شكسبير وباكون وهوكر ودريك وجريشام ولوثر ومايكل أنجلو .. وغيرهم .. وغيرهم من عبقريات التاريخ المعجزة .. إنه القرن السادس عشر .. عصر النهضة الأوربية الشاملة ..

فى هذه الحقبة المتألقة من الفن والفكر والإبداع الرفيع .. اعتلت إليزابيث عرش إنجلترا ، فصار عصرها مميزا فى التاريخ الإنجليزى بما يحفل به من الحيوية والتحولات المصيرية النابضة بالحركة والتغيرات والأحداث الجسام ..

وإليزابيث تيودور هى ابنة هنرى الثامن ، ولدت فى عام ١٥٣٣ ولقبت فى يوم مولدها بأميرة إنجلتر .. وأقر أبوها الملك بأن إليزابيث ابنة غير شرعية ، وأوصى بعدم أحقيتها فى وراثة العرش ..

وتفتحت الطفلة الجميلة على مباهج الحياة .. وتفجرت أنوثتها المبكرة وبلغت سن الشباب ..





هنرى الثامن

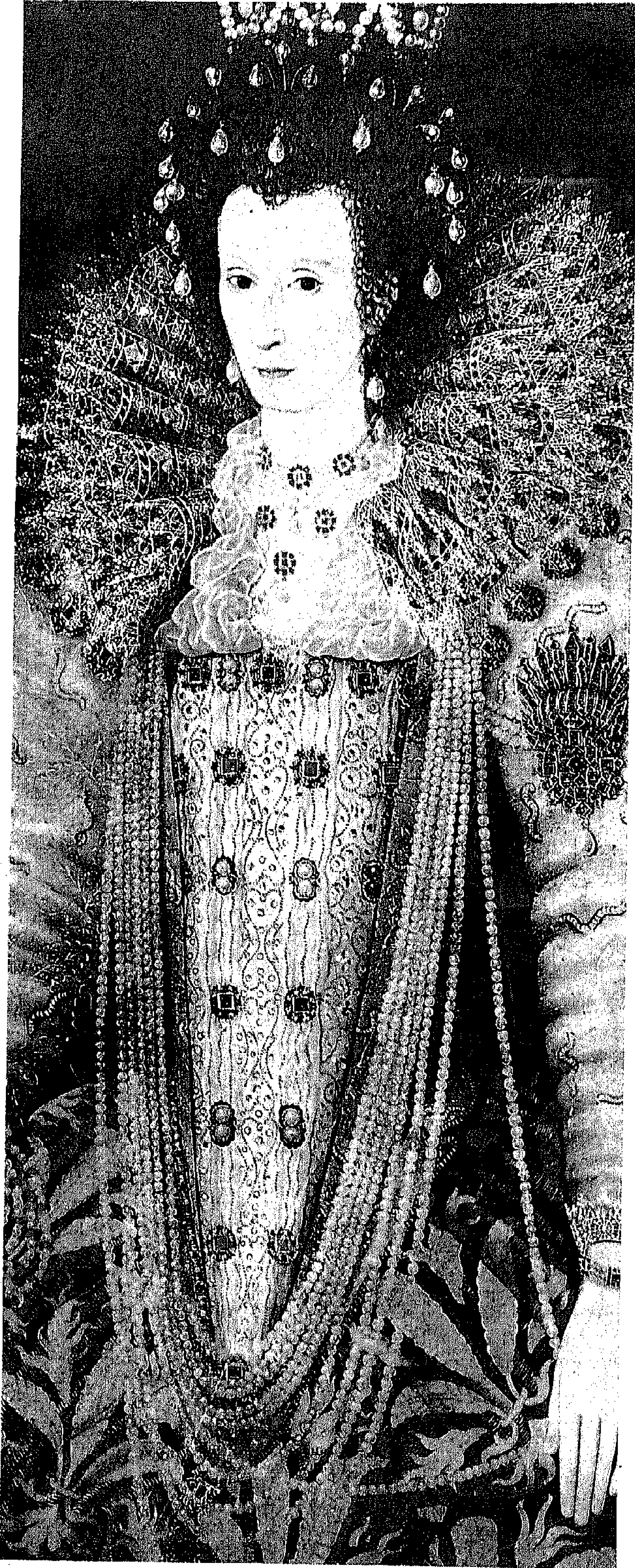
فخفق قلبها بالحب لأول مرة .. ووقعت فى غرام « لورد أميرال سيمور » وجاهرت بحبها له غير عابئة بتقاليد القصر وعيونه التى ترصد كل صغيرة وكبيرة .. وكانت أختها « مارى » قد اعتلت العرش بعد وفاة أبيها آنذاك . فعندما رفعت إليها التقارير بأن « إليزابيث » ـــ وهى تعيش سن المراهقة تعيش قصة حب فى الوقت ذاته مع سيمور .. أصدرت الملكة مارى أوامرها بأن توضع إليزابيث فى السجن وأن تراقب رسائلها .. وتحصى عليها كل حركاتها وسكناتها .

واجتمع مستشارو البلاط .. واختاروا لإليزابيث زوجا على هواهم . هو « دوق سافوى » فأرسلت لها الملكة رسالة تقول فيها : إنها تطلق سراحها إذا قبلت دوق سافوى زوجا لها .. وعندما قرأت إليزابيث رسالة أختها الملكة .. سخرت من هذا العرض المشروط .. وأرسلت إليها ردها تقول فيه :

« إنك تملكين تكبيلى فى الأغلال وتستطيعين أن تأمرى بقتلى .. ولكن عواطفى ملك لى وحدى .. ولا أرضى أن يفرض علىّ أى إنسان أن أفتح قلبى لأحب إنسانا بأوامر ملكية ! .. »

وأخيرا .. وبناء على مساعى زوج الملكة .. أطلق سراح إليزابيث .. وما كانت هذه المساعى من الزوج خالصة لوجه الله ونصرة المستضعفين .. ولكنه كان فى واقع الأمر محبا ولهانا بإليزابيث ويقوم بلعبة الخيانة والمغامرات والعبث كما كان متبعا فى قصور الحكم فى تلك العصور !

وماتت مارى فجأة .. وانقلب زوجها أسيرا فى غرام إليزابيث .. وكأنه منحها الحرية لتمنحه قلبها كرد للجميل .. ولكنها لم تأبه لتوسلاته ووسائلة فى التقرب إليها وأعارته أذنا صماء .. فانقلب عليها وصار من أشد أعدائها !


اليزابيث فى كامل زينتها الملكية

واعتلت إليزابيث العرش بعد أختها وتسابق الملوك والأمراء والنبلاء إلى خطب ودها وطلب يدها .. ولكنها رفضت كل هذه العروض بإباء وإصرار ..

وكان ملك السويد مفتونا بها وبشخصيتها القوية .. ودأب على التقرب إليها .. وكان أن أرسل إليها هدية سخية تتألف من ثمانية عشر حصانا وسفينتين محملتين بالهدايا والنفائس .. فكان ردها عليه غاية فى الغرابة إذ أرسلت إليه تقول :

« أما الهدايا وقد وصلت إلى أرض إنجلترا ، فبلادى تقبلها منك ، وشعبى يشكر لك ما أرسلته إليه .. فكل ما أتلقاه هو ملك لشعبى .. ونصيحتى لك أن توفر على نفسك مشاق رحلات غير مفيدة .. ولن تعود عليك بما ترجوه أو تهدف إليه !! .

.... وأغرب ما فى هذا السلوك الملكى هو أن تقبل العطية وترفض المعطى !

●● ورغم إصرارها على عدم الزواج إلا عن حب واقتناع بمن يتفتح له قلبها .. إلا أنها وقعت فى حب أحد النبلاء المتزوجين هو « إرل أوف لسستر » .. ولو لم يكن متزوجا لتزوجته فى الحال .. ولكنها لم تستطع أن تخفى شغفها به أمام الجميع ..

وفوجئ البلاط الإنجليزى ذات يوم بأن زوجة حبيبها قد ماتت فجأة .. وسرت همسات محمومة عمت أرجاء القصر بأن الحبيب المتيم قد قتل زوجته ليخلو الجو لحبيبته الملكة .. واجتمع مستشارو القصر مع إليزابيث .. أعلنت بعدها الملكة أنه حفاظا على سمعتها وكرامتها قد تخلت نهائيا عن فكرة زواجها من« إرل أوف لسستر » أو غيره من النبلاء ؛

كانت ملكة غريبة الأطوار .. عجيبة التصرفات والسلوك .. تجمع بين الذكاء الحاد والشاعرية والنبوغ والقسوة والتعالى والغرور ..

ويقول المؤرخون عنها : إنها كانت ذات شخصية قوية عنيدة جسورة .. كما كانت متعالية نرجسية


موكب الملكة

غليظة القلب لدرجة التعطش لسفك الدماء !

وجاء فى « تاريخ الشعب الإنجليزى » عن أخلاق إليزابيث :

« لم تعر أى اهتمام بضبط النفس والاحتياط النسوى فيما يتعلق بعلاقاتها مع من تهواهم من رجالات القصر والفنانين الذين ينافقونها فى إبداعاتهم .. فكانت تداعبهم وتثيرهم بغريزة أنثوية مكشوفة وهم يركعون أمامها لتقبيل يدها .. وكانت تغازل حبيبها لورد لسستر أمام حاشيتها بعبارات فاضحة ! .

امرأة جمعت بين النقيضين

●● عندما تولت العرش وهى فى الخامسة والعشرين من عمرها .. أرسلت خطابا إلى البابا فى روما تخبره بذلك حسب التقاليد المتبعة .. فرد البابا يعنفها لقبولها التاج قبل أن يأذن لها وهى من رعايا الكنيسة كغيرها من الملوك ..

فما كان من إليزابيث إلا أن لقبت نفسها « رأس الكنيسة » .. أى أنها تعالت عن منزلة البابا وتمردت على تبعيته ! و لم تكتف بذلك . بل أصدرت مرسوما ينظم الجمعيات اللاهوتية فى البلاد .. وحرمت على القساوسة أن يقوم أحد منهم بالوعظ قبل أن يحصل على ترخيص منها ! وكانت تكره الوعظ وخطب الوعاظ وتقول ! إن اثنين أو ثلاثة يكفون كل المملكة .. !!

●● كانت تشجع الرسامين .. وكان لزاما على أى فنان أن تكون صورتها هى شغله الشاغل فى كل ممارساته إذا أراد أن يحتفظ باسمه الفنى .. وقد نتج عن هذا السلوك الفنى الغريب .. أن امتلأت الأسواق بآلاف الصور للملكة .. كان معظمها خاليا من كل معانى السمو والجمال الذى تنشده فى صورها .. فما كان منها إلا أن أصدرت مرسوما بعدم تصويرها نهائيا ، واختارت بضع صور ترضى عنها .. وجعلتها المثل الذى يحتذى به .. وما على الفنانين إلا أن يقلدوا هذه النماذج المختارة .. وكانت ـــ بالطبع ـــ صورا لها



وهى فى قمة جمالها وذروة شبابها !

أما الشعراء .. فقد كان معظم نتاجهم وقفا على مديحها والتغنى بمفاتنها وشجاعتها وحكمتها .. يلتفون حولها فى حفلاتها اليومية التى تمتاز بما يعرف « بالخدمة الشرقية » أى أن الخدمة على الموائد الملكية يقوم بها الخدم والحاشية وهم ركوع ، حتى الوزراء فكانوا يخاطبونها راكعين لا يقوى أحدهم على النظر لأعلى من ركبتيها إلا إذا طلبت منه ذلك ..

●● وقال مؤرخ ألمانى فى معرض الحديث عن مشاهداته فى إنجلترا عام ١٥٩٩ أى قبل وفاتها بأربع سنوات : « عند كوبرى لندن ، أحصيت ما لا يقل عن ثلاثمائة رأس إنسان ممن حوكموا بتهمة الخيانة العظمى .. وعرفت أن الآلاف من الإنجليز يساقون إلى ساحات الإعدام باسم السلطة الدينية التى استأثرت بها إليزابيث .. وأيقنت مع غيرى من المفكرين أن على عرش إنجلترا امرأة ذميمة سيّرتها أهواؤها وأطماعها فارتكبت فى حق الشعب كل



الحماقات، واستهانت بكرامة الناس وحقهم فى الحرية والحياة !

وعندما تقدمت بها السن .. أزعجها منظر وجهها فى المرآة فحرمت على نفسها النظر فى المرآة ، وأمرت بأن يخلو قصرها الملكى من المرايا .. ومع ذلك فإن جموع المتملقين من حولها كانوا مضطرين أن يخاطبوها بربة الجمال .. وكانت تطرب بهذا النفاق وهى تعلم بأنهم منافقون ، وبعد رحلة الجاه والسلطان والجبروت ، أسدل الستار عام ١٦٠٣ ودنت ساعتها .. وراحت فى غيبوبة النهاية .

وفى صحوة مفاجئة وهى تغالب سكرات الموت .. انبعثت منها صرخة واهنة كالأنين تقول : هل من ساعة واحدة فى مملكتى ؟ .. ولكن أجلها قد حان بعد لحظات .. وإذا حان الأجل .. لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون !

وفارقت الحياة عن سبعين عاما غيرت فيها مجرى التاريخ فكانت إليزابيث .. الأنثى المتمردة التى جمعت فى رحلتها إلى الحكم والتاج والتحكم كل أسباب الجاه والنفوذ والسلطان .. ولكنها انحدرت فى النهاية بجبروتها وقسوتها وأهوائها ونزواتها .. إلى الهاوية .. فكانت للفن والتاريخ حدثا مثيرا يُلهم المبدعين على مر العصور ..

الملكة الفاتنة

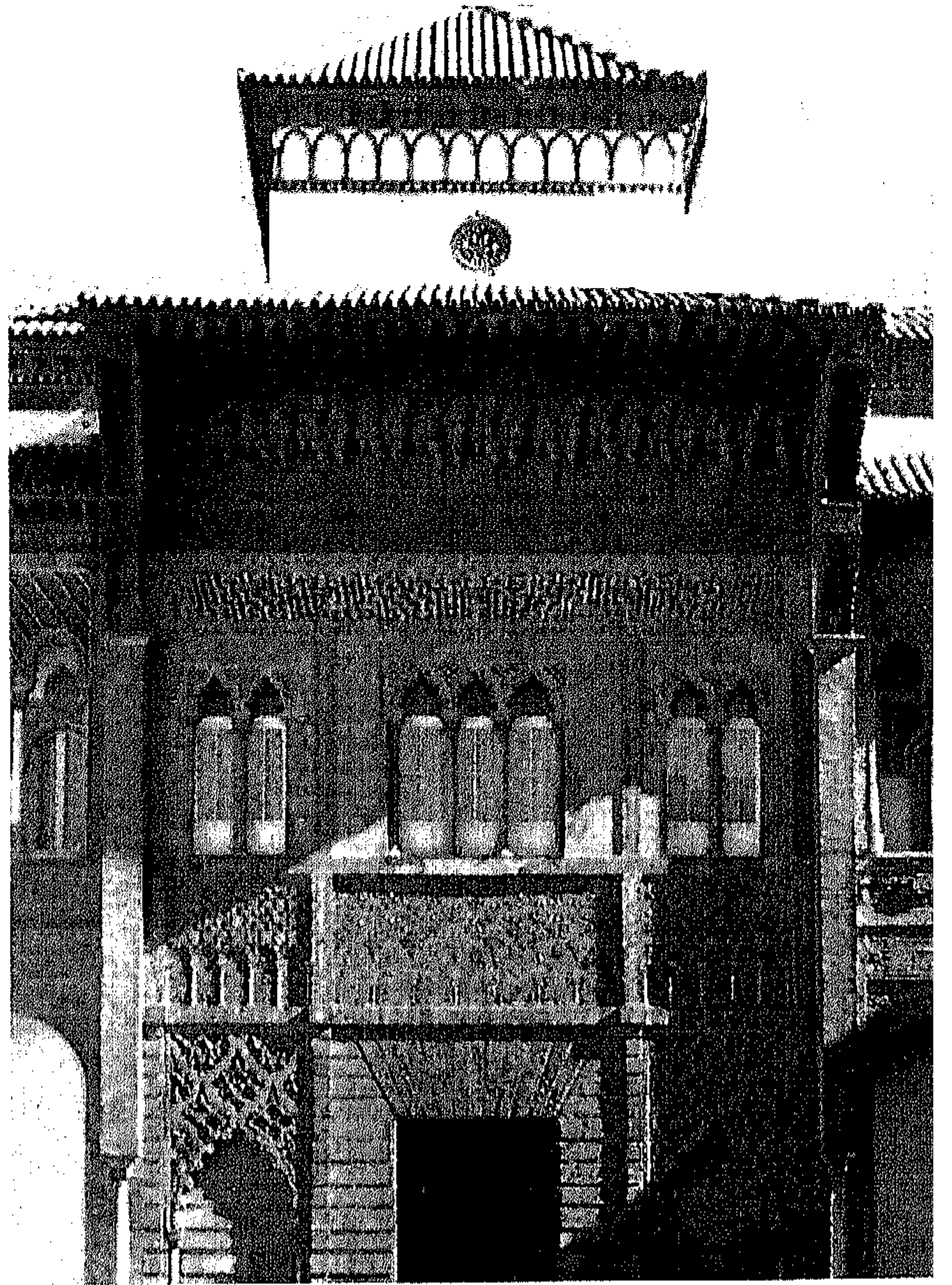
الفردوس المفقود

وسفك الدماء

... امرأة فاتنة جمعت بين كل المتناقضات : الجمال المثير ـــ الشـ ـية الفذة ـــ القيادة الجسور ـــ التـ ـب الأعمى تحـ ـاع الكاثوليكية ـــ سفك الدماء وقتـ ـال والنساء !!

تلك كانت ... الملكة الأ ـفأ على يديها آخر شعـ ـس !





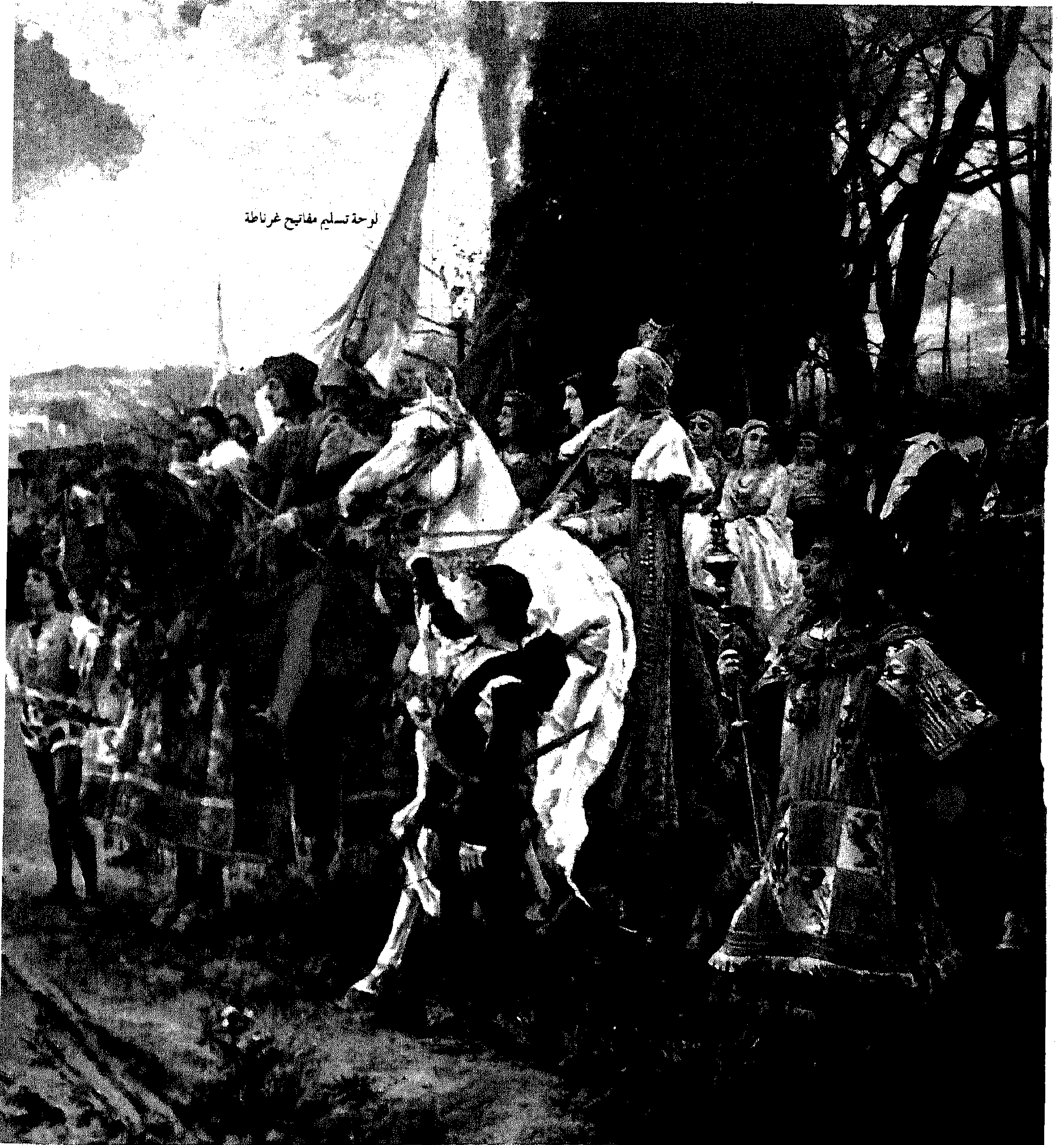
كانت صحوة .. ثم تبدد الأمل

فى صيف عام ١٩٧٦ أقيم فى العاصمة البريطانية « مهرجان العالم الإسلامى » فكان حدثا ثقافيا ومظاهرة فنية لم يسبق لها مثيل .. كما كانت قدوة يحتذى بها فى روعة الإخراج والتنظيم والإعلام .. ورأينا أن « قسم النشر » فى هذا المهرجان يخرج للعالم سبعين كتابا ومجلدا ضخما عن الفنون العربية والإسلامية عامة . فى أرق ثوب من الإناقة والطباعة الفاخرة واللوحات الملونة والأبحاث العميقة تناولت كل فرع من العلوم والآداب والفنون الإسلامية . حدث هذا فى عام ١٩٧٦ .. وبعد ثلاثة أعوام

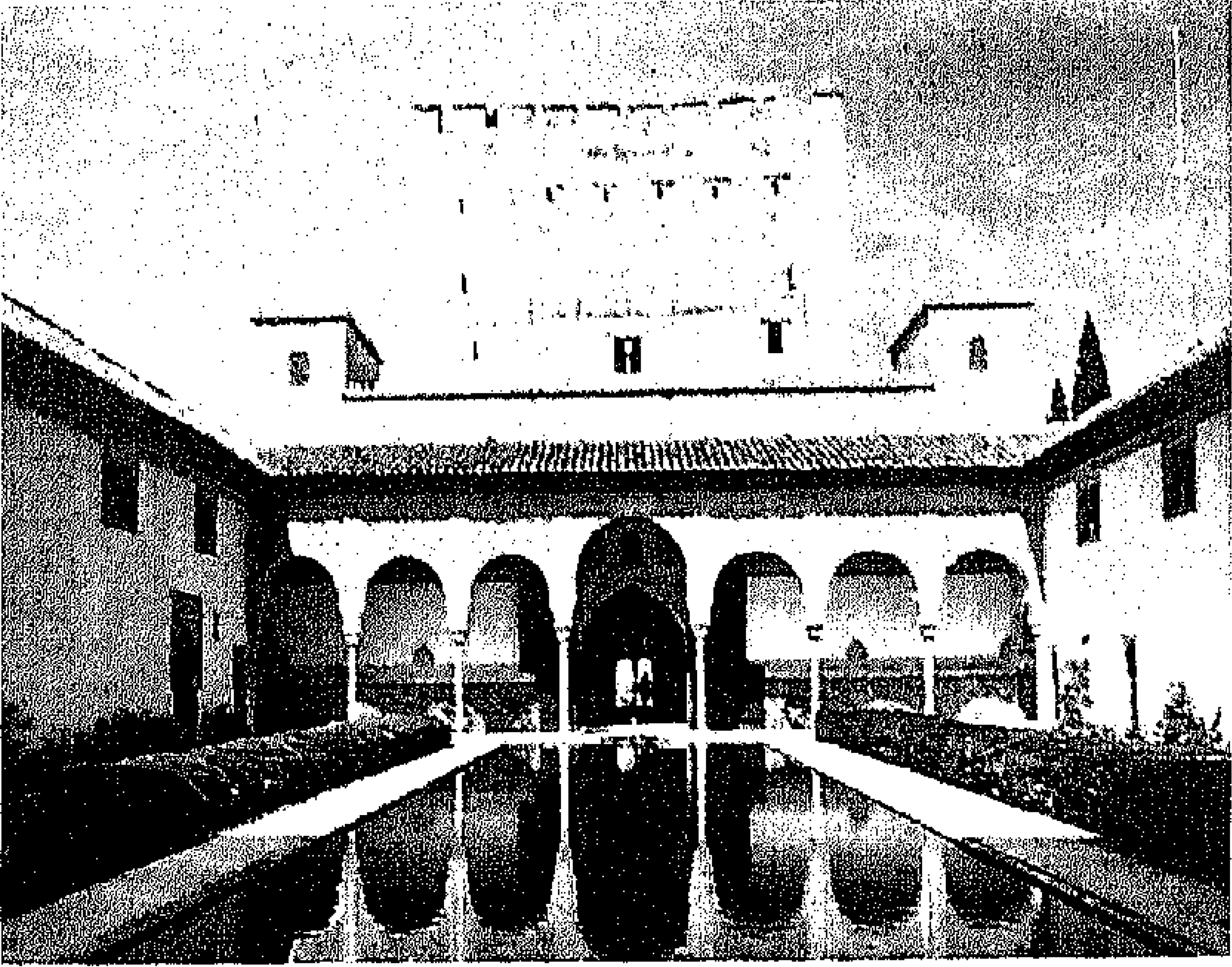
فقط .. تحركت الجامعة العربية وتفتّح وجدانها فشجعت « اتحاد المؤرخين العرب » على أن يعقدوا الاجتماعات ويعدوا البرامج والأبحاث لكى نقيم مهرجانا عالميا لروائع الأندلس على غرار مهرجان لندن . وحددت لذلك عام ١٩٧٩ .. وكما هى عادتنا فى مثل هذه الأمور التى تحتاج إلى إعداد وترتيبات خاصة فقد تأجلت الفكرة من عام إلى عام حتى ألغيت من أساسها كما ذكرت فى صفحة ١٤٦ ، ونحن نستعرض قصة الأميرة الشاعرة ولادة بنت الخليفة الأموى المستكفى بالله مع الشاعر ابن زيدون .

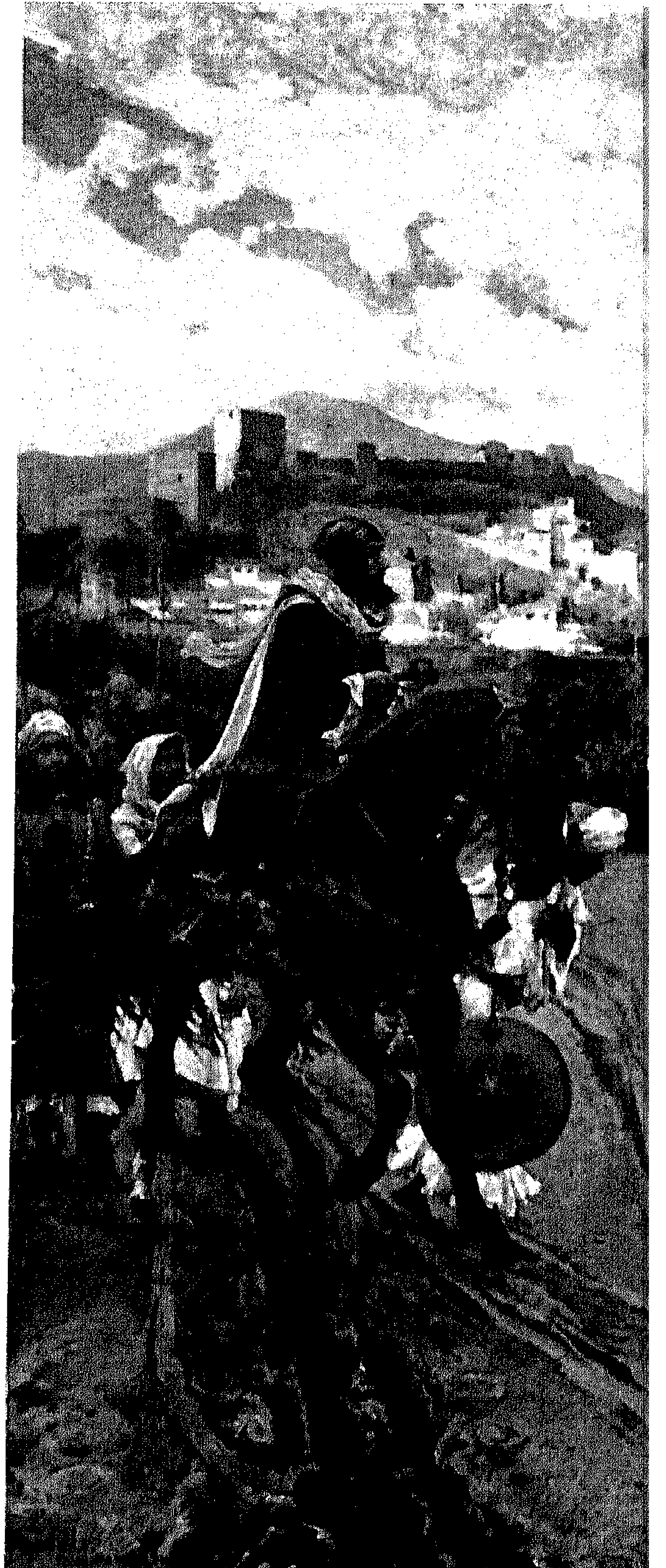
* * *

وليس أمامنا إلا أن نتباكى على الأطلال فى ربوع أسبانيا حيث كانت الأندلس تتسامى على العالم أجمع بأمجاد قرطبة وروائع غرناطة المعجزة !



لوحة تسليم مفاتيح غرناطة





وتتوالى الأحداث وتمضى الأيام .. وتحلو للأندلسيين المسلمين لعبة التطاحن والاقتتال .. فتنهار المملكة الجميلة على رءوسهم وتظهر « إيزابيلا » تعتلى جوادها الملكى المطهم .. وقد رفعت رأسها فى شموخ وخيلاء ، وهى تتسلم مفاتيح غرناطة من آخر الحكام المسلمين « محمد أبو عبد الله » .. وكان ذلك فى فجر يوم ٢ يناير ١٤٩٢ .. وقد وقف الملك الشاب يلقى نظرة حزينة على درة الأندلس غرناطة .. وعلى ثمانية قرون غاربة من أيام العرب المجيدة على الأرض الأوربية .. وفاضت عيناه بالدموع وتعنفه أمه الملتاعة ، وقد تصنعت الصمود والتجلد ورباطة الجأش فى ذلك الموقف العصيب ، وأنشدت توبخ ابنها الحاكم المنهار فتقول :

ابك مثل النساء ملكا مضاعا
لم تحافظ عليه مثل الرجال !!

* * *

وتسهب كتب التاريخ الأوربية والأسبانية منها بوجه خاص فى وصف هذا الموقف الحزين ، ونقرأ تعليقات غريبة على اللوحة التى نراها مع هذه السطور . يقول التعليق على هذه اللوحة الشهيرة التى رسمها فنان أسبانيا الكبير (ف . براديلا) F Prdilla « الملك المغربى أو عبد الله وقد أتى بنفسه إلى المعسكر الأسبانى حاملا مفاتيح مدينة غرناطة .. وقال موجها حديثه إلى الملكة إيزابيلا وزوجها فرديناند : هذه — يا سادتى — مفاتيح قصور

الحمراء ، ومدينة غرناطة .. إنها مفاتيحكم .. لأنها بلدكم فتفضلوا .. إنها لكم !!

ويتناول فرديناند المفاتيح ويسلمها للملكة إيزابيلا .. التى تحنى رأسها فى خشوع .. ثم تنظر إلى السماء وتقول : كل شىء بمشيئتك يا إلهى !

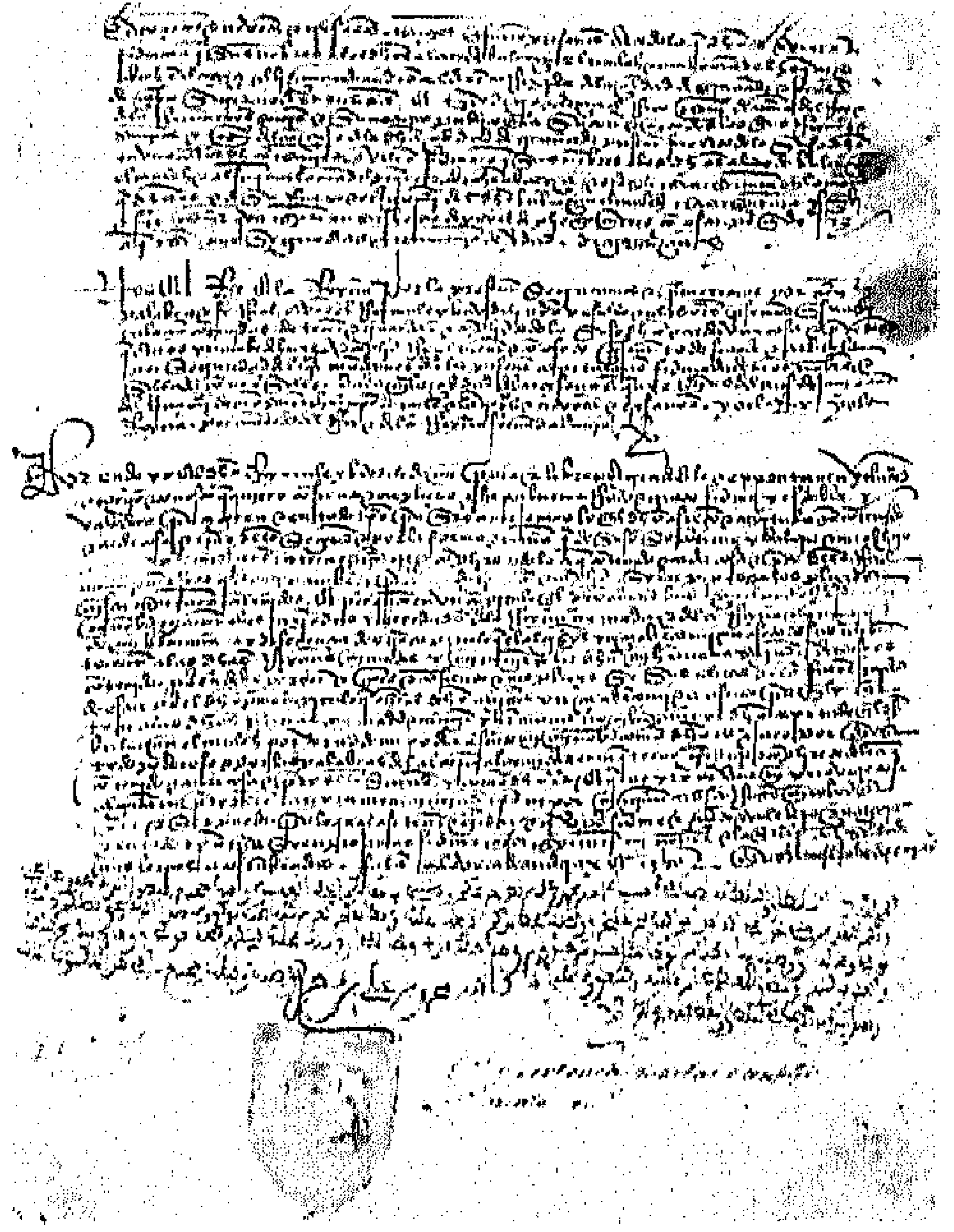
هذا هو تعليق اللوحة الشهيرة التى تطالع جموع الدارسين والباحثين فى العالم أجمع .. فهل هذا ما حدث فعلا ؟!

لقد رسم الفنان الأسبانى لوحته من وجهة نظره ، فلنتأمل اللوحة معا : إيزابيلا وفرديناند فى ثيابهما الملكية المترفة .. يشرق وجهاهما بأسباب التعالى والعزة والخيلاء .. يرفلان فى حلل الرفاهية ، وحتى خيولهما المطهمة رافعة قاماتها سعيدة مستبشرة وحاشيتهما من حولهما ! فرحين متهللين .. وكأنهم جميعا مدعوون إلى حفلة ملكية باذخة .. ولننظر إلى معسكر المسلمين فى المقابل .. أى ضياع وبؤس يرتسم على جباههم .. وكأنهم زمرة من المتشردين الفقراء يتلمسون النجدة من هؤلاء الأسياد المتحضرين !!

... وهكذا الفن العبقرى الخالد يحفر فى النفوس معانى بعينها لا تمحى مع الأيام .. فتستقر الإلهامات والمعانى والإيحاءات التى يريد الفنان أن يوصلها لعقولنا وبصائرنا وكأنها واقع حدث بالأمس القريب .. ومن ناحية أخرى .. فقد خلا الميدان لفنانيهم لكى يسجلوا التاريخ بعيونهم ومن وجهة نظرهم .. وغاب فنانونا عن الإدلاء برأيهم فى أحداث التاريخ .. حتى ولو كان تاريخنا نحن وأمجادنا المفترى عليها .. وهذه قضية طالما تناولتها فى المحاضرات والندوات والمقالات .. ولكنها كباقى قضايانا الفكرية تحتاج إلى أسماع أكثر وعيا من أسماعنا المعاصرة !

إيزابيلا

فى ٢٢ أبريل عام ١٤٥١ ولدت الأميرة إيزابيلا فى قصر ملك مقاطعة « كاستيل » الأسبانية ، ومات





آخر حكام الأندلس ووثيقة التسليم

أبوها وهى طفلة فى الرابعة من عمرها وتولى شقيقها « هنرى » الملك فى المقاطعة .. و لم يخطر على بالها يوما أن تكون ملكة حيث أن لها شقيقا آخر هو « ألفونس » قد يتاح له ذلك بعد أخيه الأكبر .. ونضجت إيزابيلا .. وتفتح شبابها وتفجرت أنوثتها .. ومات شقيقها ألفونس وهو فى ريعان شبابه .. وصارت وريثة لحكم المقاطعة بعد شقيقها الملك هنرى الذى يتولى حكم البلاد .. وكانت قوة شخصيتها وجاذبيتها وجمالها الذى تتحدث عنه كل المقاطعات .. موضع حسد من نساء القصر ورجالاته فأوغروا صدر شقيقها الملك عليها .. فأراد أن





يتخلص منها بأن يزوجها لملك البرتغال الذى طلب يدها أكثر من مرة ورفضت هى بشدة فى كل مرة .. وكان وراء هذا الرفض قصة حب كبيرة بينها وبين « فرديناند » .. الأمير الشاب الذى يحكم والده مقاطعة « أراجون » المجاورة لمقاطعة كاستيل .. وبعد أحداث ومغامرات لا يتسع هذا المجال لسرد وقائعها .. استطاع فرديناند أن يتسلل إلى بلادها وأن يتزوج فتاته سرا ، وصعق أخوها بهذا العصيان .. وعاش فى صراع نفسى مرير مع رغبته العارمة فى الانتقام .. وعجزه فى نفس الوقت عن بلوغ مراده .. وظل فى حربه مع نفسه حتى مات كمدا فى عام ١٤٧٤ لكى تصبح إيزابيلا ملكة شرعية لمقاطعة كاستيل بلا منازع !

ولم ينس ملك البرتغال أنها رفضته زوجا لها ، فاشتعلت أحقاده الدفينة على الملكة الحسناء ، وعزم على مهاجمتها واغتصابها بالقوة .. فهو أولى بها من فرديناند الذى سرقها بدون موافقة أخيها الملك الراحل .. وبدأت فترة رهيبة من فترات الصراع وسفك الدماء فى التاريخ الأسبانى .. وبينما كانت مملكة المسلمين فى أسبانيا تزدهر وتتسع على أشلاء هذه الكيانات الممزقة للمقاطعات المتحاربة فى الماضى .. إلا أنها أخذت فى الانحسار والتقهقر حتى انزوت فى آخر قلاعها غرناطة ، وكتب النصر لإيزابيلا وزوجها على ملك البرتغال وحلفائه .. وتألق نجمها أكثر وأكثر فى سماء أسبانيا ، ولا سيما بعد أن مات ملك أراجون وتولى زوجها الملك من بعده .. فصارت المقاطعتان القويتان « كاستيل وأراجون » وكأنهما مملكة عظيمة موحدة .. فأخذا يضغطان على غرناطة ويخططان لغزوها واقتلاع آخر جذور الحكم الإسلامى فى أسبانيا كلها .

وفى تلك الفترة الرهيبة أظهرت إيزابيلا وجهها الآخر المتعطش إلى الانتقام وسفك الدماء .. وبدا ذلك جليا فى حصارها لمدينة « ملقا » حيث قضت على سكانها بالعبودية واعتناق المسيحية وأخذ فتياتهم سبايا



إيزابيـلا فى شبابها

باعتهن عبيدا لسد نفقات الحروب .. ومن لم يرضخ منهم .. كان جزاؤه القتل فى الميادين العامة أمام الجميع .. وانفتحت شهية القتل وسفك الدماء فتقدمت إلى غرناطة .. آخر معاقل الحكم الإسلامى فى الأندلس .. ودارت بين المعسكرين حروب يشيب لها الولدان .. وطالت الحرب بين الطرفين إلى حد أن بنيت مدينة جديدة وسط ميدان المعركة لتقود منها إيزابيلا حروبها وترسم خططها ضد المسلمين .

.. وكان ما كان من أمر غرناطة .. حتى سقطت فى ٢ يناير من عام ١٤٩٢ .. وبذلك صار اسم إيزابيلا وزوجها فرديناند على كل لسان .. وهرع أشراف الأسبان من كافة المقاطعات إلى قصرها .. وركعوا أمامها اعترافا لها بالسيادة الأسبانية على أرض الأندلس .. بعد ثمانية قرون من الحكم الإسلامى فى البلاد !

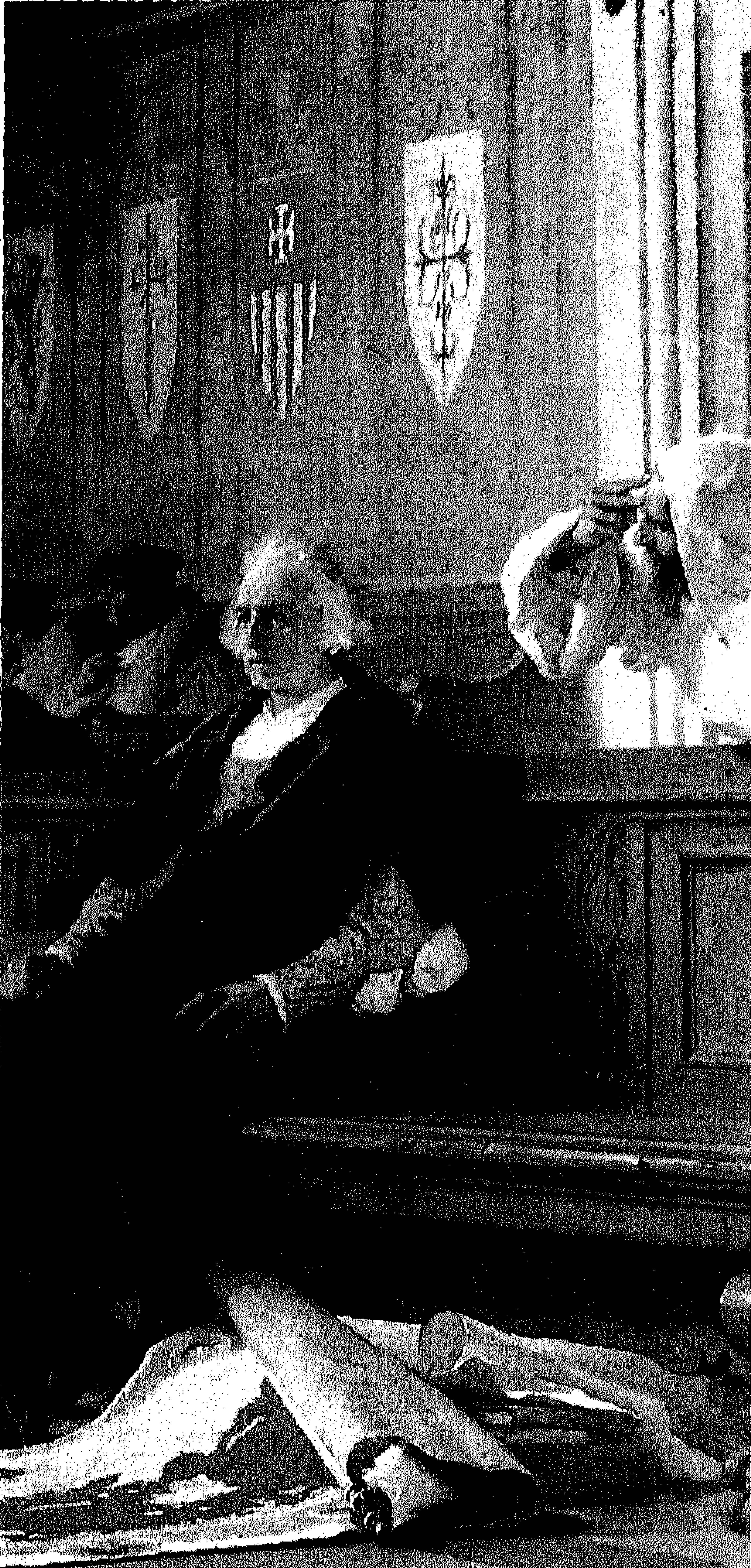
.. ونتصفح سجلات التاريخ .. وما أكثر ما تطالعنا الأحداث والمواقف والمفارقات الغريبة والأضواء والظلال فى حياة إيزابيلا ..

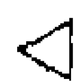
يقول التاريخ : بينما كانت الملكة فى أسوإ حالاتها وأحلك أيامها وهى فى معسكرها .. تجابه هجمات



المسلمين البطولية صباح مساء .. يأتى إليها « كريستوفر كولومبوس » طالبا منها العون والمدد برحلته التاريخية الشهيرة لاكتشاف القارة الجديدة .. فرفضت الملكة مجرد مناقشة هذه الفكرة « السخيفة » وهى تلملم جراحها وتستدين من هنا وهناك لمواصلة الحرب .. ولم ييأس الرجل ويعاود طلب المقابلة .. ويستعين بمعلم الملكة الذى يتوسط عندها لمساعدة كولومبوس .. وأخيرا ترهن حليها وأملاكها الخاصة وتوفر السفن والمؤن والرجال للمكتشف المغامر .. وتتم الرحلة الأولى .. ثم الثانية .. ثم الثالثة .. وفى هذه الرحلة الأخيرة تأمر الملكة بأن يقبض على كولومبوس وأن يكبل فى الأغلال .. ثم تصفح عنه .. ويرحل للمرة الرابعة ... ويعود محطما مريضا ليتخلى عنه الجميع .. ولا يجد المكتشف العظيم بيتا ولا مالا يشترى به من الغذاء ما يسد به رمقه .. وتنتهى حياته وهو فى خان حقير، لا تستر ملابسه المهلهلة جسده الواهن الهزيل ..

ويذكر التاريخ كذلك أن إيزابيللا كانت متعصبة تعصبا أعماها عن أبسط أمور الحياة الإنسانية .. فقد أعادت محاكم التفتيش الرهيبة .. تلك المحاكم السرية التى أعطت لها حق الحكم بالحياة أو الموت على أى مسيحى أو غير مسيحى على الأرض .. فقضت باسم الدين على كل معارضيها ، وهكذا حظيت الملكة بالشهرة والتقييم تارة ، وصب عليها المؤرخون جام سخطهم وازدرائهم تارة أخرى .. وكانت ــ بحق من أهم فاتنات التاريخ وملهماته .. فتناولها المبدعون فى أعمالهم .. الخالدة .





كولمبس وقد سيطر عليه اليأس وهو يحاول لقاء إيزابيلا

جولييت والشاعر العاشق

كان منذ سنواته الأولى وهو يخطو إلى تفتح شبابه ، محبا للفن مطبوعا على تذوق الجمال ، يعكف على أوراقه يبثها لواعج نفسه الغضة بأشعاره الملتهبة المتدفقة بشحنات الأمل والعواطف الجياشة .. فاصطبغت حياته بلون وردى يحلق بوجدانه فى أطياف الغرام العذرى فى عاصمة النور والفن والمفاتن الأنثوية الفرنسية المثيرة .. وتعلق قلبه الهائم بفتاته الحسناء .. وتعددت لقاءاتهما وسهراتهما بين ربوع باريس المثيرة .. فى منتزهاتها وأحيائها الفنية الشهيرة ، ومسارحها ، ومعارضها ومنتديات الفكر ، والمقاهى الرومانسية القابعة على ضفتى نهر السين ، حتى إذا

فيكتور هوجو وبسمة الأمل فى شبابه المبكر



ما خلا بنفسه فى سكنة الليل .. أفرغ مكنون جوارحه وشجون نفسه الملتاعة ، شعرا يفيض عذوبة .. ويتوهج اشتعالا من دفء عواطفه المستعرة ..

وفى عام ١٨٢١ بلغ شاعرنا « فكتور هوجو » التاسعة عشرة من عمره .. وبخيال الفنان وجموح الشباب وفورة المراهق المحب ، تقدم فكتور ليطلب يد « إديل فوشيه » من أبيها .. فرفض الأب لأن هذا الشاب الصغير طالب الزواج لم يكن له فى المجتمع اسم ولا مكانة .. كما أن حالته المالية لا تؤهله لأن يفتح بيتا أو يتخذ زوجة .. أما الفتاة إديل ، فقد استعطفت أباها



بأن يقبل فكتور زوجا لها .. فهو رفيق عمرها وأملها .. وأول من تفتح على حبه قلبها .. وإزاء هذه العلاقة العذرية الجارفة بين الشاب والفتاة .. ترك والدها الباب مفتوحا .. وأرجأ موافقته إلى أن يشق الشاعر الناشيء طريقه فى الحياة العملية ..

وألهبت هذه البادرة الطيبة حماس فكتور .. فواصل الليل بالنهار .. يكتب ويكتب ، ويبذل الجهد والمساعى المستميتة ، حتى نجح فى عام ١٨٢٢ فى حمل إحدى دور النشر على طبع مجموعة من أشعاره والتعاقد معه على طبع ما يستجد من أعماله فيما بعد .. وأسرع الشاب حاملا المال الثمين الذى كسبه لأول مرة فى حياته ، ووضعه بين يدى حبيبته المتلهفة للقائه .. ولم يمانع الأب « فوشيه » هذه المرة .. بل قابله بالرضا والترحاب .. واستعجل العاشقان عقد قرانهما .. فتحققت أمنيتهما فى نفس ذلك العام .. وتم زواجهما !

وسارت حياتهما هانئة سعيدة .. ومرت عشرة أعوام كانت فيها إديل فوشيه مثال الزوجة الصالحة المنصرفة إلى العناية بشئون زوجها .. المتفانية فى الإخلاص لفنه والسهر على راحته .. وكان فكتور هوجو بدوره زوجا وفيا وأبا حنونا ، يعمل ويكد لإسعاد أسرته .. وفى نفس الوقت كان يعد نفسه لتحقيق طموحاته الواسعة فى الارتقاء والشهرة والتألق . ومن فرط جمال زوجته .. وعظيم حبه لها ، كانت غيرته القاتلة أحيانا تعكر صفو حياتهما .. فقد كان الشاعر يسيء الظن .. بجميع الرجال ـــ البعيدين عنه ، والقريبين منه ـــ كما عرف عنه كذلك أنه كان عنيفا فى حبه ، ومن ثم عنيفا فى غيرته لدرجة الجنون !

غانية المسرح

بلغ فكتور هوجو الحادية والثلاثين من عمره .. وقد ذاع اسمه ، وعمت شهرته بين الناس وأحدثت قصائده ومسرحياته ورواياته وأقاصيصه دويا بين المثقفين ، وانقلابا فكريا فى الأساليب والصياغة الأدبية فى فرنسا كلها .. ولاقت مسرحياته ـــ بصفة خاصة ـــ رواجا مذهلا عم كثيرا من البلاد الأوربية وقتها .. وفى عام ١٨٣٣ ، أقبل الجمهور الفرنسى على مشاهدة مسرحيته الجديدة « لوكريس بورجيا » ، وهى التى نحا فيها ناحية مبتكرة فى الحوار والتنسيق والإيماءات للتعبير عن العواطف الشاذة والمواقف غير المطروقة أو المألوفة من قبل .. وقابلها النقاد والمتذوقون والمثقفون بالتقييم والتبجيل .. والهتاف بعبقرية فكتور هوجو .. زعيم المدرسة « الرومانتيكية » فى الأدب العالمى الرفيع !

وكانت ليلة الافتتاح ، بمثابة مهرجان فنى فى باريس كلها .. ومصدر سعادة فائقة وثقة بالنفس للمؤلف الفذ .. أى أنها ليلة خالدة فى تاريخ الفكر والفن الفرنسى .. ولكنها بالنسبة لفكتور .. خالدة ـــ أيضا ـــ فى تاريخ غرامياته وحياته الشخصية !

فقد كانت الممثلة الفاتنة « جولييت درويه » تقوم فى هذه المسرحية بدور الأميرة « نيجرونى » .. وكان فكتور هوجو يحضر « البروفات » ويناقش ويحاور الفنيين والممثلين ، ويكشف ما غمض عليهم من المعانى والألفاظ .. واستلفتت جولييت أنظاره برشاقتها وسهام عينيها وجاذبيتها التى لا تقاوم .. وبحب الاستطلاع وفضول الفنان .. استمع كثيرا إلى مغامراتها وعبثها وأهوائها .. فبات يفكر مليا فى هذه الغانية الحسناء .. وبشعور الأنثى وفراسة الغانية المغامرة .. أحست جولييت بما يعتمل فى نفس الكاتب الشهير .. فأولته اهتماما خاصا .. فلم تغفل عنه بنظراتها المشحونة بالرغبة والنداء .. ولاحقته بدعواتها وسهراتها الخاصة .. ولم تكف عن ترديد عبارات الإعجاب والثناء على عبقريته المبدعة !

وكان انهماكها فى المغامرات والخيلاء والتدليل .. سببا فى القصور بواجباتها المسرحية .. من حيث الإتقان والانضباط والالتزام .. فلاكتها الألسن ، وهاجمها النقاد ، وكتبت عنها مجلة « الفنون »

حينذاك :

« إن جولييت درويه .. جميلة جذابة لديها مواهب أنثوية رائعة بلا شك ، ولكن مسرحها الحقيقى ليس هنا أمام جماهير رواد المسرح الكبير .. ولكنه هناك فى سهراتها المغلقة بين مناجاة العاشقين فى لياليها المعطرة الحمراء .. » !

وبالفعل ، فقد فشلت فى إقناع المتفرجين بدورها .. ولم تكن إلا جسدا جميلا متهالكا خاليا من الأحاسيس والمعايشة والانفعال !

وقال بعض النقاد : « إن حبها الجديد للكاتب الكبير قد جعلها شاردة الذهن مشتتة الفكر مشغولة الفؤاد .. ولعله حب حقيقى صادق لأول مرة .. فى حياتها .. مما جعلها لا تقوى على التركيز وهى ترى فكتور يرمقها بنظراته النافذة من مقصورته بالمسرح .. » !

وسواء أكانت الأسباب هذه أو تلك ، إلا أن بطلتنا الفاتنة قد سقطت فى أعين جمهورها كممثلة تؤدى دورا هاما فى أشهر مسرحيات العصر لأشهر كتاب فرنسا على الإطلاق !

ولكنها نجحت أيما نجاح فى دور آخر ، إذ أصابت بسهام عينيها قلب فكتور .. كما كان له فى نفسها ذات الأثر .. ولتبدأ أحداث مسرحية أخرى من واقع الحياة !

وما هى إلا أيام قلائل ، حتى عقد المحبان صفقة غرامية رابحة :

لقد أقنعها باعتزال التمثيل لتعيش معه .. وصارحها بحبه ، كما صارحها فى نفس الوقت بأنه يعرف أسرار حياتها الخاصة .. ولكى يبدأ صفحة جديدة فى علاقتهما المستعرة ، عليها أن تترك كل شىء !

ولم تتردد الممثلة « جولييت درويه » لحظة فى قبول عرضه .. أو فى قبول شروطه ، ولكنها كاشفته فى أمر عشيقها الثرى « الأمير الروسى البرنس دميدوف » وكيف أنه يغدق عليها من ماله بغير حدود ، كما أن الحالة المالية لفكتور هوجو لن تساعدها على حياة البذخ والإسراف التى تعودت عليها ، فهل يكفى الحب وحده لتوفير السعادة المنتظرة ؟!

ولم يزد فيكتور فى إجابته عن كلمتين : هذه شروطى !

وأطرقت الفتاة .. وسهمت للحظات .. ونظرت إليه فى استسلام وهيام وقالت : حبيبى وسيدى ! إننى



موافقة تماما !

لقد ضحت جولييت درويه بفنها وعملها وعشيقها وبذخها فى سبيل الشاعر المتزوج متقلب المزاج والأهواء .. مما يدل دليلا قاطعا على إخلاصها فى حبه .. وبأن هذا الحب الجارف كان له مفعول السحر فى قلبها ، فشل مقاومتها وفرض عليها الرضوخ والاستسلام ..!

جولييت فى دور الأميرة نيجرونى



كتب هوجو مسرحية لوكريس بورجيا Lucréce Borgia لمسرح لابورت سانت مارتن - La Porte Saint Martin بباريس وكانت ليلة الافتتاح فى اليوم الثانى من شهر فبراير ١٨٣٣ حيث كانت جولييت دوريه Juliette Drouet فى السابعة والعشرين من عمرها ، وظلت متعلقة بفيكتور هوجو مخلصة له على مدى نصف قرن ، كتبت له فيها ثمانية عشر ألف رسالة غرامية ، كان آخرها قبل وفاتها بنحو أربعة شهور مؤرخة فى أول يناير عام ١٨٨٣ ، وكانت وفاتها يوم ١١ مايو من نفس العام .

ولحق بها هوجو بعد عامين وفى شهر مايو كذلك (٢٥ مايو ١٨٨٥) .

جولييت دوريه .





هوجو وجولييت

وبهذه العلاقة ، دخلت حياة فكتور هوجو مرحلة جديدة منذ اليوم الأول الذى ارتبط فيه مع جولييت برابطة الغرام .. وكانت الممثلة الحسناء لا تجهل مدى ما يتمتع به رفيقها من شهرة عارمة وجاذبية عند النساء وتزاحمهن لاسترضائه والتقرب إليه ..

فعملت جاهدة على اجتذابه وشغل تفكيره وتمتعه بمفاتنها إلى أقصى الحدود ..

ولكنها ــ كعادة الممثلين فى كل زمان ومكان ــ كانت تحن إلى الأضواء ونظرات المعجبين ، فألحت على حبيبها ليشركها فى أى دور من مسرحياته لعلها تتألق وتكون جديرة باسم الكاتب الكبير .. فأذعن فكتور لإلحاحها وعهد إليها بدور « جان » فى رواية « مارى تودور » .. ولكنها ــ كما عهدها الناس ــ كانت كتمثال جميل ليس فيه حرارة أو حياة أو انفعال ! وفشلت كما فشلت من قبل فى إثبات وجودها على خشبة المسرح ..

واقتنعت تماما بأنه ليس أمامها سوى التخلى نهائيا عن التفكير فى العودة إلى الأضواء والتمثيل !

الزوجة العجيبة

تفرغت جولييت لحبيبها .. ورسمت خططها المستقبلية لأن تكون غانيته وملهمته ورفيقة حياته لاسيما وقد اتسعت دائرة مصادره المالية ، وأصبح قادرا على أن يوفر لها الأمان والحياة الباذخة المعقولة .

وأضحت علاقتهما معروفة ومشهورة فى أرجاء باريس كلها ..

و لم يعد أحد يجهلها فى منتديات العاصمة الفسيحة ، حتى عرفت فى نظر الناس كزوجة لفكتور هوجو ورفيقة لحياته .. و لم يعد أحد يذكر أو يتذكر أن له زوجة شرعية تزوجها عن حب كبير .. تقيم فى بيته مع أبنائه الأربعة ، هى إديل هوجو الوفية الصابرة الصامدة !

ولهذا السبب ، عكف النقاد والمفكرون على دراسة وتحليل شخصية هذه الزوجة العجيبة التى كانت تعرف يقينا علاقته بالممثلة اللعوب !! فمن قائل : إنها رضيت بالأمر الواقع حتى لا تخسر زوجها ذائع الشهرة فتفقده إلى الأبد !

ومن قائل : إنها رضيت بأن يعيش مع خليلته وهى امرأة واحدة ، خير من أن تراه يعبث مع سرب من العشيقات والمغامرات !

ولا شك أن الكاتب الفنان كان يرى فى زوجته عيوبا .. كما كانت بينهما خلافات عابرة كسحابات صيف لم تزل أن تنتهى كما هى عادة الأزواج فى كل بيت ..

ولكن الغريب حقا ، أنه ظل يحبها .. كما ظل قلبه يتسع لامرأتين فى آن واحد ، و لم يحدث قط أن بدرت منه أفعال أو أقوال تنم عن احتقار زوجته أو حقده عليها !

بل كان يحترمها ويثنى عليها ويبالغ فى عبارات الإشادة بها وبإخلاصها وجمالها وذكائها .. وزاد من تقديره لها .. موقفها من غريمتها الممثلة الفاتنة .. وذلك الهدوء الذى قابلت به ارتباطه العاطفى بها .. ورضاها بأن تكون خارج دائرة الضوء فى حياته الصاخبة ! وبدورها ، كانت هى كذلك دائمة الإشادة بعبقرية زوجها وحنانه على عائلته وحبه لها ولأولاده ، وبأن قلبه الدافىء يزخر بالعاطفة والعطاء .. وكانت تقول :

« إن عبقرية زوجى ورحابة مناهل إبداعه ، كموجات البحر المتلاطمة ، لا تكتفى بشاطئ واحد تترامى عليه .. إن آفاقه غير المحدودة تتناهى إلى جميع البصائر والعقول والقلوب .. وإنه لوفى مخلص إذ انحسرت أمواجه إلى مرفأين اثنين فحسب » !

وأدرك فكتور هوجو من ناحيته البواعث التى حملت زوجته على التسامح معه إلى هذا الحد ، فحفظ لها الجميل ، كما حافظ على حبه لها .. والله أعلم بما فى القلوب .

وشعرت العشيقة جولييت برتابة حياتها معه .. وهى الحريصة على أن تنتصر فى معركتها حتى النهاية ،

ولم يعد أمامها من طموح وأمل سوى أن تحظى برفقة حبيبها الذى أضحى اسمه ملء الأسماع والأبصار .. فطلبت منه أن يقوما برحلة غرامية إلى الخارج بعيدا عن صخب الأشعار وزحمة الأفكار ووهج الأضواء فى العاصمة الفرنسية ... فوقع اختياره على أسبانيا ، وأخذ يفكر فى حجة يسوقها إلى زوجته ، إديل ليرحل مع حبيبته فى سلام ..

قال لها : إن الأطباء قد نصحونى بالسفر للراحة والاستجمام والاستشفاء من داء المفاصل .. إنك يا عزيزتى إديل تعلمين مقدار إرهاقى فى العمل الدائب ليل نهار ...

ولم تدعه يسترسل فى ادعاءاته وشكاواه .. ولكنها ابتسمت ابتسامة ذات مغزى وقامت مسرعة تعد له حقائبه وأوراقه وحاجياته .. وعادت تودعه بقبلة حارة !! وهكذا بلغت فى تجردها وإنكار ذاتها أن أقدمت على تصرفات كانت من الغرابة بمكان ..

سافر الرفيقان إلى إسبانيا ، وعاشا هناك قصة أيامهما الأولى فى بداية تعارفهما .. وذات صباح ، فوجىء فكتور هوجو برسالة من زوجته تقول فيها :

« .. أرجو أن تكون مستمتعا بوقتك ، وقد دبت فى نفسك بواعث السعادة والإلهام .. عزيزى فيكتور : لا تحرم نفسك من شىء ، فحياتك وتألق نجمك واتساع دائرة معارفك مرهونة بصفاء ذهنك وجلاء بصيرتك واتقاد عواطفك وهناء أوقاتك .. وثق أننى لن أستغل أبدا حقوقى التى منحتنى إياها عقد الزواج منك ، وقد رأيت ، وارتضت نفسى أن تظل حرًا فى أفكارك وتصرفاتك كما لو كنت فى أيام الصبا قبل زواجنا ! يا صديقى الفنان المسكين : لقد تزوجت وأنت فى سن العشرين ، وتحملت مسئوليات البيت والعائلة والالتزام مبكرا قبل الأوان . ولا أريد أن تظل حياتك مرتبطة بقيود ثقيلة لإرضاء امرأة مثلى . أما إذا أردت أن تعطينى شيئا ، فأرجو أن تعطينى إياه بحرية ورضا وبدون إكراه . فلا تشغل بالك بى ، وثق أن الحالة النفسية التى تنتابنى أحيانا ــ رغما عنى ــ لن تؤثر فى إخلاصى ومحبتى لك » !!

بهذه النوعية من التفاهم أو التنازلات الزوجية ، كانت إديل هوجو تخاطب زوجها السابح فى أهوائه وأجوائه .. الضارب فى شعاب الأرض بعيدا عنها مع فتاته المدللة ، وفى الوقت نفسه لم تنس جولييت مباهجها وبذخها ولا سيما بعد أن عمت شهرة رفيقها آفاق المعمورة ، وانهالت عليه الأموال والأمجاد .. فكانت تدون حساب النفقات فى دفتر صغير ، وتكتب فيه عبارات كهذه أمام الأرقام :

ــ دفعة من حبيب القلب فكتور .

ــ دفعة من ملاكى الحنون .

ــ دفعة من فكتور ، حلمى الجميل .. إلى آخر هذه العبارات الناعمة .

وأما فيكتور هوجو ، فكان من ناحيته أيضا يبالغ من تدليلها ، وعبارات الهيام بها .. كما يكثر من كتابة رسائله إلى كل من زوجته إديل وجولييت فى الوقت ذاته حتى ولو كان غائبا عن هذه أو تلك لساعات قلائل . فكان فى المساء مثلا يبعث إلى جولييت بورقة صغيرة كتب عليها مثل هذه العبارات :

ــ « أحبك يا ملهمتى ! » أو : « أقبل عينيك الجميلتين » أو « عندما تأوين إلى فراشك ، وأنا سهران بين أوراقى ، لا أفكر إلا فيك .. أرجو أن تقبلى صورتى فى أحلامك ! »

وبينما كان يبعث إلى جولييت بهذه العبارات ، كان ينظم فى زوجته قصيدة غزل مشبوب يقول فيها :

« أيها الناس ، باركوا اسمها ، إنها زوجتى شقيقة روحى الخالدة .. إنها أملى وملجئى ، إنها السقف الذى ظللنى صغيرا وسوف يحمينى كبيرا ، إنها الفضيلة مجسمة فى امرأة رائعة ، قادرة على أن تعاتبنى ، بل وتنبذنى إذا أرادت ، ولكنها على الدوام تصفح عنى وتسامحنى ! »

هذا وصف مقتضب لذلك التناقض الغريب فى سلوك الزوج والزوجة معا !

ومن أعجب ما حدث بينهما أن فكتور هوجو كان يكتب مذكراته يوما بيوم .. وعندما هم بجمع هذه

المذكرات فى كتاب يروى تاريخ حياته ، ويضمنه دقائق علاقاته بجولييت درويه وبغيرها من النساء ، كان يمليه على زوجته وتقوم هى بتدوينه بخط يدها !

المخادعة

ولم يكن كاتبنا الكبير وفيا فى حبه لجولييت كما توهمت ، فقد كان يخونها — كما خان زوجته — مع غيرها من النساء المتعطشات للشهرة والعبث والتألق .. فمن مغامراته المعروفة التى أفردت لها صفحات تاريخه مجالات رحبة ، علاقته بزوجة رجل يدعى بيارد ، وهو الرسام الذى رسم له كثيرا من اللوحات والصور الشخصية له ولعائلته ، وتسلل فكتور تحت جنح الظلام إليها .. فداهمهما الزوج المسالم .. ونشب شجار حاد تدخلت فيه أجهزة الشرطة فى العاصمة الفرنسية .. وافتتح المحقق المحضر وسأل فكتور هوجو الأسئلة التقليدية المألوفة :

— ما اسمك وما صناعتك ؟

فأجاب : فكتور هوجو ، عضو مجلس الأعيان ، وعضو الأكاديمية الفرنسية !

... وما أن سمع المحقق اسم الكاتب والمفكر السياسى الشهير .. حتى ارتعدت فرائصه .. وقام من فوره يسترضى الفنان « بيارد » ، ويبذل مساعيه الحميدة ليحمله على التنازل عن شكايته !

●● ومن الممثلات اللاتى أحببن هوجو سارة برنار وأليس أوزى .. ومن الطريف أن نجمة المسرح « أليس أوزى » قد استطاعت بفتنتها وجاذبيتها أن تشغل بال فكتور لسنوات طويلة .. لولا أن زاحمه فى حبها ابنه شارل هوجو .. وكان أن انهزم الشيخ — بالرغم من صعوده إلى عنان السماء — أمام الابن الشاب .. وهكذا كانت أجواء العلاقات فى ذلك العصر الرومانسى الحالم .. عصر الفن والجمال والفكر والإبداع والاستمتاع بمباهج الحياة .

ومن الغريب ، أن نجمات المسرح الفرنسى اللاتى اتيحت لهن فرصة العمر فى التقرب من فكتور هوجو ، كن يتفاخرن علانية بتلك العلاقة ، وكأنها جواز المرور إلى الشهرة والتألق .. وكلما ذاع صيته وعمت شهرته زاد من عبثه ومغامراته ، وازددن فى الوقت نفسه من التقرب إليه والالتفاف حوله .. إنها الشهرة والعبقرية والنبوغ عندما تتحول إلى هدف لتحقيق الطموحات والنزوات والآمال العراض .. فتتوارى الفضائل فى ثناياها وتذوب ألوانها الناصعة فى ظلمات لياليها المغلقة !

الخريف .. ومازالت الأزهار يانعة

وسارت حياة المفكر الكبير فكتور هوجو بين العثرات والطفرات .. حتى نفى فى عهد نابليون الثالث على إثر معارك سياسية رهيبة .. وخرج من باريس هائما على وجهه ، فأقام سنوات فى بلجيكا ، ثم انتقل إلى جزيرة جرسى فجزيزة جرانسى ، وظل ثمانية عشر عاما فى منفاه خارج وطنه .. ولم يكن وحيدا فقد لحقت به زوجته إديل ، كما لحقت به رفيقة عمره وملهمته جولييت درويه ، حيث أقامت فى منزل مجاور لمنزل الأسرة ، ولكنها لم تدخل قط إلى بيت زوجته ، بالرغم من علاقات « الصداقة » الوطيدة التى كانت تربطها بغريمتها إديل !!.. ولا أدرى من أى نوع كانت هذه الصداقة !!.. ولكن هكذا يقول المؤرخون !!

●● وماتت الزوجة الصابرة المستسلمة فى بروكسل سنة ١٨٦٨ ، قبل أن يعود الشاعر الكبير إلى وطنه .. ولما سقطت الإمبراطورية الفرنسية بعد الحرب مع بروسيا فى سنة ١٨٧١ ، عاد فيكتور هوجو إلى باريس .. وهو شعلة متقدة من الحماس والانفعال والعطاء بالرغم من سنوات عمره وغزارة نتاجه الفكرى .. فاستأنف نشاطاته وعلاقاته واستقطاب الأضواء من حوله من جديد .. حيث لعب فى تاريخ بلاده دورا قياديا فكريا على أرفع مستويات العصر !

ولم يعد هناك من عائق لكى تقيم ملهمته جولييت فى بيت الأسرة بين أولاده وأحفاده .. وقد عملا معا

● ● وعندما لفظ أنفاسه الأخيرة فى الساعة الواحدة والدقيقة السابعة والعشرين من بعد ظهر يوم الجمعة ، الثانى والعشرين من مايو سنة ١٨٨٥ ، كان آخر ما نطق به وهو فى سكرة الموت : « هنا تنتهى معركة الليل والنهار » ! وقد أجهد الباحثون أنفسهم فى تفسير هذه العبارة ولم يصلوا إلى شىء !! وما كاد نبأ موته يذاع فى باريس حتى رفع مجلسا الشيوخ والنواب جلستيهما حدادا على الراحل العظيم ، وتقرر أن يدفن جثمانه فى « البانثيون » ، مقبرة العظماء من رجالات فرنسا ، بعد عرضه تحت قوس النصر .

ثم فتحت وصيته التى كتب فيها :

« إننى أوصى للفقراء بخمسين ألف فرنك » .

« أرفض البركة والطقوس من رجال الدين » .

« وأطلب صلاة الناس جميعا ، من أجل الجميع » .

« وإنى أومن بالله العظيم » !!

على أن يظل حبهما فتيا قويا بالرغم من صروف الأيام وضراوة الأحداث التى جابهتهما ، ولا غرو أن أطلق عليهما التعبير الشهير آنذاك : فيكتور وجولييت ، ليعيد إلى الأذهان دائما قصة : روميو وجولييت الخالدة !

وبالرغم من هالة الشعر الأبيض التى كللت رأسيهما ، والتجاعيد التى طبعت بصماتها على وجهى الحبيبين وبالرغم من تراكم السنين على كاهليهما إلا أنهما قد ازدادا وفاء وإخلاصا وتفانيا فى حب كل منهما للآخر !

وفارقت جولييت الحياة فى عام ١٨٨٣ بعد أن عاشت مع فكتور قصة حب طويلة دامت نحو خمسين سنة .. ثم لحق بها رفيق عمرها بعد ذلك بعامين فى سنة ١٨٨٥ وهو فى الثالثة والثمانين من عمره .

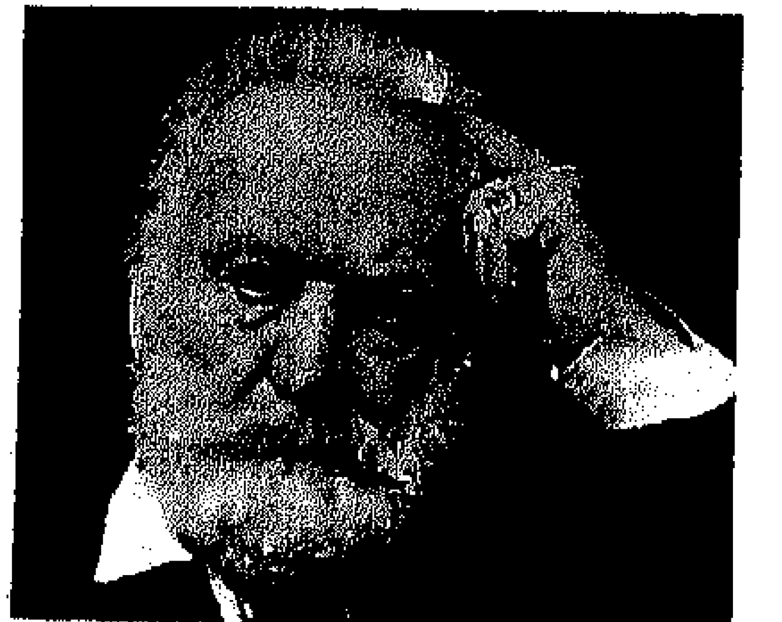






هوجو وجولييت فى خريف العمر

ثم صورتها فى أيام الأضواء والأمجاد



فهرست

صفحة

.... وإلى لقاء قريب بإذن الله مع الجزء الثانى من « الملهمات »

الملهمات
في الفن والتاريخ







هـذا الكتاب

هذا الكتاب الذى بين يديك يا عزيزى القارئ « الملهمات فى الفن والتاريخ » ، هو الكتاب الرابع من سلسلة الكتب الفنية التى ألفها — أو شارك فى تأليفها — الفنان المبدع متعدد الكفاءات ، جمال قطب .

فها هو ذا بعد كتبه الثلاثة : « الفن والحرب » و « روائع الفن العالمى » و « أشهر الرسامين والموسيقيين العالميين » — الذى اشترك معى أو اشتركت معه فى تأليفه — هذه الكتب التى حظيت من عشاق الفنون التشكيلية بكل إقبال وتشجيع ، يضيف إلى المكتبة العربية هذا السفر الرابع ، الجميل الرائع ، الذى جاء ثمرة اطلاع دءوب على الآثار الفنية الرفيعة فى أروقة المتاحف العالمية ، أو على ما تزخر به المؤلفات الفنية فى مختلف العواصم الأوربية .

هذا وإن من يطلع على إبداعات فناننا القدير جمال قطب ، ليحار حيرة شديدة ، أيضمه إلى قائمة الفنانين العظام الذين استوعبوا الثقافة الفنية أيما استيعاب ، وألموا بها إلماما كاملا شاملا ومارسوها ممارسة عملية متفوقة ، أم يضمه إلى قائمة الكتاب المبدعين ، الذين تتدفق كتاباتهم فى سلاسة وقوة ، فتستولى على أفئدة قرائهم ، وتأخذ بألبابهم ، والحق إن جمال قطب قد جمع بين الحسنيين : عمق التفكير وجمال التعبير ، فضلا عن أنه يعتبر بحق من رواد الفنون التشكيلية الأوائل فى مصر والشرق العربى ، فمقالاته الفنية العديدة التى تزخر بها الصحف فى مصر والعالم العربى ، يتلقاها القراء بشوق ، ويقبلون عليها بحب وشغف .

والكتاب الذى بين يديك الآن — يا عزيزى القارئ — يظهر بجلاء على أن وراء كل عظيم امرأة ، إما أن تدفع به ليصعد سلم المجد والشهرة والفخار ، وإما أن تكون فى الوقت نفسه سببا فى فشله ونكبته .. بل ونهايته أحيانا ، فإذا رأيت ثَم رأيت باريس وملهمته هيلين فاتنة طروادة ، أو أنطونيو وقيصر وملهمتهما كليوباترا ، أو ليوناردو دافنشى وملهمته الموناليزا ، أو روميو وملهمته جولييت ، أو الفنان البريطانى رومنى وأمير البحر نلسون وملهمتهما ليدى هاملتون ، أو الشاعر ألفرد دى موسيه والموسيقىّ شوبان وملهمتهما جورج صاند ، أو لويس الخامس عشر وملهمته مدام دى بمبادور ، وغير أولئك كثير من أساطين الفن والتاريخ والأدب وفاتنات المجتمع وملهماته .. آملين أن تكون مؤسستنا الرائدة قد أضافت إلى إصداراتها التعليمية والتثقيفية والأدبية ، مجالا فنيا رفيعا للفنان والباحث ، حتى نكون بهذا قد أكملنا حلقات الفكر الإنسانى المتطور فى الثقافة العربية الناهضة .

سعيد جوده السحار



